البحث عن اله مجهول

جون شتاينبك

البحث عن إله مجهول

ترجمة

عمر ديراوي

مكتبة المعارف
بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مكتبة المعارف

ص. ب. ١٧٦١

بيروت

بيروت ١٩٨٣ م

عندما نُقلت محاصيل الكروم ، والأخشاب الكافية لوقود الشتاء ، تحت وقساء يحميها من طلائع الجليد ، في مزرعة (واين) القريبة من (بيتسفورد) ، بولاية فيرمونت الأميركية ، سار جوزيف واين — ذات أصيل — نحو مقعد أبيه بجوار المدفأة ووقف أمامه .. وكان الشبه كبيراً بين الأب وابنه ، فلكل منهما أنف كبير بارز ، وكأنما نُحتّ وجهاهما من مادة صخرية أقوى وأصلب على مقاومة عوادي الزمن من اللحم العادي . وكانت لحية جوزيف سوداء ، ناعمة ، لا تزال خفيفة الشعر ، في حين كانت لحية الشيخ طويلة ، بيضاء ، راح يتخللها بأصابعه ويمشّطها بين الفينة والأخرى وكأنه يبعد عنها الأذى . ومضت برهة من الزمن قبل أن يفطن الوالد الى وجود ابنه بجواره . فرفع اليه عينين واهنتين ، وإن كانتا خبيرتين هادئتين ، شديدتي الزرقة .. ولم تقوَ عينا الشاب الحادثان — اللتان بثّ فيهما الشباب استطلاعاً وفضولاً — على أن تصمدا طويلاً ، ففضّ جوزيف بصره وقال في ذلة :

— لن تعود الأرض تتسع لنا يا سيدي !

وأحكم الشيخ دثاره حول كتفيه النحيلتين وقال بصوت رقيق خُلق لينطق بالعدالة في أبسط صورها :

— ما الذي تبغي أن تشكوه يا جوزيف ؟

فأجاب الشاب : ألم تسمع أن (بنجي) شرع يبحث عن زوجة يا سيدي؟..

لسوف يتزوج في الربيع ، فإذا جاء الخريف أنجب طفلاً .. وفي الصيف التالي طفلاً آخر .. والأرض لا تتمدد أو يزيد اتساعها من تلقاء ذاتها يا سيدي ، ومن ثم فهي لن تتسع لنا !.

غضّ الشيخ بصره رويداً ، وشابك أصابعه في حجره ثم قال :

— لم ينبئني بنجامين بهذا بعد ؟ ولم يكن بنجامين أبداً أهلاً للاعتماد عليه . فهل أنت متأكد من أنه جاد في عزمه ؟

— أخبرني بذلك أفراد عائلة « رمزيْ » في بتسفورد .. فقد اشترت ابنتهم (جيني) أثواباً جديدة لهذا الغرض .. وقد لمحتها اليوم فلم تنظر إليّ

— ربما كان الأمر كما تقول .. لا بد أن يحدثني عنه بنجامين .

— وهكذا ترى يا سيدي أن الأرض لم تعد كافية لنا جميعاً .

ورفع الشيخ بصره ثانية وقال برزانة :

— في الأرض متسع ، يا جوزيف . لقد تزوج أخواك : بيرتون وتوماس ، ومع ذلك ظلت الأرض تكفينا ، وأنت التالي لهما حسب سنّك ، فلا بد لك من زوجة !

— لكل شيء طاقة وحدّ ، ولن تطعم الأرض كل هؤلاء .

ولمعت عينا الشيخ وسأله :

— أفي نفسك حقد على اخوتك يا جوزيف ؟ أهناك نزاع بينكم لم أدرِ به ولم يصل الى علمي ؟

فهتف جوزيف محتجاً : لا يا سيدي .. إنما المزرعة صغيرة ، وبي ظمأ الى أن تكون لي أرضي الخاصة .. وقد قرأت عن الغرب ، وعن رخص أرضه وخصبها ..

وتنهد الشيخ وهو يعبث بلحيته .. وخيّم صمت ثقيل فوق الرجلين ، بينما وقف جوزيف أمام والده (البطريرك) ينتظر قراره الحاسم في الأمر .

وقال الشيخ أخيراً : ليتك تصبر عاماً آخر او اثنين ، فأنت لا تزال في الخامسة والثلاثين .. سنة او اثنتين ولن تتعدى العامين بالتأكيد ، وسيكون لك ما طلبت . إنك لست أكبر أبنائي يا جوزيف ، ولكني دائماً أميل اليك وأوثر

برضائي ، فأخواك توماس ويرثون طيبان ومن خيرة الأبناء ، ولكني اتمنيت أن أستعلك بركني لتحتل مركزي في العائلة .. فإن فيك قوة تفوق ما لدى إخوتك .. شيئاً غامضاً يوحي بالثقة والاعتداد .

— ولكن الناس تتدفق على الترب ، ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يقيم في بقعة منه عاماً ، ويشيد لنفسه داراً ، ويحرث حقلاً ، فتصبح الأرض له دون منازع ..

— أعرف ذلك ، فقد سمعت به . ولكن ، لنفرض انك ارتحلت الآن ، فلن يبقى إلا رسائلك تنقل إليّ كيف تسير امورك في الأرض ، بينما سأرافقك بروحي في عام واحد او اثنين على الأكثر . فانت تعلم أنني شيخ طاعن في السن ، قريباً ما ترفرف روحي فوق رأسك في الهواء ، فأرى المزرعة التي تنتقيها والبيت الذي تقيم أركانه . وإلا ، كنتُ متشوقاً لذلك كثيراً كما تعهدني . ولربما استطعت ان اساعدك بطريقة او بأخرى ، فإذا ضللّت إحدى بقراتك مثلاً . أمكنني ان اساعدك في العثور عليها حين أكون طليقاً سابحاً في الفضاء أرى أبعد مما ترى وأعلم أكثر مما تعلم . إنتظر عاماً او اثنين يا جوزيف ليتسنى لي ان اساعدك .

ولم يُقنع هذا الحديث الأبوي الرقيق إلحاح جوزيف ، ولم يطفىء حرقته الى امتلاك أرض خاصة به ... كان يشعر بالجوع الى ذلك ، وقال بلهجة الملحّ المتكالب :

— الأرض يتناهبها الناس ، وها قد مضت أعوام ثلاثة على مطلع القرن ، وأخشى ان تنفد الأرض الجيدة ، وفي النفس ظمأ اليها .. ظمأ الى ان تكون لي مزرعة خاصة !

وبدا على عينيه النفاذتين بريق حاد ، بريق الجوع ، بريق شهوة التملّك .

وهز الشيخ رأسه مرة وثانية وثالثة ثم جذب الشال فوارى به كتفيه جيداً وقال :

— آه . حسناً . إذن ليس ما بك مجرد انزعاج طفيف ، سأعوزك فيما بعد .

وبصوت حاسم قال الشيخ :

— تعال يا جوزيف .. ضع يدك هنا ... لا . هنا ، فهكذا فعل بي والدي ، ولا يمكن للطقوس القديمة أن تكون خطأ .. أترك يدك محلها .

وخفض الشيخ رأسه الفضيّ الشعر وقال :

— لتحلّ بركة الرب وبركتي على هذا الولد ، وليعشْ في نور وجه الرب ، وليحبّ حياته كل الحب .

وأطرق لحظة ثم قال :

— والآن يا جوزيف ، يمكنك أن ترتحل إلى الغرب. لقد انتهى أمرك معي.

وحلّ الشتاء بثلوجه العميقة وهوائه اللاسع من برودته ، كالإبر ، وظل جوزيف يتجول حول البيت طيلة شهر كامل ، تشغله خواطر الرغبة العظيمة في التجرد عن مَدْرج شبابه وذكريات ذلك العهد في المزرعة ، لينتقل إلى الغرب فيبني لنفسه بيتاً متواضعاً وينشىء له مزرعة خاصة . وقد شعر بعد مباركته بأنه غريب عن منزل والده ، وأنه مما يسر إخوته أن يرتحل عنهم . لذا ارتحل فعلاً قبل قدوم فصل الربيع من ذلك العام فوصل إلى كاليفورنيا وسفوحُ تلالها يكسوها بساط من السندس الأخضر الجميل .

- ٣ -

حط جوزيف رحاله واستقر به النوى في وادي نوستراسينورا (سيدتنا العذراء) بعد أن أمضى زمناً غير قصير من التطواف ، ينتجع المراعي الخصبة والأرض السمينة الجيدة. وفي ذلك الوادي سجل مقر سكنه. ويقع ذلك الوادي في أواسط كاليفورنيا ، تزينه خضرة العشب ، وصفرة السنابل، وزرقة السماء.. فتكسبه هـــذه الألوان البديعة منظراً بهيجاً يبعث الرضى في النفس ويمنحها غبطة الحياة .

كانت الأرض المستوية عميقة تحت رؤوس سنابل الشوفان البري وتويجات زهر الخردل، وكان نهر فرنسيسكيتو يهدر بين ضفتيه ثم يختفي في مغارة عظيمة نحتها على مقربة من غابة كثيفة من الصنوبر هناك ، وتحف به سلسلتان جبليتان تحصران ذلك الوادي فتحرسانه من طغيان البحر من جانب ، ومن عسف رمال وادي سالیناس من جانب آخر . وكان في طرف الوادي القصي منفذ يسري فيه النهر ليمر بمدينة (سيدتنا) الصغيرة، محاذياً لكنيستها الحجرية الجميلة وقد تناثرت حولها أكواخ الهنود الطينية . ومع أن الكنيسة كانت مهجورة آنئذ ، وصور قديسيها بالية مهترئة كالعوارض الخشبية في سقفها ، إلا أن الهنود المكسيكيين كانوا لا يزالون يتبركون بها ، فيقيمون احتفالاتهم في فنائها حيث يرقصون ويغنون أغاني (غوتا) على أرضها الموحلة ، ويقضون سحابة نهارهم تحت الشمس . بل كثيراً ما يقضون لياليهم في نفس المكان أيضاً .

وسرعان ما انتقل جوزيف الى أرضه بعد أن سجّلها في المديرية ، وعيناه تلتمعان ببريق اللهفة والارتياك تحت قبعته غير المحددة الأطراف. كان يستنشق رائحة أرض الوادي الزكية بنهم . وكان مرتدياً بنطالاً أزرق يطرزه صف من الأزرار النحاسية الصفراء على خصره ، وقميصاً أزرق مفتوح الجيب، وفي قدميه حذاء عالي الكعبين يضمه مهمازان مجلوان كأنهما من الفضة .

وتقدم منه أحد الهنود المكسيكيين متثاقلاً في خطاه ليقول :

— هل هنالك وليمة أيها السيد ؟

— لا ، وإنمـــا حصلت على ماية وستين هكتاراً من الأرض ، أنت تراني أنتقل اليها .

ووقع بصر المكسيكي على بندقيته في مقرّها إلى جانب السرج ، والحمّالة مشدودة إلى عضد جوزيف فقال متوداً .

— إذا حدث ان اصطدت وعلاً أو غزالاً فأرجو أن تتذكر «جوان» العجوز يا سنيور .

وتابع جوزيف سيره مغتبطاً ، وهو يقول :

— سأقيم وليمة عندما ينتهي بناء البيت بأكمله ، ولن أنساك حينئذ يا جوان العجوز .

— باستطاعة صهري أن يعزف على القيثارة يا سنيور .

— إذن سيحضر هو الآخر معك .

واستمر جواد جوزيف يتواثب نشطاً في سيره ، تخشخش تحت حوافره أوراق البلوط السريعة التقصف ، بينما تقرقع نعاله الحديدية على الحصى ورؤوس الحجارة الغارزة في أرض الطريق . هـذا بينما شعر جوزيف بشيء من الحيـــاء والتشوق ، كأنه شاب غِرٌّ ينسلّ للقـــاء حبيبته في موعد غرام . لقد انتشى وغمره شعور بالرضى من تلك الغابة وهو يخترقها، وشعر بشيء من الانوثة اللذيذة في تشابك فروع الأشجار وتعانق أغصان الشجيرات الملتفة على سوقها ، وفي مظهر ذلك الكهف المخضر الذي تحته مسيل ماء النهر وهو يتعرج بين الأشجار ،

وتنساب مياهه الثرة في جداول وسواق طبيعية بعذابة بين عروق الشجيرات الملتفة ، كأنها تخشى عليه عين الشمس أن تنفذ اليه سهامها فتلوّعه بضرامها القتال .

وبدت الروح الخضراء المترامية الأطراف ، والدروب البيضاء الضيقة تحجز الواحد منها عن الآخر ، ولاحت الكهوف الطبيعية لم تفسدها يـــد الانسان وصناعته بعد .. بدت وهي تحمل في ذاتهـا معاني لذينة غامضة كأنها طقوس ديانة قديمة مجهولة . وشعر جوزيف بقشعريرة الفرح ، فأغمض عينيه وهو يتمتم لنفسه :

ــ ربما كنت مريضاً ، وما هذا إلا خيالات محموم .

ونشب أحد أغصان العليق بقبعته فأزاحها بعيـداً عن رأسه . وترجل جوزيف ليستعيدها ، فربت بكفه على خـــد الأرض وقبّلها . ثم تناول قبعته وامتطى حصانه وتابع السير . فقد كان في حاجة الى ان ينفض عن نفسه تلك الحالة التي داهمته . ونظر الى أعالي الأشجار حيث تتماوج أوراقها في أشعة الشمس الساطعة ، وحيث تغني الريح لحناً طروباً تتراقص عليه الأوراق بعد ان تعانقت أفنانها وتخاصرت منها الجذوع . وكانت الأصوات الصادرة من احتكاك سرجه بظهر الجواد ، ورنين سلاسل مهمازيه ، ونخرات حصانه وقرقعـة اللجام بين فكيه ... كل هـذه تعزف أنغاماً شجية في نفس جوزيف ، أنغاماً تنسجم وتتجاوب مع لهاث الأرض حين تقع حوافر الحصان على سطحها .

وشعر جوزيف أن عواطفه كانت من قبل بليدة خامدة ، وها هي الآن قد انطلقت من عقالها. لقد كانت في سبات عميق ، وها هي تفيق على ملذات الحياة.

لم يعد جوزيف يذكر أيام شبابه ولا ذكريات طفولته .. لقد انسلخ عنها ، وها نفسيته تتفتح على الحياة من جديد . وستملك عليه أرضه الجديدة كل حواسه إذا لم ينتبه لنفسه ، ستستحوذ على روحه وجسده لتجعله بدوره قطعـة منها ، في غرام عنيف مشبوب لن يصمد على مقاومته أو يستطيع الفكاك من طغيـــانه القاهر . وتذكّر والده ، هدوءه ، واطمئنانه .. قوته ، وأبدية كونه على صواب في حكمه ، وانتهى تفكيره بأنه لا فرق بين والده وبين هـــذه الأرض . فهما

متحدان، إثنان في واحد. فلماذا يقاوم هو إذن ؟ وطرقت خياله فكرة جديدة عند وصوله الى هـــذا الحد من الشعور ، فقال : (لا بد أن والدي قد مات .. هذا هو والدي .. إنه الأرض نفسها) .

كان الحصان قد عبر حدود الغابة القصوى الآن وأخذ يسير في طريق منعطف تظهر عليه آثار مرور عربة سابقة لا بد أن أقلّت رهطاً من الرواد أمثال سيده. كما ظهرت آثار قوائم بعض الحيوانات تقتفي الأثر و كأنها تود الرفقة والاستئناس. ومال الدرب في انحنـاءة واسعة ليتجنب أفراع بلوطة ضخمة تدلّت أغصانها حتى تكاد تلامس الأرض تقبّل وحناتها ، وحيث بدت آثار أسد كان قد افترس فنيصته فالتهمها وخلّف من رائحتها وهيبته ما يضطر الغير الى تجنب الطريق . وكان أمام ذلك آثار ثعبان ضخمة سحلت جلدهـا على الرمال وهي تتشمس بالقرب من تلك الصخرة الجبارة .

تجنب الحصان هـذه الآثار بقوة غريزته وسار في الطريق المسلوك . فأدّى به المسير الى مرج حشيشي عريض ، تقوم في وسطه اجمـــة من أشجار البلوط الخضراء ، ضخمة جبارة ، كأنها جزيرة في وسط ذلك البحر الأخضر من المرج. فوجّه الحصان نحوها . ومـــا أن اقترب جوزيف حتى سمع أنيناً حاداً وزعيقاً منكراً اقشعرّ له بدنه . وزاد اقترابه .. فرأى فحل خنزير بري عظيم الجسم ، أحمر اربد ، تساقط الشعر عن كتفيه . كانت أنيـــابه معقوفة حادة وهو يمزق جسد خنزير آخر صغير ، يرتعش ، وينزف ، ويبعث ذلك الزعيق المنكر . فتتمازج من اثر صراخه لبدة قاتله، ولكنه لا ينفك يمزقه بأنيابه شرائح ومضغات!

وفي الجانب الآخر رأى جوزيف خنزيرة وخنانيص تدك الأرض بقوائمها وهي تولي أدبارها مذعورة، قد هالها الرعب وتملّكها الذهول من منظر الوحش الكبير مقبلاً قبل أن يفتك بشقيقها . وأحسّ الخنزير باقتراب جوزيف فتوقف عن التهام .. مـــا قنص ، ورفع خرطومه يشمّ الرائحة . ثم استأنف وجبته والفريسة تزعق ألماً وفظاعة . وكبح جوزيف جواده ، واحتقن وجهه غضباً وابيضّت عيناه من الحنق ، وقال :

— عليك اللعنة ، أو تأكل أبناء جنسك !

وتناول بندقيته من مقرها في السرج ثم دكها وصوّب على مجبهة الخنزير ، إلا أنه ضحك ، وخفض البندقية من يده بعد أن ردّ ضاغط الأمان إلى موضعه وهو يقول :

— إن بين يديّ قوة هائلة ، كما أنها قاتلة . ولربما كان هذا الفحل أباً لخمسين خنوصاً كما أنه يستطيع أن يكون أباً لخمسين آخرين . . فلماذا اقتله ؟

ونخر الخنزير حينما مر به جوزيف على الحصان ، ثم أدار عقبه وولى .

وانعطف الطريق الآن إلى سفح تل تكسوه شجيرات صغيرة كثيفة من عليق وشلوط ومنزنيتا ، وتتشابك دلوبها حتى يستحيل على الأرانب البرية أن تندس فيما بينها ، فتلجأ إلى حفر أخاديد صغيرة في الأرض ذاتها . .

واستمرت الطريق حتى انتهت إلى حافة ضيقة يحوطها حزام من أشجار البلوط والسنديان من أنواع مختلفة ، تلوح بين أفراعها غيوم ممزقة من الضباب تكاد تلامس أعاليها وتلتقي القطعة منها بثانية وثالثة فتتجمع غيمة واحدة تغطي مساحة كبيرة من الفضاء وينعكس ظلها على قسم من الغابة فيظللها . وتستمر هذه الغيمة الكبيرة في سيرها تزجي بها ريح هادئة فتغدو وكأنها قافلة من الأشباح اللطيفة تجسدت في السماء، حتى يصدمها تيار من الهواء الحار فتتبعثر في أرجاء قبة السماء شذر مذر، وينفرط عقدها فتتمزق. كانت تلك الغيوم المبعثرة متناثرة على طول الوادي ، كأنها أرواح الأموات فوق مقبرة مدينة صغيرة يوم الحشر ، ترفرف الواحدة منها وهي تفتش عن جسد تحل فيه .

ورفع الحصان قوائمه الأمامية وشمخ بمنخره . . انه يستنشق رائحة الغابات التي طابت له فأورثته نشاطاً في الحركة وأزالت من نفسه الشعور بالتعب . وأبصر جوزيف مجموعة من أشجار المادورن العملاقة ، فتعجب كيف تكتسب كعَرُ تلك الأشجار وعقد جذوعها مظهر عضلات الإنسان في انتفاخها وانحناء طرفيها ! وكيف تقوم في تلك العقد ألياف تشبه الشرايين والأوردة في عضلات الإنسان ، تلك تحمل الغذاء إلى الأوراق والثمار ، وهـــذه تحمل الدم إلى مختلف أطراف

الإنسان ! وتحسس جوزيف أحد هذه الأفراع بيده كأنه يود أن يتلمس نبض الحياة في عروقها ، فوجدها باردة صلبة فيها يبوس ، مع أن الأوراق في أعاليها كانت خضراء لماعة في حرارة الشمس الساطعة .. فما أشد مراس تلك الأشجار وما أقل رحمتها على غيرها حين ينازعها الغذاء ! انها تصرخ ألماً حين تطقطق أثناء حرقها ويتطاير منها الشرر !!

ووصل جوزيف إلى أقصى ارتفاع التل فأصبح بإمكانه أن يلقي نظرة على المروج المعشوشبة الخضراء ، حيث بنى بيته ، وستكون مزرعته فيما بعد .

كانت سنابل الشوفان البري تتماوج فضية جميلة ، بتأثير نسيم لطيف هبّ عليها ، وبدت البقع السوداء من الصخور وسط ذلك البساط الأخضر وكأنها غيوم متناثرة في زرقة السماء . بينما انبعث نور القمر هادئاً كله عشق وغرام ، يغازل الأرض ويدغدغها بشآبيبه . وأوقف جوزيف حصانه ليلقي نظرة على تلك المروج الفسيحة الخضراء ترتفع في وسطها بلوطات عظام فيها الحكمة وفيها جلال السنين . إنهـــا أعضاء مجلس الشيوخ في مجتمع التاريخ ، تقف حارسة حازمة ، تسيّر أمور مجتمعها بحكمة وانصاف . ورأى النهر ينعطف مثريثاً تارة ، وينساب منطلقاً أخرى كالحية على رمال الصحراء في يوم قائظ . وهناك على بعد ميلين اثنين ، وإلى جانب بلوطة عملاقة ، كان باستطاعة جوزيف أن يرى خيمة صغيرة دُقت أوتادها حديثاً ، هي خيمته . وراقه المنظر .. فأطال وقفته . وشعر بحب عارم نحو تلك الأرض . وتفاعلت روحه مع خصب المروج ونماء الأعشاب في تربتها المباركة . وتدفقت في عروقه رغبة الحيـــاة ملتصقاً بتلك الأرض ، فقال وقد تجسد صدقَ نوعٍ جديد من الغرام المقدس : هذه أرضي ! واغرورقت عيناه ، وفاضتا بدموع الفرح والنشوة . وملأ ذهنه العجب ، فقد أصبح الآن يقول (هذه أرضي) ! وأحس في نفسه عطفاً على العشب والأزهار وحباً لها . كما أحسّ بأن الأشجار أطفال أعزاء على قلبه ، أطفاله هو ، فلذات كبده التي غذاها من دمه .. وأن الأرض ولده الأكبر ، يحبه ، يعشقه ، يقدسه ، يعبده ، فهو هو .. الأرض جوزيف .. فلماذا لا يعبد نفسه ! وقال :

— هذه أرضي ، فعليّ أن أهتم بها وأحضها النصح وأصدقها العمل .

كانت السحب الصغيرة البيضاء لا تزال تهيم فوق الوادي ، قد تجمع طائرو منها فاتجه إلى الشرق ليلتحق بجيش عرمرم تكوّن على سفح التلة هناك ، وثبت لصدّ هجوم جيش آخر من الغيوم التي تزجيها رياح المحيط . وكانت كتيبة ضخمة قد اجتازت حدودها وبقي على قلب الجيش أن يسندها فيتقدم إلى ساحة الحرب ، حيث يخطط متاريسه وينصب مدافعه ويموّه آلياته .

وقصف الرعـــد .. وجلجلت أصوات طلقاته في السماء ، فشعر جوزيف بالغبطة والسرور لذلك العنف الذي توقعه في الهجوم . وتساقطت نقاط المطر أصغر فأصغر : كانت ضحايا المعركة . لم تستطع الصمود أمام زحف جيش المحيط ومدفعيته الصاعقة . وتزايد القتلى فصار المطر غزيراً ينهمر على أوراق أشجار الغابة فيبعث فحيحاً ليس كفحيح الحية قتيلاً تأنف سماعه الآذان ، وإنما فحيحاً يبعث على دفء الحياة وخصبها .

وتبللت ملابس جوزيف أولاً ثم غرقت تماماً . وجعل الماء يرشح من كل شعرة في جسد الحصان ، وتكونت فوق حوافره الكبيرة فقائل من الشعر يتخللها الماء المنصب من ركبتيه . وكانت تلوح في النهر قطع الأخشاب وعروق الأشجار وبعض الحجارة الكبيرة ، تتدافع من قوة التيـــار ، وتتلامع على صفحة الماء المتدفق .. وقد غدت حمراء اللون لكثرة ما جرفت المياه من الأتربة .

كان منظراً تلذ رؤيته عشاق الأرض ويستهويهم .. إنه مترع بخصب الحياة ونماء الطبيعة . واقترب جوزيف من خيمته . وصدف أن ارتفع المطر ، وسطعت أشعة الشمس حمية كالعذراء في خفرها حين يطلب يدها حبيب ، فيتورد خداها وتغضّ من بصرهـــا ، ثم يستولي عليها الارتباك . وهبط جوزيف من صهوة جواده ، فأبعد عنه السرج ومسح قفاه وكتفيه بخرقة من قماش ثم أطلقه يرعى . ووقف هو في جمّة من الحشيش أمام الخيمـــة ، بينما كانت الشمس ترسل أشعتها ذهبية متراخية وهي تميل للغروب ، ورياح المساء اللطيفة في الوادي تعبث بشعر لحيته الخفيف .

وعاوده جوعه الى الأرض.. فانعكس شهوة متقدة في عينيه وهو يرمق امتداد الوادي ويقول : (هذه أرضي ، بعيدة مترامية الى أعماق الدنيا). وغرز قدميه في الأرض الرطبة ، فاهتز جسده وانتشى ، وبدا كأن تياراً عنيفاً من الشهوة قد سرى في جسده على شكل نهر من النار . كان يود امتلاك الأرض ، وها قد نال شهوته فليشبع في نفسه رغبتها . فانبطح على الأرض وألصق وجنته بالعشب الطري القصير ، وشدّ قبضته على الحشيش الندي فاقتلعه . وشدّه ثانية ، فيما اصطفقت فخذاه على الأرض بعنف وحرارة .

وفارقه شعوره الجامح هذا ، وعاودته البرودة ، فذهل مما فعل . واعتدل فجلس وأخذ ينفض ما علق بقميصه من الطين ، ويزيل الوحل من على خده ولحيته . وتساءل : ماذا جرى لي ؟ ما الذي أصابني حتى أفعل ما فعلت ؟ وهل بي حاجة قصوى الى هذا الحد ؟ وحاول ان يتذكر بدقة ماذا فعل .

وقد كانت الأرض بمثابة زوجة له طيلة لحظات امتداده عليها ، فقال :

— إنني في حاجة الى زوجة ، وسأشعر بالوحدة القاتلة في هذا المكان إذا لم ترافقني زوجة فيه .

لقد كان جوزيف تعباً ، وتيبست أعضاؤه كأنه قد أزاح صخرة عظيمة من موضعها ، فقد أخافته لحظة اندفاق عاطفته تلك .

●

أعدّ جوزيف عشاءه الخشن على نار صغيرة أمام خيمته ، ثم جلس على الأرض يرقب نجوم الليل ترنو اليه . وأحسّ خفقان قلب أرضه بحبه .. وخمدت النار وانطفأت جمراتها . وسمع جوزيف عواء بنات آوى على سفوح التلال ونعيب أفراخ البوم ، كما ترامى الى سمعه زعيق فئران الحقل تنط حوله في مرح وحبور .. وطلع القمر جميلاً من وراء المرتفعات في الشرق بعد ان أرسل من نوره ما انعكس على سوق أشجار الغابة الحمراء والصفراء ، فكوّن بذلك مزيجاً من الألوان ، تكاملت ، فأصبحت لوناً واحداً هو لون العسل الشهي ، حين يقطعه النحّال من قفير في البرية .

٣

مع جوزيف طنين أجراس العربات البهيج قبل أن تلوح له مبانيها بزمن طويل . وكان الليل ماجيا في أعقاب المطر ، والوادي يمور بالحياة ، أنيسا تملأه الأصوات الصغيرة .. من طنين صرصور إلى عواء ثعلب ، ومن حفيفة عشرة إلى طقطقة أحد الأفراع وخشخشة الهوام بين الحشيش الطويل النامي . ها جوزيف في نشوة الفرح : فقد امتلك أرضا خصبة ، عمّدها المطر ، وبارکتها روح والده ، وأقـــام فيها خيمة يأوي اليها . وها هي أجراس عرباته تدق ، تدق ، ويخفق قلبه مع كل دقة . إنها تدق لتنبه غيرها أن يفسح لها الطريق ، ويظنها جوزيف تدق لتنبهه أن عجلاتها قد دارت دورة واحدة .. تقترب .

كان جوزيف قـد اغتسل ومشط شعر لحيته ، وهو ينظر بعينين طال عليهما الانتظار . فقد انقضى أسبوعان من الزمن وهو وحيد في هذه الأرض يقطعها كل يوم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب .. يتحدث مع البلوطات فيها ، ويداعب الشجيرات على حافة مسيل الماء . انه يدغدغ الأزهار البرية الكبيرة ، ويخاصر جذوع السنديان .. يتحدث إلى كل صخرة ، ويهمس في أذن كل قاع من الأرض المنبسطة . وهو يناجي غابة الصنوبر ، ويطارح التلة الصغيرة الغرام . كان يشتهي الأرض فيكلّمها ، ويخاطب الرمال بأرق لغة وأعذب لسان — مع أنه لا يحسن الحديث مع الناس . وإنمـــا كانت مناجاته للطير وبطارحته للشجر ، وغرامه بالرغبة المتقدة في جوانحه .

وأخيراً أصبحت تلك العربات في مدى بصره حين أطلّت رؤوس الخيل من بين أشجار الغابة ، وهي تسير متعبة منهوكة القوى تكاد تعجز عن جر العربات الثقيلة المحملة بالألواح الخشبية على تلك الطريق الصلبة الجديدة . ولوّح سائق العربة الأولى بقبعته إلى جوزيف ، ولمع (كبّاس) رباطها المعدني في ضوء الشمس ، فتقدم جوزيف نحوه ليلاقيه .. وتسلق إلى المقعد الأمامي بجانب سائق العربة الأولى فصافحه .. ووجده كهلاً صارم النظرات مقطوط الشعر ، قد لوحت الشمس عارضيه فأكسبت وجهه المغروق لوناً برونزياً ، وجعلته يبدو كورقة التبغ الجافة .

ونقل السائق أعنّة خيله إلى يده اليسرى ، ونفض اليمنى كمن يروّضها .

وابتدر جوزيف الحديث فقال :

— كنت أنتظر وصولكم قبل هذا التاريخ ، ما بالكم ! هل جدّ معكم حادث في الطريق ؟

— لا حادث خطير يا مستر وين : مجرد صفعة على وجه جوانيتو ، وفقدان العجلة الأمامية من عربة يسوقها ولدي ، وأعتقد أنه كان نائماً حينئذ . وكما ترى ، ليس هذا حادثاً بالنسبة إلى طريق جديدة كهذه .

— ستصبح جيدة عندما تدوسها العربات .

وأشار جوزيف بسبابته إلى بلوطة كبيرة وقال :

— سنفرغ هذه الأخشاب هناك ، تحت تلك البلوطة .

وبدا على ملامح وجه السائق أنه يتساءل : « وهل تبني تحت شجرة ؟ فلربما انهار أحد أفراعها ذات ليلة فأطاح بسقف بيتك وسحقك في داخله وأنت نائم » .

وأراد جوزيف أن يطمئنه على سؤال لم يفصح عنه فقال :

— إنها شجرة قوية ضخمة ، ولا أحب أبداً أن يكون بيتي بعيـــداً عن شجرة ما ، هل بيتك بعيد عن الشجر ؟

— لا ، وهذا ما جعلني أكاد أسألك . إذ أن كوخي اللعين يقع بكامله تحت شجرة ، ولا أدري حقاً كيف أفتته في ذلك الموضع ولم أنتبه ، إذ كثيراً مـــا

أستيقظ أثناء الليل ، وأفكر فيما لو انهار أحد أفراعها الضخمة فاخترق سطح البيت !

وشدّ السائق بالزمام ثم انحدر إلى كن خلفه من سائقي العربات وهو يقول :

— اقتفوا آثاري تماماً .

ولما وصلوا ، وتمّ إفراغ شحنة الأخشاب ، وأديرت رؤوس الخيل باتجاه العربة لتقضم الشعير من « مخاليها » — قرّر السائقون بطانياتهم في قاع العربات لينامو ا .

كان جوزيف قد أعدّ ناراً نصب عليها مقلاته وأخذ يقلّب شرائح لحم الخنزير فيها ، فتقدم منه روماس ، كبير السواقين وقال :

— سنبدأ رحلتنا باكراً صباحاً ، فالغدوة تكسبنا الكثير من الوقت ، خصوصاً وعرباتنا فارغة .

وأبعد جوزيف مقلاته عن النار وقال :

— لماذا لا تطلقون الخيل ترعى بعض العشب ؟

— ترعى العشب وقد جرّت العربات طول النهار ؟ لا ، لا غذاء يكفي في الحشيش . إنها في حاجة إلى علف أقوى من الحشيش كي تستطيع الصمود على هذه الطريق الشاقة . انتبه ، قرّب مقلاتك على النار إذا أردت أن ينضج اللحم .

— لا .. أنتم لا تعرفون كيف تقلون لحم الخنزير ، فالنار الهادئة وكثرة تقليبه هي التي تنضجه وتجعله دسماً دون أن يتحول كله إلى دهن .

— كله طعام ، كل ما يتناوله المرء يحشو مصرانه .

وتقدم جوانيتو ووليم . وكان الأول منهما ذا بشرة سوداء ولكن عينيه زرقاوان ، فيما الثاني ذو بشرة بيضاء ولكن وجهه منقر بحبوب الجدري التي غطتها طبقة من الغبار . وكان في عينيه رعب يصعب أن يصدقه إنسان ، كما يصعب أن يقدّر الآلام العظيمة التي يعانيها في أحلامه أثناء الليل . إذ يرتجف جسده ويقع في نوبة شبيهة بالصرع .

ونظر جوزيف اليهما وابتسم . فقال جوانيتو :

— انظر في عيني.. أنا لست مكسيكياً وإنما من قشتالة ، ولذلك ترى عينيَّ زرقاوين .

وقاطع روماس حديثه قائلاً :

— إنه يحدّث جميع الناس عن ذلك ، وبالأحرى ، يفتش عن غريب ليخبره بذلك ، بينما يعرف جميع سكان الوادي أن أمه نورية ولا يدري أحد مَن أبوه .

فاحتدَّ جوانيتو ، وتحسس بيده سكيناً حـــادة تلمع على جانب حزامه .

وضحك روماس والتفت إلى جوزيف قائلاً :

— كثيراً ما يحدّث جوانيتو نفسه قائلاً :لا بد أن أقتل أحداً بهذه السكين. ويدعوه تفكيره ذلك إلى الشعور بالزهو والكبرياء ، لكنه يعلم حق العلم أنه لن يفعل ؛ فيدعوه ذلك إلى عدم التعجرف والفطرسة .

ثم استدار الى جوانيتو وقال :

— إبرِ لنفسك عوداً بهذه السكين كي تستطيع أن تتناول نصيبك من اللحم ، أما في المرة القادمة وحين تود أن تذكر نسبك وحسبك ، فانتبه ألا يكون بين الحاضرين من يعلم الحقيقة .

وأنزل جوزيف مقلاته عن النار ثم وجّه الحديث إلى روماس قائلاً :

— لماذا تفضحه وتعنفه؟ أي خير يعود عليك من ذلك ؟ إن ادعاءه لا يؤذي أحداً .. سواء أكان من قشتالة أو غيرها .

— إنها الكذبة الأولى يا مستر وين ، فإذا صدّقتها أتبعها غيرها . ولن يحتاج حينئذ أكثر من اسبوع واحد ليكون ابن أخت ملكة اسبانيا ،بينما هو في الحقيقة راع طيّب وسائس ممتاز ، ويهمني أن لا أفسده بكونه أميراً .

وهزّ جوزيف رأسه ووضع المقلاة على النار ثانية ، وقال :

— أعتقد أنه من قشتالة ، فعيناه زرقاوان، كما أن في ملامحه شيئاً آخر يدل على ذلك . لست أعرف ما هو ذلك الشيء ، إلا أنني أكاد أجزم أن الرجل من قشتالة .

فلمعت عينا جوانيتو بالرضى والازدهاء وقال :

— أشكرك يا سنيور ، صدقت فيما تقول ، فأنا برأيت نفسي بسمنا ، نحن من فرسان اسبانيا

ووضع جوزيف شرائح اللحم القلي في صحون من قش ثم صبّ القهوة وابتسم وهو يحدث نفسه قائلاً : « يظن أبي أنني إله تقريباً ، وهو في الحقيقة كذلك » .

واحتج رومان على قبول جوزيف كذبة جوانيتو فقال :

— إنك لا تعرف ماذا تفعل بقبول كذبته يا سنيور وين ، فلن أستطيع أن أسيّر هذا (الڤافاليرو) .. إنه لن يشتغل بعد الآن ، وإنما سيظل يختال متكبراً .

— أظنني أستطيع استقبال وتشغيل قشتالي هنا إذا ضايقك كبرياؤه يوماً ما .

— ولكن .. عليه اللعنة ، إنه يحسن السلخ ودباغة الجلود .

— أعرف ذلك . هذه طبيعة الأسياد ، فهم لا يتحملون أن يشغّلهم غيرهم .

ونهض جوانيتو مسرعاً وغاب في الظلام لولا أن بيّن له وليم الأمر فقال :

— لا تقلق .. إنه حصان قد تمرفل (بالرسن) .

●

كانت سلسلة الجبال الغربية لم تزل على سفوحها الشفق ، بينما كان الوادي قد خيّم عليه الظلام ، وبدت نجوم الليل في الوادي تناضل جاهدة أن يبين شعاعها الواهن ونورها الضعيف في قبة السماء — في حين تحلّق الرجال الأربعة حول جمرات النار وبصيص من الشعلة كان كافياً لأن تبدو فيه ظلال وجوههم أشباحاً مرعبة . وربت جوزيف لحيته وهو ينظر بعيداً في الأفق ، وضم روماس ركبتيه بكلتا يديه ، فلمعت نار سيجارته الحمراء من خلال مسا فوقها من رماد . أما جوانيتو فكان منتصب الهامة وقد تيبس عنقه ، لا ترمش عيناه الجاحظتان عن وجه جوزيف . وأما وليم فقد بدا رأسه بعيداً في الجو لا تربطه بجسده صلة ، ووجهه شاحباً يتوسطه فم أعرت كانت زمته بصبية بين الحين والآخر ، وأذنه ضخماً أعقف يكاد يلتقي مع زاوية فمه في شكل أقرب إلى منقار البيغاء منه إلى أفواه الناس .

ولما خبت النار ولم يعد الرجل منهم قادراً على تمييز ملامح صاحبه ، مد

وليم يده بهلع إلى جوانيتو ، فتناولها هـذا لأنه يعرف شدة خوف زميله من الظلام . وألقى جوزيف عِرق نبات يابس في النار فتوهجت ، وقال جوزيف :

— اسمع يا روماس ، الأرض هنا جيدة ، لا تحتاج إلا محراثاً يقلبها ، فلماذا تركها الناس ، ولم تجد من يطمع فيها ؟

وقذف روماس عقب سيجارته في النار ثم قال :

— لا أدري ، فالناس يتوافدون إلى هذه المنطقة من الساحل . لربما كان ما تقوله بخصوص تركها ناتجاً عن بعدها عن الطريق الرئيسي ، ولكنني أضمن أن السبب الرئيسي في تحاشيها هو الخوف من سنيّ الجدب والقحط لعـــدم سقوط المطر ، ذلك الجدب الذي يؤدي إلى جفـــاف تام يعود بالمنطقة سنين عديدة إلى الوراء .

— هل قلتَ سنيّ القحط والجفاف ! متى كانت هذه ؟

— بين الـ ٨٠ والـ ٩٠ من القرن الماضي ، فقد جفت الآبار وانعـــدم الماء فنفقت الماشية ، وانتقل نصف السكان تقريباً إلى مناطق أخرى .. أولئك الذين دبروا أمرهم فارتحلوا مع مـاشيتهم إلى وادي جواكين حيث الأمطار والكلأ . وحتى أثناء طريقهم إلى هناك ، هلكت معظم أبقارهم ولم يصلوا إلا بالثلث أو الربع ممـا بدأوا به . ومع أنني كنت صغير السن حينئذ فلا أزال أذكر كيف كنت أمرُّ بالأبقار وقد تناثرت جيَفُها على جانبي الطريق وفي السفوح والمروج ، منتفخة الكروش تنبعث منها روائح نتنة جداً . وكنـا نتخذ كروشها أهدافاً لبنادقنا ، فتنفجر الواحدة منها كأنها دولاب مطاط نفذ اليه مسمار حاد ، فيغمى علينا من نتن الرائحة حينئذٍ .

إلا أن المطر عاد هطوله بعـــد ذلك ، فالأرض نزّازة من وفرته في الوقت الحاضر !

— نعم ، لقد عاد يهطل بعد عشر سنوات من الجفاف ، واخضرّت الأشجار من فيضاناته بل من طوفانه . . ونما الحشيش . فسررنا بذلك غاية السرور في حينه ، وأقام أهل «مدينة السيدة» وليمة «فيستا» فخمة تحت المطر ، إلا عريشة تقي عازفي

القيثار وأوتارهم من أن يلحقها الرذاذ . وكان الناس سكارى يرقصون في الرحل ، ابتهاجاً بقدوم المطر ، المكسيكيون وغيرهم ، حتى جاء الأب انجيلو فمنعهم من ذلك .

— لماذا منعهم ؟

— أنت لا تعلم ما كان الناس يفعلون في الرحل . لقد جن الأب انجيلو من فعلهم ، وقال إن ذلك يجلب الشيطان فيحلّ في نفوسهم . ولذا فقد طرده وجعل الناس يغسلون أجسادهم ويكفّون عن دحرجة الأكياس ، كما فرض كفّارة على كل فرد من الحاضرين .. لقد جن الأب تماماً من ذلك ، وظل واقفاً تحت المطر بنفسه حتى انقطع نزوله .

— هل قلتَ إن الناس كانوا سكارى ؟

— نعم ، سكروا لأسبوع ، وقاموا بأعمال شائنة ، خلعوا ملابسهم مثلاً .

وهنا قاطع جوانيتو الحديث قائلاً :

— كانوا سعداء مسرورين ، فقـــد ظلت الآبار جافة مدة طويلة من الزمن يا سنيور ، وسفوح التلال بيضاء برمالها كالرماد .. وجاء المطر ، فروى الناسَ وملأ الآبار وكسا التلال أثواباً خضراً زكية الرائحة . أفلا يحق للناس أن يبتهجوا بقدومه ؟ إنهم لم يقوموا بأفعال رديئة كما قال ، فالناس بطبيعتهم يتجاوزون الحدود حين تغمرهم سعادة عظيمة .

— آمل أن لا تعود سنوات الجفاف هذه .

قال جوزيف ذلك حانقاً ، وقـد غاظه حتى مجرد التفكير في الجفاف . وأجاب جوانيتو :

— حسناً .. أما الأب انجيلو فيقول إن ذلك قدر من الله يعاقب به العاصين من البشر . وأما شيوخ الهنود فيقولون إن ذلك أمر طبيعي ، سبق أن حدث مرة أو اثنتين .

— إنني أكره التفكير في هذا الأمر ، لن يقع مثل ذلك أبداً مرة أخرى ، أنظر ما أطول العشب النامي في الأرض .

ومد روماس يده كأنه يقيس سوق النباتات ، وقال :

— ربما لن يقع ذلك ، ولكن لا تعتمد على كلمتي هذه . أظن أنه حان وقت نومنا يا سنيور ، فنحن نغدو مع طلوع الفجر .

❁

كان البرد قارساً في الهزيع الأخير من الليل حين أفاق جوزيف من نومه على صرخة حادة ظنها زعيق بوم ، وقال : «يضخّم الحلم الأصوات». وأصغى جيداً فاتصل بسمعه نشيج مخنوق خارج الخيمة ، فانزلق في بنطاله وحذائه وزحف إلى مصدر الصوت . كان المصدر قاع إحدى العربات .. هناك وجد جوزيف جوانيتو مستنداً الى جانب العربة التي يرقد فيها وليم ، فسأله:

— ما الخبر ؟

— ان وليم يحلم يا سنيور ، وهو يعجز أحياناً عن أن يفيق حتى أوقظه أنا . وبعد استيقاظه ، يظن أنه يحلم وأن ما مضى عليه في حلمه هو الحقيقة .

وأخذ جوانيتو يهز جذع وليم ويقول :

— وليم .. وليم .. أفق .. أفق .. انظر ها أنت مستيقظ الآن .

ثم تابع حديثه مع جوزيف :

— إنه يحلم أحلاماً مزعجة جداً يا سنيور ، وعندئذ أقرصه . ها هو خائف ، ألا ترى سيماء ذلك على وجهه .. انظر .

وتكلم روماس من عربته فقال :

— إن وليم يأكل كثيراً ، وأظن أنه يفيق الآن من كابوس مرعب ، فمن عادته أن يفعل . عد الى خيمتك يا مستر وين .

وانحنى جوزيف فرأى الرعب مرتسماً على وجه وليم فقال :

— ليس هنالك في الليل ما تخشاه يا وليم ، تعال نم في خيمتي إذا شئت .

ولم يردّ وليم . فقال جوانيتو :

— لقد رأى في منامه أنه في مكان شديد اللمعان ، جاف ، لا ماء فيه ولا

سيدا ، يخرج عليه الناس من شوارع المدن التي يمر بها ليروه ويباركوه ... ومن
ذلك الحين لم أعد أراه قريباً

وخاطب وليم قائلاً : انظر يا وليم ... انا أعرف سيد ... ك ، ويعرف أهل
بيتك ، واستدار نحو جوزيف قائلاً : أنت ... سيدي ... ك ... ويعرف أهل
بالخير كثيراً يا سنيور فيقام بينها أعرفه ... نعم ، انه يعمل الى ذلك الحين
الف الف الف ، ولكنه يأمن على بيته وماله من الناس حين يكون بين الخير
عد الى فراشك يا سنيور ، وسأمسكه مدة قصيرة ثم يفيق .

ووضع جوزيف راحته على جبهة وليم فكانت باردة عمتاه كالصخرة ، فقال :

— سأعد له ناراً يتدفأ عليها . لقد لحقه البرد .

— لا فائدة من ذلك يا سنيور ، فهو مقرور لا يدفأ أبداً .

— أنت طيب يا جوانيتو .

واستدار جوانيتو من أمام جوزيف وهو يقول :

— ان وليم يناديني : يا سنيور .

ومرّ جوزيف بيده على خاصرة حصان دافئـــة ثم انسحب الى خيمته ، وكانت رؤوس الأعشاب قـد بدأت تتمايل على نسيم الصباح العليل وبدت غابة اشجار الصنوبر خطاً رفيعاً يحجز أشعة الشمس الذهبية أن تتسلل الى المروج .

٤

انتصب هيكل البيت ينتظر تغطيته بالألواح ، وكان عبارة عن بيت مربع الشكل أقيمت فيه حواجز داخلية فكوّنت اربع حجرات متساوية . وقد مدت البلوطة احد افراعها العملاقة فوق سطحه فضمته تحت جناحها بحنان كأنها الأم وهو الرضيع ، فهي تحضنه وتحميه .

وقلى جوزيف فطوره من اللحم ، ثم غسل وجهه بماءٍ دلقه من برميل عند عرق البلوطة ، على يديه بعد أن قعّرهما ، وأزال من رموشه قذى النوم ثم عاد الى فطوره ووجهه مبتل يرشح .

كان العشب نديأ فتفاقمت سوقه بالقرب من موقد النار ، ورفرفت ثلاث قبرات ، صفر الصدور رمادية الظهور ، فوق عمود الخيمة مادةً مناقيرها في تودد وفضول . وكانت تنفخ صدورها تيهاً وعجباً بين الفينة والأخرى كـ « البريمادونا » ثم تنفجر مغنّية وتتغامز بمناقيرها على جوزيف .. لترى هل ينتبه لغنائها ويتذوقه . ورفع جوزيف فنجانه التنك وجرع آخر رشفة من القهوة في قعره ، وألقى بالتفل في النار ، ثم وقف وتمطى بجسده في الشمس ، قبل أن يذهب إلى بيته ليزيح الخيش الذي كان يغطي أدوات عمله أثناء الليل . وتبعته القبرات الثلاث فوق رأسه وهي تحاول أن تجلب انتباهه بغنائها ، ولكن دون جدوى . ورفع حصانان رأسيهما من مرعاهما في المرج ونخرا له بمودة

برطف ، كأنها بلقيان اليه بتحية الصباح . وأخذ جوزيف بطريقة وجرأة من المساير ، ثم استدار إلى القبرات متضايقاً فقال :

— انصرفن الآن لالتقاط الديدان . اكففن عن هذه الضجة . وإلا سجلتهن أرد التقاط الديدان أيضاً ! أسرعن بالانصراف .

ورفعت القبرات مناقيرها متجهة نحو السماء ، ثم غنّت بصوت واحد معاً لحناً طويلاً لا أنغام فيه . فتناول جوزيف قبعته المجعّدة من على كومة الحشب وسحبها في رأسه حتى أذنيه وصاح بالقبرات :

— انصرفن لالتقاط الدود كما أقول .

وهمهم الحصانان ثانية ، ونخر أحدهما .. فألقى جوزيف بالمطرقة من يده . لقد سمع حصاناً آخر ينخر من بعيد ، قادماً من الغابة . وراقب الطريق فرأى فارساً يتجه صوبه على ظهر جواد قد أنهكه التعب . وسارع جوزيف إلى ناره فأشعلها ووضع « ركوة القهوة » على جمرهـــا ، ثم عاد ينتظر القادم مغتبطاً .

وضايقته القبرات فقال :

— لن أشتغل هـذا اليوم ، وليس لديّ وقت أضيعه معكن . انصرفن إلى التقاط الديدان كما قلت ، ذلك خير وأجدى .

وترجّل القادم عن فرسه ، وأبعد عنه السرج واللجام ثم تقدم .. فكان جوانيتو . وصاح جوزيف :

— جوانيتو ! يسرني جداً أن أراك ، أنت لم تتناول طعام الفطور بعـد ، طبعاً ، وسأقلي لك بعض اللحم .

وطافت على وجه جوانيتو ابتسامة عريضة بالرضى والامتنان ، وقال :

— لقد سرت طول الليل يا سنيور وجئت لأكون رئيس الرعاة عندك .

— لكنه لا ماشية عندي كما ترى ، حتى ولا بقرة واحدة !

— سيكون عندك في المستقبل يا سنيور ، أما أنا فباستطاعتي أن أعمل كل شيء ولكنني دليل رعاة ممتاز .

— هل تستطيع أن تساعدني في بناء بيت ؟

— بالتأكيد يا سنيور .

— وأجرك ؟ كم تأخذ يا جوانيتو ؟

— كنت أتقاضى ثلاثين دولاراً شهرياً قبل الآن ، فأنا دليل طيب ، ولكنهم كانوا يقولون عني « هندي مكسيكي » ، أما منك فلن أتقاضى شيئاً وإنما أظل مجرد صديق .

واحتار جوزيف ماذا يفعل ، فلا يمكن أن لا يدفع للرجل أجر أتعابه ! وقال :

— أظنني قد أدركت ما تقصد اليه .. لكنك لا بد أن تحتاج بعض المال عند ذهابك إلى المدينة .. فترتاد حانة أو مرقصاً ، وترافق فتاة كل بضعة أيام .

— ستمنحني هدية كلما نزلتُ إلى المدينة يا سنيور ، والهدية ليست أجراً .

وابتسم جوانيتو مرة ثانية . وصب له جوزيف فنجاناً من القهوة ، وقال :

— أنت خير صديق يا جوانيتو ، أشكرك .

ونهض جوانيتو إلى جيب سرجه وعاد برسالة في يده قائلاً :

— ولما كنت قادماً ، فقد حملت لك معي هذه الرسالة .

وتناول جوزيف الرسالة وابتعد قليلاً ليقرأها ، فقد عرف ما تضمنت حيث قدّر ذلك منذ زمن بعيد . وساد المكان صمت رهيب ، فتوقفت الأعشاب عن التماوج ، وكانت القبرات قد أطعن الأمر فانطلقن . وحتى الصراصير الصغيرة على البلوطة قد أصابهن البكم ولم يعد الطنين مسموعاً . وجلس جوزيف على كومة من ألواح الخشب ففضّ الغلاف .

كان شقيقه بيرتون هو الذي بعث تلك الرسالة ، وكان يقول فيها :

« طلب إليّ توماس وبنجامين أن أكتب اليك ، فقد وقع ما كنا نعلم وقوعه ونجهل زمنه ، والموت يصدمنا حتى مع علمنا بضرورة حلوله ، فقد صعدت روح والدنا إلى الملكوت منذ ثلاثة أيام ، وقد شهدناه جميعاً في ساعاته الأخيرة إلا أنت . كان عليك أن تنتظر قبل ارتحالك إلى الغرب يا جوزيف .

لم يكن الوالد مالكاً فراء الدابة في ساعات النزاع ، فقد تلفظ بأشياء غريبة جداً ولم يتحدث لصديك بنفس الأمر الذي تحدث به اليك . كان يخاطبك كأنه يراك . وقال إنه يستطيع أن يعيش بقدر ما يشاء إلا أنه يرغب في أن يرى أرضك الجديدة ، وكان قلقاً عليها إلى درجة الهوس ، والبك ما قال :

« لست أدري فيما إذا كان جوزيف قد أفلح في اختيار أرض جيدة ، كما أنني لست أدري فيما إذا كان يحسن الاختيار أصلاً ، ولذا فإن علي أن أذهب إلى هناك لأرى » . ثم تحدث عن أنه سيرفرف فوق الأرض ، ويطير في الهواء . وقال إنه يفعل ذلك . وبدا عليه كأنه نائم فعلاً . فخرج بنجامين وتوماس من غرفته وبقيت معه وحيداً . لقد كان الوالد منهوك القوى ، مما يجعلني أرى من واجبي أن لا أبوح بكلماته الأخيرة بل أخفيها . لأنه لم يكن يتكلم بعقله . لقد تحدث عن سفاد الحيوانات وقال إن الأرض جميعها ... لا ، لا أرى داعياً لذكر كلماته ، وقد حاولت أن أجعله يصلي للرب معي فلم أفلح .. كان قد غلب على أمره . وقد أزعجني جداً ، أن كلماته التي فارق عليها الدنيا ودخل في الآخرة لم تكن كلمات مسيحية أبداً . ولم أبلّغ توماس ولا بنجامين عنها لأنها كانت موجهة اليك وحدك » .

ويتابع بيرتون رسالته فيصف الجنازة وطقوسها والمعزّين وغير ذلك ، ثم ينهيها بقوله :

« يعتقد توماس وبنجامين أننا جميعاً سنرحل إلى الغرب عندك ، إذا كان ثمة أرض لم يتملكها الناس بعد ، ونحن ننتظر أن نسمع منك جواباً على ذلك قبل أن نشرع في الانتقال » .

وأسقط جوزيف الرسالة من يده ، ثم كبّ وجهه في راحتيه مع أنه لم يكن يشعر بالحزن . على العكس من ذلك فقد كان ذهنه منطلقاً . وقد تعجّب من عدم شعوره بالحزن على فقدان والده . وفكر بأن شقيقه بيرتون سيلومه لو درى أنه أحسّ بالطمأنينة وبعض الراحة ، بل حتى ببعض الابتهاج ، عند تسلمه هذا الخبر المؤسف .

وجعل يستعيد أصوات القبرات وصياح السناجيب من أبواب جحورها . وكانت الريح تهمس في آذان أوراق العشب همساً خفيفاً اول الأمر ثم ينقلب إلى خشخشة العاصفة فيعبق الجو برائحة الأرض الرطبـــة ، والحشائش النامية ، والأزهار البرية اللطيفة .

وتحركت أغصان البلوطة الجبارة كأنها تستشعر نسمات الحيـــاة .. ورفع جوزيف رأسه لينظر الى أطرافه المجعدة ، بينما كان يشع من عينيه بريق الغبطة والسرور ، لأن روح والده قد حلّت في تلك الشجرة فأكسبتها قوّة ونشاطاً .

ثم إن جوزيف رفع يده محيياً البلوطة وقال :

— يسرني أن قدمت لزيارتي يا سيدي الولد ، فلم أتحقق مبلغ وحشتي اليك قبل الآن .

وتحركت أفراع الشجرة قليلاً . فعاود جوزيف مناجاته قائلاً :

— ها أنت ترى أن أرضي جيدة يا سيدي ، وأعتقد أنك ستفضل البقاء معي .

وهزّ جوزيف رأسه وضحك من نفسه خجلاً من هـذه الأفكار ، وعجباً من شعور عارم غمره بالقرابة والإلفة بينه وبين البلوطة ، وقال :

« أعتقدُ أن وحدتي هي التي تصور ذلك ، وسيزول هـذا بوجود جوانيتو معي ، كما أنني سأكتب إلى الشباب ان يأتوا . »

وشعر جوزيف انه قد ارتكب خيانة كبرى حين فرح لوفاة والده ، فاتجه صوب البلوطة وقبّل لحاءها . وتذكر جوزيف أن جوانيتو لا بدّ يرقبه فاستدار ليواجهه وقال غاضباً :

— لا بد أنك قد رأيتني وأنا ...

وقاطعه جوانيتو :

— لا ، لم أرَ شيئاً يا سنيور .

فجلس جوزيف الى جانبه ، وهو يقول :

— مات ابي يا جوانيتو .

— انا آسف جداً يا صاحبي .

— أودّ أن أتحدث اليك يا جوانيتو لأنك صديقي . فأنا لست آسفاً على وفاة والدي لسبب بسيط .. فأنا أشعر أنه موجود معنا هنا .

— يظل الأموات دائماً على الأرض ، لا يبرحونها يا سنيور .

— لا ، إنه أكثر من ذلك ، لقد حلّ أبي في الشجرة ، إنه البلوطة نفسها . ربما كان هذا الاعتقاد سخيفاً ، ولكني أريد أن أعتقد به . هل تحدثني قليلاً يا جوانيتو ؟ طبعاً ، أنت ولدت هنا . لقد شعرتُ بأن هذه الأرض ملأى بالأشباح منذ أن وطئتها قدماي .

وصمت برهة ثم استدرك .

— لا ، فالأشباح ظلال خفيّة للحقيقة ، بينما الواقع هنا أن هذه الاشباح هي الحقيقة الصلبة ، ونحن ظلالها الخفية . قل لي يا جوانيتو ، هل أصابني مسّ أم أنه قد ضعف إدراكي بحكم بقائي وحيداً منقطعاً عن الناس مدة شهرين ؟

— لا يفنى الاموات يا سنيور ، ولا يبرحون أمكنتهم .

ورفع جوانيتو رأسه إلى قبة السماء ثم قال :

— لقد كذبتُ عليك يا سنيور ، فلستُ من قشتالة ، وأمي هندية علمتني أشياء كثيرة .

— أي أشياء ؟

— أشياء لا تسرّ الاب انجيلو . لقد علّمتني أن الارض هي أمنا جميعاً ، تهب الحياة لكل ما عليها ، وتعيدها إلى صدرها عند وفاة صاحبها ، وعندما ألاحظ ذلك يا سنيور أصدّق قول أمي فأعتقد بصحته . وعندئذ أقرر أنني لست من قشتالة وإنما هندي .

— ولكنني لست هندياً يا جوانيتو ، ويبدو لي أنني أعتقد بصحة ما علمتك أمك ..

فنظر جوانيتو إلى جوزيف شاكراً ثم خفض بصره . ونظر كلا الرجلين الى الارض مطرقين . وتعجب جوزيف من عدم محاولته الإفلات من سيطرة هذه المشاعر التي بدت كأنها تحاصر فكره ثم تغزوه فتستقر في نفس صاحبه .

وطالت إطراقة جوزيف ، ثم إنه ألقى ببصره إلى البلوطة وقال :

ـ لن يهم كل ذلك في نهاية الأمر ، فلن يقتل شعوري الحاضر لا آلهة ولا أشباحاً . علينا أن نشتغل يا جوانيتو : هناك البيت نبنيه ، والحظيرة نقيمها لتجتمع فيها الماشية . وسنزاول عملنا رغم أنف الأشباح ، هيا نعمل ، فلا متسع لنا للتفكير .

وهرولا الى البيت يعملان في بنائه .

وفي المساء كتب جوزيف رسالة إلى أشقائه تقول :

« على حدّ أرضي تقع أرض خصبة لم يمتلكها أحد بعد ، ويستطيع كل منكم أن ينال منها ١٦٠ هكتاراً ، فيكون لدينا جميعاً ٦٤٠ هكتاراً قطعة واحدة . العشب نامٍ مرتفع والتربة خصبة ولن تحتاج إلا محراثاً يقلب أثلامها . ليس في الارض صخور تضطرك إلى نقل محراثك من ثلمه يا توماس . كما أنه ليس هنالك بلاط لا يستطيع المحراث أن يقدّه أو ينبشه .. تعالوا فننشىء مستعمرة صغيرة خاصة بعائلتنا » .

٥

كان الصيف قد خلع على العشب حمرته فأنضجه وأصبح معداً للحصاد، عندما قدم أشقاء جوزيف يصطحبون عائلاتهم ، وهم :

توماس وهو أكبر الأشقاء ، في الثانية والأربعين من العمر ، قوي البنية ، مفتول العضل ، ذهبي الشعر ، يزين وجهه شارب صغير أشقر .

وكان لتوماس هذا مودة وتعاطف نحو جميع أنواع الحيوان ، فكثيراً ما اتكأ إلى جانب المذود بينما تقضم الخيول العلف أو الحشيش المجفف . وكانت جمرة خافتة من بقرة في المخاض ، كافية لإيقاظه من أعماق نومه في الفراش ، فيهب مسرعاً اليها يرى فيما إذا كانت الولادة طبيعية ، ويفعل ما يساعد البقرة إذا لم تكن . وكان إذا سار بين الحقول رفعت الخيول والأبقار رؤوسها تشم رائحته في الهواء ، ثم تقبل مسرعة اليه ، فيربّت على رؤوسها أو رقابها ، ويقبلها أحياناً . وكان يشد آذان الكلاب حتى تصرخ من الألم . وحين يتوقف عن الشد ، تدفع الكلاب آذانها إلى حجره ليشدّها من جديد . وكان من عادته أن يحتفظ بمجموعة من الحيوانات نصف المتوحشة ، فقد جمع ابن آوى ، وجروين غريرين يتبعان أعقابه وخرطوماهما في الأرض ويكشّران عن أنيابهما في وجه كل أحد سواه ، وبازاً أحمر الذنب ، وأربعة كلاب خلاسية ، وملء قفص من الحمام . ولم يكن يشفق على تلك الحيوانات أكثر من غيره ، ولكن لا بد أن تصرّفه معها كان يتسّم بشيء من الأمانة تفهمه ، فتثق في صاحبه ، إذ أنه عندما هاجم أحد الكلاب

ابن آوى فأفقده الأخير عينه ، لم يعطف عليه توماس ، بل أخذ موسى من جيبه فاقتلع من رأس الكلب تلك العين المصـــابة ، ووخزه برأس الموسى في أقدامه فأدماها لكي ينسى الكلب ألم اقتلاع العين من رأسه .. كان يحب الحيوانات ويقتلها بنفس شعورها حين تقتل بعضها بعضاً ، فقد كان أقرب إلى الحيوانات في تجرده من العاطفة . لم يفقد يوماً بقرة أبداً ، لأنه يكاد يعرف بشبه غريزته أين تضل البقرة حين يشطّ بها المرعى . وكان نادراً ما يخرج للصيد ولكنه إذا فعل انطلق رأساً إلى مخبأ فريسته ، كأنه يعلمه ، فقتلها بسرعة الأسد وحزمه حين ينقضّ على فنيصة .

كان توماس يفهم الحيوانات وتفهمه ، أما الناس ، فلا يفهمهم ولا يثق بهم . وقليلاً ما تكلم مع غيره ، إذ تحيّره وتخيفه تلك الأمور التي يجعلونها حديثهم العام كالتجارة والأحزاب ، والطوائف الدينية والسياسية . وعندما يضطر إلى الوجود بين جمهور من الناس ، كان توماس يعزل نفسه ، فلا يكلم أحداً ، وإنما يبقى منتظراً ساعة خلاصه بفارغ الصبر . وكان جوزيف هو الشخص الوحيد الذي يألفه توماس ويستطيع التحدث اليه دون خوف أو وجل .

وكانت زوجة توماس اسمها راما ، وهي امرأة قوية عريضة الصدر ، سوداء الحاجبين يكاد حاجباها يقترنان عند أعلى أنفها .

كانت راما تحتقر كل مـا يفكر فيه الرجال أو يعملونه ، وكانت قـــابلة ماهرة ، وسوطاً من العذاب للأطفال الذين يتشيطنون . ومع أنها لم تجلد إحدى بناتها الثلاث ولو مرة واحدة ، فقـد كنّ يرتعدن فرقاً من غضبها حين تهاجم ناحية الضعف في نفس كل منهن . وكانت هذه المرأة تفهم زوجها ، وتعامله كأنه حيوان ، فتحافظ على نظافته وتعلفه جيـداً ، وتعتني بدفئه كثيراً ، ولا تخيفه إلا في بعض الأحيان .

ومن الطبيعي أن تكون راما كفؤاً في مجال نشاطها ، من طبخ وخيـاطة ، وحَبَل ، وكنس ومسح ، لأنها ترى ذلك أهم عمل في الوجود . وهو في نظرها أكثر أهمية مما يقوم به الرجال من أعمال .

وكان الأطفال يعبرون راضا ما داموا لم يعصوا ، لأنهما تعرف كيف ترضي وتشبع متطلبات نفسياتهم الناضجة ، فتشاؤما عليهم كان لطيفاً ناعماً بقدر ما كان عقابها صارماً مخيفاً ، وبذلك فقد كانت تعتبر نفسها مربية لكل من يقترب منها من الأطفال .

وكان طفلا بيرتون يعتبران سلطتها قانونية وأوامرها واجبة الطاعة أكثر من أوامر أمهما الرقيقة ، لأن قوانين راما ثابتة لا تتبدل ، فالمحسن يُثاب والمسيء يُعاقب ، ولا مجال للغلط بين الاثنين ، وكان لذيذاً أن ينال الطفل رضا راما في بيتها .

أما شقيق جوزيف الثاني فكان بيرتون ، كاتبَ الرسالة اليه ، وهو ذو طبيعة أقرب الى التدين ، يبتعد بنفسه عن الخطيئة ويجدها في كل علاقات البشر ببعضهم البعض تقريباً . .

وامتدحه الخوري من على منصة الصلاة في الكنيسة في أحد أيام الآحاد ، ووصفه بأنه (رجل قوي الإيمان بالرب) ، فأسرّ توماس في أُذن جوزيف : أي أنه رجلٌ ضعيف الشهوة للحياة .

وكان بيرتون قد واقع زوجته أربع مرات فقط ، فكان له منها طفلتين . وكانت الكآبة والخوف من الخطيئة يسيطران على عقليته ، فلم ينشرح صدره مرة واحدة ، فظلت وجنتاه شاحبتين ووجهه نحيلاً معروقاً ، وفي عينيه جوع إلى شيء لا يتوقع أن يناله . . إنه رضا الرب عن أعماله . وقد سرّه ، نوعاً ما ، أن صحته كانت عليلة وفسّر ذلك بأن الرب يرفق به فيجعله يعاني التجربة والامتحان (المؤمنون أشد بلوى) . وقد توفرت لديه تلك المقاومة والعناء اللذان يتميز بهما مرضى النفوس من أمثاله ، واللذان تمنحانهم شيئاً من العزم في جسومهم ، فكانت يداه وساقاه كأنها حبال مشدودة .

وكان بيرتون حازماً في معاملته لزوجته حسب قوانين التعاليم الدينية : (الرجال قوّامون على النساء) ، فيحدثها بأفكاره ويلقي اليها بأوامره النافذة ، ثم يراقبها إذا شذّت عن الخطة فيقوّم اعوجاجها بغلظة وسوء خلق ، وأحياناً

يتصدع شيء من إيمانها فتمتلكها رهبة الآخرة ، ويرتجف جسدها من خوف العذاب في الدنيا والآخرة ، فتقع في غيبوبة من الهذيان بعد أن تهاجمها الحمى . وحينئذ يقعي بيرتون ، يصلي من أجلها حتى يجف حلقه وتنسدّ لهاته فتزول تلك الحمى ببركة تمتماته وتعود هاريت إلى حالتها الطبيعية .

كان صاحبنا مصاباً بهوس ديني أفسد عليه حياته وعزله عن الناس. وكذلك فعلت هاريت ، المسيحية الطيّبة ، فظلت تعيش في جحيم حاضر خوفاً من جحيم ربما كان ، في المستقبل .

أما بنجامين ، رابع اخوته وأصغرهم سناً فقد كان عبئاً ثقيلاً على أشقائه ، فهو منحلّ لا يعتمَد عليه ، يشرب إلى درجة العربدة كلما سنحت له الفرصة ، ويأخذ في التجول بين القرى المجاورة وهو يغني بصوت جميل. وكان يبدو فتياً ، عاجزاً ، قد فسدت تربيته بحيث تعطف عليه النساء ، ولذا فقد كان كثيراً ما يورّط نفسه في مشاكل نسوية مع هذه المرأة أو تلك. إذ أنه حينما يسكر ويغني ، وتبدو عليه مظاهر الانحلال الخلقي ، ترغب النساء في ضمه إلى صدورهن ليحمينه من انتهاب مشاعره . ولكنهن يشعرن بالعجب حين يغويهن ذلك الشاب المائع الذي أشفقن عليه ، ولا يعرفن أبداً كيف وقع ذلك — لأن مظهر بنجي يوحي بالعجز لا بالقدرة على الإغواء .

وكان هذا الأخ المتفسّخ يتصرف بشكل يدعو الآخرين إلى الرثاء له ومساعدته ، وها هي زوجته الشابة جاني تعمل ما في وسعها لتبعد عنه الأذى والشرور ، فتصلي للرب من أجله حين تسمع غناءه في الليل بعد سكره ، وتسأل العذراء أن تبعده عن المعاصي أو الوقوع في الخطايا .

وحين يأخذ صوته في الخفوت لابتعاده ، تتحقق جاني من أن فتاة او أخرى ستضاجعه تلك الليلة ، فتصرخ خوفاً عليه أن يصيبه مكروه .

كان بنجامين رجل (بسطٍ وفرفشة) يجلب الانشراح لكل من يعرفه . وكان يكذب ، وفي يده خفة (يسرق) وينصب ، ولا يهتم بالوفاء بمواعيده ، ومع ذلك يحبه الناس فيعذرونه ويحرسونه . وقد اصطحبه شقيقاه حين ارتحلت

هاجرتهم إلى الغرب خوفاً عليه أن يموت جوعاً إذا تخلّف . وحزم فرمـــان وبيرتون له أمتعته ، كما استعار بنجي سبعة جوزيف عند الوصول ، وظل يعيش فيها حتى وجد أتقاؤه أمامهم متسعاً من الوقت فأقاموا له بيتاً .

وحتى بيرتون ، الذي كان يلمن بنجامين كما يلمن طريقة سلوكه في الحياة ، لم يقسُ قلبه فيقبل أن يظل بنجامين يعيش في الخيمة . أمـا من أين كان يجلب بنجامين الويسكي فلم يستطع إخوته أن يعلموا . لكنها كانت متوفرة لديه دائماً .

وحين كان بنجامين يهبط إلى مدينـة السيدة ، كان المكسيكيون يمنحونه الحمور ويعلمونه أغانيهم ، ويسطو على زوجاتهم إذا لم يحسنوا مراقبته أيضاً .

٦

تجمعت العائلات حول بيت جوزيف بعد أن أقام أشقاؤه أكشاك صغيرة، كل في أرضه ، حسبما يتطلب قانون استملاك الأرض في تلك المنطقة . ولكن عائلاتهم لم تبتْ فيها ليلة واحدة ، كما لم يكن الاخوة يشعرون بأن الأرض موزعة بينهم وأن لكل منهم قطعته الخاصة ، بل كان هنالك مزرعة كبيرة واحدة هي مزرعة (الاخوة واين) . فانتصبت بيوت أربعة على مقربة من البلوطة ، وكانت البايكة تخص الجميع .

أصبح جوزيف هو السيد المطاع في المزرعة ، ربما لأنه تسلم البركة من والده قبل أن يموت، فقد ظل هو الممثل الرمزي للعشيرة في المزرعة القديمة في فيرمونت. وبذلك انتقلت السلطة الى جوزيف ، فكان يحلف بقداسة العشب ، والتربة ، والحيوانات، الداجن منها والوحشي. وكان أبا الجماعة وسيد العشيرة غير المنازع، فحين ينظر الى البيوت المتجمعة حول البلوطة ، والطفل الأول الذي يولد في المزرعة في مهده، ابن توماس، وحين يشق آذان العجول الحديثة الولادة — يغمره ذلك الشعور الذي خالج ابراهيم الخليل عندما بدأ وعد ربه يؤتي ثماره ، فتكاثر قطيعه ورجال عشيرته .

ويقوى عشق جوزيف لخصب الحياة ، فكان يراقب نماء الشهوة المستعرة في أصلاب ثيرانه ، والرغبة الصابرة في أرحام بقراته للنماء والخصب ، ويقود فحل خيوله الى الأفراس ويصيح :

– أمامك ، انزُ ، هيا

ويعلو الحصان ظهر الفرس ، فتنبسط أسارير جوزيف ، فالحياة تصنع ذلك اللحظة ، ومهر يشق طريقه الى المزرعة .

لم تكن في المزرعة عائلات ولا عجول ولا أمهار ، كان كل ذلك أبناء وبنات لجوزيف ، فحين يسير عاري الرأس يستنشق الهواء بين الحقول وفي منبسطات المروج ، كانت تملأ خياشيمه الرغبة وتستمرُ في جسده شهوة الحياة .

إن كل شيء حوله يموج بالخصب : الأرض والأبقار والناس ، وشهوته الخاصة تتوزع على الجميع فتلقحه . كانت تقتله الرغبة في النماء ، في التكاثر ، يودُ لو ينمو كل شيء حوله بقوة ، فيحبل ويلد ويتكاثر ، فالعقم في نظره جريمة لا تغتفر والجريمـــة الكبرى في الوجود . وكانت عيناه الزرقاوان الكاسرتان يشع منهما بريق شهوته العارمة ، بريق إيمانه الجديد ، وعقيدته الراسخة .

كان ذلك العاشق للحياة يتخلص من الحيوانات العاقرة بقتلها دون رحمـــة أو شفقة ، فالحياة لا ترحم العاجز ، ومن حق القوي أن يعدم الضعيف . ولكنه عندما تسير باتجاهه كلبة منتفخة البطن تحمل سبعة جراء أو ثمانية ، أو بقرة في أحشائها عجل – فإن جوزيف يشعر تجاهها بشيء من القداسة والاجلال ، بل أكثر من ذلك ، يكاد يعبدها ويطلب بركتها .

لم تكن هذه المشاعر تقلق أفكار جوزيف ، ولم يفكر فيها أصلاً ، إذ أنهـا أصبحت عنده شيئاً من ذاتـه ، وغدت معتقداً له لا يسمح لنفسه أن تشك فيه أو حتى تناقش صوابه أو خطأه . ولا عجب فلكل امرىء دين ما ، وهذا دين جوزيف .

وإذا كان النـاس يحملون معتقداتهم الدينية في رؤوسهم فهو يشعر بدينه في صلبه وعضلات فخذيه . وليس الرأس أجلّ قدراً ولا أرفع قيمة .

كان هذا لبن الرضاع في أفواه أفراد هذه العشيرة منذ مليون عـام ، يورثه السلف للخلف ، ويمتزج الجميع بالأرض فتتفاعل مع خصبها نفوسهم وتتحد أرواحهم .

ووقف جوزيف يوماً الى جانب سياج الحظيرة يراقب ثوراً تتهرب منه بقرة. ووقفت البقرة ، فصاح جوزيف وهو يلطم السياج بكل قوته وقد شع من عينيه بريق أحمر ، بريق الشهوة الجامحة :

— أنزُ الآن أيها الأحمق ، إنها مستعدة لاستقبالك . أنزُ .

وقال بيرتون :

— مالك يا جوزيف ، أمجنون أنت ؟

— مجنون ؟.. ماذا تعني ؟

— إن تصرفك غريب يثير الدهشة ، ربما رآك أحد الناس .

— أريد عجولا ، أريد عجولا ، ما هو الخطأ في تصرفي ، حتى بالنسبة اليك؟

— حسناً يا جوزيف . فكل الناس يعرفون أن مثل هذه الأشياء يجب أن تتم إذا أريد استمرار النوع ، ولكن الناس لا يراقبون ذلك إلا حين يكون ضرورياً ، ولربما شاهدك بعضهم تتصرف على هذه الشاكلة .

وأبعد جوزيف نظره عن الثور يتطي البقرة ، والتفت إلى أخيه قائلاً :

— حتى ولو فعلوا ، هل هي جريمة ؟ أريد عجولاً .

وخفض بيرتون وجهه خجلاً مما سيقول :

— يقول الناس أشياء كثيرة إذا سمعوك تتحدث هكذا ، كما قلتُ لنفسي الآن يا جوزيف .

— ماذا يستطيعون أن يقولوا ؟

— إنك لا تطلب مني أن أقول لك ذلك بنفسي طبعاً ، ربما ظن الناس أن شهوتك أنت نحو البقرة هي التي تدفعك .

ونظر بيرتون إلى يديه ثم أخفاهما في جيبه كأنه يودُ تجنيبهما سماع ما قال :

— اوه ، يمكن أن يقولوا ...

وأصبح صوته متوحشاً نهماً ، وتابع :

— يمكن أن يقولوا أنني أشعر بشهوة الثور ؟ نعم يا بيرتون ، هذا صحيح .

وهل تظن أنني أمتنع عن تلقيح بقرة فيما لو كنت أستطيع أن أنزو عليها ! لن أتأخر أبداً .

ورقّ صوته نحو أخيه المطرق حياءً وأضاف :

— أنظر يا بيرتون. يستطيع ذلك الثور أن ينزو على عشرين في اليوم الواحد ولو كان مجرد الشعور كافياً لأن تحبل منه البقرة ، فإنني أستطيع أن أنزو على مئة في يوم واحد ، وأتمنى أن أفعل . هذا ما أشعر به يا بيرتون .

وحينئذ أبصر جوزيف الرعب الذي استولى على وجه بيرتون الشاحب ، فقال :

— إنك لم تفهم ما أعني يا بيرتون ، فأنا أريد النماء والتكاثر ، الحبَل ، الحبَل ، أريد الأرض أن تعوم بالخصب ، والتراب أن يموج بالحياة ، والجو أن يترع بالنماء. أريد البقرة أن تلد كل يوم ، وأن ينزو عليها الثور كل لحظة .. إنني أعشق التكاثر وأحتقر العقم .

وأشاح بيرتون وجهه فقال جوزيف :

— أنظر إليّ يا بيرتون ، أنا في حاجة ماسة إلى امرأة ، إلى زوجة ، فكل ما في المزرعة يتلاقح فيخصب ، إلا أنا فعاقر لا أنجب ، يجب أن أتخذ زوجة .

وكان بيرتون قد ابتدأ ينسحب من أمام أخيه وقال :

— أنت في حاجة إلى الصلاة من أجلك يا جوزيف أكثر من أي شيء آخر . تعال إليّ في وقت فراغك لأرى .

ونظر جوزيف إلى أخيه وهو ينسلُّ في طريقه إلى البيت ، فهز رأسه مندهشاً وقال :

— يحيرني ما يظن نفسه يعرفه وأجهله أنا . لا بدّ أن لديه سراً يجعل كل ما أفعله وأفكر فيه يبدو غريباً قذراً في نظره .

وتخلل جوزيف بأصابعه لحيته ثم شعره الطويل ، وتناول قبعته المغبّرة فألقاها على رأسه بعدم اهتمام وتقدم نحو السياج بضع خطوات . ولاقاه الثور

تحضن رأسه وتقبّله ، فانتصب لحجرها وأخذ يلعب بشعرها ويصفر حتى تطاول ، وأمر حراسه من باب البلوكة ، فقال جوزيف :

أسرج حصاناً ، إن في عروق الثور ما لم يفرغ ، ليته يفرغ أخيراً .

كان جوزيف يتنقل بجيوش ، كما تصل الثلاث حين تطلع بلوطة معلقة على أحد سفوحها ، ببطء وجهد ، مع اليقين بأن من واجب تلك الثلاث أن تتضافر في سبيل إنماء البلوطة المسكينة . فكان فاتوس يرسل بصيحته في الباحة قبل أن يتنفس الصبح ، أو حتى يولد نور الفجر في أعقاب عتمة الليل ، ويتطلق به صاحبه إلى البايكة .. وهناك بين الحيوانات الدافئة وعلى جفونها بقية من نعاس .. يأخذ جوزيف في العمل ، فيصلح العُدد ، ويغسل السروج بالماء والصابون ويلمّع الأعنّة والأزرار .

وكانت مهمّته تتحرك بعزم ومودة على ظهور الخيل وأجنابها ، وكان أحياناً يجد توماس قد سبقه إلى هناك ، جالساً بجانب مذود في الظلام يرقد خلفه غريري صغير على الحشيش الجاف ، فيلقي عليه تحية الصباح ، ويقول :

— هل كل شيء على ما يرام ؟

— انخلعت حذوة من الفرس « حمامة » وهنالك شق في حافره ، فيجب العناية به اليوم في البايكة ، وهربت « حفصة » من مربطها ورفست « عنبر ». لا بد أن تؤذي أحداً في يوم من الأيام ، هذا إذا لم تقتل نفسها بمشاكستها ، وقد ولدت « زرقاء » مهراً هذا الصباح فقدمت كي أراه .

— وكيف عرفت أنها ستلد الليلة يا توم ؟

فشد توماس معرفة حصان ونهض من مقعدة بجانب المذود وقال :

— لا أدري ، ولكنني أعرف دائماً متى ستلد أي فرس . تعال لترى المهر اللعين ما أحلاه ، لا تخش أن تهوش أمه ، فقد لحستْه ونظفتْ جلده الآن .

وسار الأخوان نحو مربط « زرقاء » وتفرجا على مهر لطيف قوائمه دقيقة ، تبرز عقدها طرية مكوّرة ، ومعرفته قصيرة الشعر ناعمة ، وفي مؤخرته شبه

سهم هو الذنب . فربت جوزيف على ظهره الحار الذي لا يزال رطباً من رحم أمه وقال :

— والله ، لا أدري سبب شدة حبي لهذه الأشياء الصغيرة .

ورفع المهر رأسه ونظر من عينين شديدتي الزرقة ، عليهما غيمة من فتور ، ثم (نطّ) وابتعد عنها بعد أن رفس الهواء برشاقة .

وقال ثوماس لأخيه :

— أنت تود دائماً أن تتحسس جلود المهارى الحديثة الولادة ، بينما لا تستسيغ هي ذلك .

فأبعد جوزيف يده وقال :

— أظن من الأفضل أن أذهب للفطور .

— يا ... قف . رأيت بعض طيور السنونو تحوم حول البايكة ، ومعنى هذا أن أعشاشاً كثيرة ستكون في رفراف البايكة في الربيع القادم .

● ● ●

كان جميع الأشقاء مجدّين في أعمالهم متعاونين معاً إلا بنجامين ، وحتى بنجامين كان يسهم بشيء حين يتمكن . لقد مهّدوا حديقة واسعة خلف البيوت ، وأقيمت ركائز طاحونة هوائية عالية تلمع شفراتها في الأصيل عندما تدور الريح ، وأنشئت حظيرة سماوية واسعة لمبيت الأبقار خلف الاسطبل الكبير ، كما مُدّت الأسلاك الشائكة على طول حدود الأرض بكاملها . ونبت البرسيم عالياً في الأرض المنبسطة من المروج وعلى سفوح التلال ، وكانت الماشية تتكاثر ويتزايد عددها . كل ذلك أبهج جوزيف في صبيحة ذلك النهار ، واندار يودُّ العودة الى بيته ليلتهم فطوره من لحم الخنزير المقدّد . إلا أنه آثر أن يقف برهة في حزمة من شعاع الشمس ، وأخذ يتمطى كأنه تمثال كولوسس في جزيرة رودس . ونظر الى وجهه (شحتوت) صغير كان يقف على قمة كومة من الزبل ، فوقوق ثم انصرف يحذر الدجاجات مما يمكن أن يحدث في مثل هذا اليوم المشرق البديع .

وأنهى جوزيف مهمة التمطي الشاق أشعثه بأسه ، وانبرى نحو توماس ليقول .

— أعدّ زوجاً من الخيل يا توماس ، لنرى ما إذا ولدت عجول جديدة أخرى ، أبلغ جوانيتو إذا رأيته .

وركب الرجال الثلاثة خيولهم بعد تناول الفطور وغادروا البيوت . وسار جوزيف وتوماس جنباً الى جنب بينما تأخر عنهما جوانيتو الذي كان قد عاد من (مدينة السيدة) مع الفجر بعد أن قضى أمسية طيبة محتشمة في مطبخ آل جراسيا ، هناك .

هناك جلست مقابله أليس جراسيا ساكنة مسرورة ترافب يديها المتقاطعتين في حضنها بينما كان أوليساء أمرها وشهود عقدها مستندين الى جانب جوانيتو ، الذي قال :

— وهكذا ترون أنني لست كبير الرعاة لدى السنيور « واين » فحسب ، بل أقرب الى أن أكون ابناً للدون جوزيف ، يصطحبني أينما ذهب ، ويثق فيّ وحدي في المسائل المهمة .

وظل هكذا يفتخر برقة طيلة ساعتين ، وعندما انسحبت أليس وأمها كما تقضي التقاليد المتعارف عليها ، تقدم جوانيتو فطلب يد أليس بالصيغة المتبعة في الكلام ، وفعل الاشارات المحددة سابقاً . وتم قبوله صهراً للسيد يشوع جراسيا بكل حرارة واغتباط . ومن ثم عاد جوانيتو الى المزرعة فخوراً بأصهاره ، لأنهم يستطيعون أن يثبتوا في نسبهم جداً واحداً اسبانياً على الأقل . وها هو الآن يركب حصانه خلف الأخوين (واين) .

واشتدت حرارة الشمس على الأرض وهم يطلعون في سفح مرتفع الحشائش يفتشون عن عجول ، يربطون آذانها ويسمونها بقطع جزء منها .

كان الحشيش الجاف تصدر منه خشخشة تحت حوافر الخيل . ونفض حصان توماس نفسه فجأة ، فقد غرز (النسناس) المقعي على قربوس السرج أظفاره في لحم الحصان . وكانت عينا (النسناس) برّاقتين كالجمر ، تلمعان كالجمرة الحية في

ظلام الليل . وتمايل النسناس ، وكاد يقع لولا أنه مدّ يداً صغيرة سوداء فأمسك بها معرفة الحصان .

وتطلع ثوماس الى عين الشمس الحمئة وقال :

— لقد نزلتُ المدينة يوم السبت الماضي يا جوزيف .

— أدري ، ولا بد أن يكون بنجامين قد نزل أيضاً ، فقد سمعته يغني في الهزيع الأخير من الليل . إسمع يا توم ، لا بد أن يعلق ذلك الغر بمشكلة . فالناس هنا لا يتسامحون في بعض الأشياء ، وسنجد بنجامين وقد انفرز خنجر في ظهره يوماً ما . تأكد يا ثوماس بأنه سيلاقي جزاءه .

فنقر ثوماس باصبعه على قربوص سرجه مستنكراً ذلك ، وقال :

— دعه يا جو ، فحينئذ يكون قد تمتع في حياته أكثر من خمسة رجال متزنين ! وعاش عمراً أطول من عنقاء .

— حسناً ولكن ذلك يقلق بال بيرتون ، فقد حدثني بأمره مرات ومرات .

— كنت أقول : لقد جلست في المخزن في مدينة السيدة بعد ظهر يوم السبت وكان هنالك خيالة من شينيتا يتحدثون عن سنيّ القحط بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الماضي ، هل بلغك شيء عنها ؟

وعقد جوزيف عقدة جديدة في رسن الحصان وقال :

— نعم ، سمعت عنها .

— كان الخيالة يتحدثون عنها فقالوا بأن الأرض قد أقفرت ونفقت الماشية لجفاف الآبار وانقطاع المطر ، وتفتت كدر التراب فأصبحت غباراً . وقالوا انهم حاولوا أن يسوقوا قطعان ماشيتهم باتجاه الداخل ، ولكن معظم أبقارهم عجزت عن السير ونفقت على جانبي الطريق ، وأن المطر قد عاد يهطل قبل ارتحالك الى هنا ببضع سنوات .

وجذب ثوماس أذن النسناس بقوة ، حتى أن الحيون الشرس كاد ينشب أسنانه في يده .

وتغير وجه جوزيف وبان عليه الكدر . فربت على لحيته وثنى أطراف

شعراتها الى الداخل كما كان يفعل والده ، وقال :

— سمعتُ عن ذلك يا توم ، ولكن ، لقد انتهى أمرها . لا بد أن خطأ قد وقع حينئذ . لن تعود مثل ذلك السنين أبـــداً ، فالتلال تختزن ماء كثيراً في بطونها .

— وكيف تعلم أنها لن تعود؟ لقد قال الخيالة إنه سبق أن حدث ذلك مرات من قبل ، فكيف تجزم بعدم حدوثه من جديد ؟

فزمّ جوزيف فمه وقال :

— أقول ، لن تعود ، فجداول سفوح التلال لا تزال تفيض بالمـــاء ، إنني لا أريد .. ولا يمكن أن أظن بأنها ستعود .

ولكز جوانيتو حصانه نحوهم وقال :

— دون جوزيف .. هناك رنين جرس بقرة على المرتفع .

فأدار الثلاثة رؤوس أحصنتهم إلى اليمين وساروا خبباً . وقفز النسناس إلى كتف ثوماس وتعلق بعنقه بذراعيه القصيرتين البـالغتي القوة . وأطلق الرجال خيلهم رَباعاً على المرتفع ، فمروا بقطيع صغير من البقرات الحمر . وكان عجلان صغيران يتعثران في مشيتهما بين القطيع ، وفي لحظة أمسك جوانيتو بالعجلين فبطحهما أرضاً ، وأخرج زجاجة القطران من جيبه . وفتح ثوماس نصل سكينه العريض ، ورسم بها وسم آل وين على أذني العجلين ، وهما يجعران بمسكنة بينما تخور أمّاهما خوفاً عليهما أن يصيبهما أذى . وبضربتين أخريين من نصل السكين أكمل ثوماس عملية الخصي وربط الجلد ثم سكب على الجرح بعض القطران .

ونخرت البقر خائفة عندما شمّت رائحة الدم . وفكّ جوانيتو قوائم العجلين فنهضا وسارا شبه أعرجين من أثر الرباط ، كلٌ منهما إلى ضرع أمه الذي استقبله بحنان الأمومة العذبة ، يسقيه من دمها حاجته أو يفيض .

وركب الثلاثة أحصنتهم ثانية واستأنفوا سيرهم .

كان جوزيف قد التقط ما قطّه ثوماس من آذان العجلين . فنظر إلى تلك القطع الصغيرة الموبرة قليلاً ثم دسّها في جيبه .

وراقب توماس ذلك فقال :

— جوزيف ، لماذا تعلق الصقور التي تقتلها على أفراع البلوطة ؟

— لأنذر الصقور الأخرى بالابتعاد عن (الصيصان) طبعاً . كل الناس يفعلون ذلك يا توم .

— ولكنك تعلم أن ذلك لا ينفع ، فليس هنالك صقر يقبل أن تضيع منه فرصة اقتناصه كتكوتاً لمجرد أن ابن خاله معلق على أحد الأغصان من قدميه . إنه يأكل ابن اخته إذا استطاع .

وأطرق توماس هنيهة ثم استأنف :

— وأنت تدق الآذان المثروحة إلى جذع البلوطة بالمسامير أيضاً .

فاستدار جوزيف في سرجه بغضب قائلاً :

— أدقّ الآذان المثروحة لأعدّ العجول .

وبدت الحيرة على وجه توماس ، فنقل النسناس إلى كتفه ثم لحس باطن أذنه وقال :

— أنا أدري بالذي تفعله يا جو ، يخيّل إليّ أحياناً ما تقصد ، هل هو بخصوص سني الجفاف يا جو ، هل تتدبر أمرك معها سلفاً ؟

— إذا لم يكن السبب هو ما قلته لك ، فإنه ليس ما تفكر فيه على الاطلاق.

كانت كلمات جوزيف تنمّ عن الحنق ، وصوته يدل على الارتباك . وتابع كلامه :

— أضف إلى ذلك أنني أنا شخصياً لا أفهم سبب مـــا أفعل ، أفلن تخبر بيرتون إذا قلت لك ؟ إن بيرتون قلق علينا جميعاً .

فضحك توماس وقال :

— إن بيرتون لا يخبره أحدٌ شيئاً ، لكنه يعرف كل شيء .

— إذن حسناً ، سأخبرك بذلك . لقـــد بارکني والدي قبل انتقالي الى هنا ، على الطريقة القديمة الموصوفة في الانجيل . وأعتقد أن بيرتون كان لا يود تلك البركة أن تحدث على التي صارت به . ولديّ دائماً شعور غريب بوجود أبي .

كان دائماً مادئاً مستغرق الفكر ثاقب النظر ، لم يكن أبداً كباقي الآباء وإنما شخصاً من اللحاً الأخير الذي تستطيع أن تثق بـــه وتعتمد على نصحه ، فهو ثابت لا يتغير ، أبدي لا يزول . فهل تشعر يا توم نحوه بمثل هذا ؟

فهز توماس رأسه وقال :

— نعم ، فهمت ، أكمل .

— حسناً إذن ، لقـــد قدمتُ إلى هنا وكنت لا أزال أشعر بالاطمئنان ، واستلمت رسالة بيرتون ، فسلختني عن العالم لحظة ، دون أن تترك لي ما أستند اليه من أرض أو فكر أو غير ذلك . وتابعت قراءة الرسالة إلى حيث يقول والدي انه سيأتي لزيارتي بعد أن يموت . ولم يكن البيت قد أقيم حينئذ ، وكنت أجلس على كومة من ألواح الخشب ، فرفعت بصري ، ورأيت تلك البلوطة .

وانقطع جوزيف عن الكلام وأخذ يحملق في معرفة حصانه ، ثم ردّ بصره الى وجه أخيه ، بعـــد لحظات ، ولكن ثوماس أشاح نظره جانباً فلم تتقابل نظراتهما . وقال جوزيف :

— حسناً ، ويمكنك أن تتصور بقية الحـال ، فأنا أفعل الأشياء التي ترى ، ولا أدري لماذا أفعلها ، إلا أنه يسعدني ذلك .

ثم تلعثم وهو يقول :

— وعلى كلٍ فإن على المرء أن يكون له ما يرتبط ويتعلق به ، شيء يثق بأنه سيجده كل صباح .

وربت ثوماس ظهر نسناسه بلطف لم يعتد استعماله مع غيره من المجموعة الغريبة لديه ، وقال :

— أظنك لا تزال تذكر يوم كسرتُ ذراعي عندما كنت صبياً ، وعدت إلى البيت معلقاً إياها على حمالة إلى صدري . كانت أشد إيلاماً من جهنم ، وجاء والدي ففتحها وقبّل راحتي . ولم يكن ذلك ما يفعله أب ، ولكنه صحيح ، فقد كانت تلك القبلة شفاءً أكثر منها تودداً ومداعبة . لقد شعرت بها تسري في عروق تلك

الذراع كأنهـا تيار من الماء البارد . ومن المضحك أنني لا أزال أستعيد في نفسي ذلك الشعور في ذراعي المكسورة .

وطنّ جرس بقرة أمامهم على بعد ، فلكز جوانيتوَ حصانه باتجـاه الصوت وقال :

— في الصنوبر يا سنيور ، لست أدري لماذا تذهب البقرات إلى هناك مع أنه لا مرعى لهن تحت أشجار الصنوبر !

وأداروا رؤوس خيولهم صوب المرتفع الذي كانت تغطيه غابة كثيفة من أشجار الصنوبر . وكان أول ما واجههم مجموعة من جذوع تلك الأشجار قائمة كأنها أعمدة التليفون أو صواري السفن ، ذات قشرة ظهرت ارجوانية في أشعة الشمس . كانت الأرض تحت تلك الأشجار خميلة القشرة نزّازة ، تغطيها الأوراق الإبرية ولا ينمو فيها حشيش . أما الأكمة فهادئة لا أصوات فيها إلا همس الريح بين تلك الابر ، ولا تهتم الطيور بزيارتها لأنها لا تستلطف رائحة الصنوبر على ما يبدو . وكانت سوق الأشجار تتقارب وتكثف جذوعها كلما أوغلوا في المسير داخل الأكمة ، فتمتد أفراعها لتصنع سقفاً متصلاً من الأوراق الابرية . وكانت النباتات المتسلقة ذات الأشواك الحادة كالعليق والقُنديل والشبرق تشتد كثافتها كل خطوة الى الأمام حتى توقفت الخيل عن المسير ، وأصبحت عاجزة عن اختراق ذلك السد الشوكي المرصوص . وحينئذ أدار جوانيتو رأس حصانه إلى اليسار وقال :

— اتّجها هذا الصوب يا سنيور ، فهنالك معبر في هذه الناحية .

وقادهما الى مسرب تغمره الابر ، ولكنه لا نباتات متسلقة فيه ، يتسع لراكبين أن يعبراه معاً . وسارا خلال ذلك المسرب مسافة ماية ياردة ثم توقف توماس وجوزيف فجأة لينظرا الى ما قابلهم .

لقد أدى بهم ذلك المسرب الى ساحة واسعة عارية من الأشجار مدوّرة ،

منبسطة كأنها صفحة بركة ماء ، تحيطها أشجار ضخمة تتكاثف حتى تحجب الشمس عما تحتها فيخيم الظلام في الظهيرة . وفي منتصف تلك الساحة كانت تنتصب صخرة شماء في حجم بيت كبير . وتبدو في منظرها هي الغموض والرهبة .

ويبدا أن يداً ماهرة قد أكسبتها ذلك الشكل ، مع أنه لم يكن لها شكل معين تحتفظ بسه ذاكرة من شاهدها . وكان يغطيها الطحلب ، كثيفاً شديد الاخضرار . كانت الصخرة كأنها مذبح قديم انصهر فتكوّر على نفسه . وفي جانب منها ظهرت مغارة صغيرة سوداء تحرس بابها خمس شجيرات من السرّيس على ضفتي جدول ، يخرج من هناك ويسيل في عرض الساحة العارية رقراقاً ينساب بهدوء الهيكل المقدس . ثم يختفي أثره بين الشجيرات الملتفة في الطرف الأقصى من الساحة .

وبجانب ذلك الجدول كان يبرك ثور أسود عظيم وقد ثنى قائمتيه الأماميتين تحت كرشه كأنه أسد يجثم على ما افترس . كان رأسه ضخماً أقرع (خالياً من القرون) وقد عُلّق على جبهته جرس صغير . وكان الثور يجتر بهناء عندما رفع رأسه لينظر الى القادمين ، ثم نهض وانسل بين الأدغال فشق بذلك طريقاً يمكن عبوره بينها . وسمع الثلاثة تقصّف أغصان العليق والقنديل بينما كان الثور يشق طريقه فيها والأشواك تنشَب في ظهره اللين العريض فتدميه . ورأى الرجال عُرعرته الضخمة بين كتفيه تكاد يتدلى لحمها حتى مفصل يديه ، ولمحوا ذنبه الغليظ الكثيف الشعر والذي يكاد يلامس الأرض ـ يختفي بين الأدغال . وقال ثوماس :

ـ ليس هذا الثور من قطيعنا ، فلم يسبق أن رأيته من قبل .

ثم التفت الى جوزيف وقال :

ـ لم أرَ هذا المكان من قبل أبداً ، وأظن أنني لا أرتاح اليه .

كان صوته متهدجاً ، وهو يشد النسناس بين ذراعه وخاصرته ، يعصره بعزم . والحيوان المسكين يحاول الانفلات فيمضُّ ويتلوى دون جدوى .

واتسعت حدقتا جوزيف وهو ينظر إلى الساحة بحدودها الأربعة . ولم يرَ فيها شيئاً معيناً ، فاستنشق شهيقاً عميقاً ثم تمطى فاتحاً ذراعيه على طولهما فسقط اللجام من يده على مقدمة سرج الحصان ، وقال :

— اهدأ يا ثوماس. لا بد أن هنالك شيئاً في هذه الساحة . إنه شيء لا تعرفه أنت فتخشاه ، أما أنا فأعرفه تماماً ، فقد سبق أن رأيت هذا المكان في حلم سابق .

وردّ ذراعيه إلى جنبيه وهو يقول :

— هذا مكان عبادة ، إنه شيء قديم مقدس .

كانت الساحة هادئة تماماً .. وطارت سُمّنة في السماء المدورة فوق أعالي رؤوس الشجر .

واندار جوزيف صوب جوانيتو ليقول :

— أنت تعرف هذا المكان يا جوانيتو طبعاً ، فقد سبق لك أن زرته ؟

واغرورقت عينا جوانيتو الزرقاوان بالدموع وهو يجيب :

— لقد أتت بيّ أمي اليه يا سنيور ، فقد كانت هندية ، وكنت حينئذ طفلاً صغيراً وأمي حامل على وشك أن تضع . فحضرتْ إلى هذا المكان وجلست الى جانب تلك الصخرة مدة ليست بالقصيرة ثم غادرنا المكان إلى « مدينة السيدة ». كانت أمي هندية يا سنيور ، وأظن أن شيوخ الهنود لا يزالون يزورون هذا الموضع إلى الآن .

— الشيوخ فقط ؟ ، أي شيوخ ؟

— عجائز وشيوخ الهنود يا سنيور .. يؤسفني أن أجلبكم اليه ، ولكن طبيعة الهندي قد تحركت في نفسي بحكم قربنا منه .

وصاح ثوماس :

– هيا إلى الجحيم . هنا ننصرف ، علينا أن نفتش عن البقرات .

وأطاع ذلك العجوز فلوى زمام حصانه ، ولكنه كان يتكلم بهدوء ، والطافة إلى أخيه وهما يغادران الموضع قائلاً :

– ما بالك يا ثوماس ؟ لا تخف . إن في المكان قوة وطيبة وجمالا . هنالك ما يشبه الفداء الروحي يا ثوماس ، يجوز أن ننساه الآن ولكننا سنعود اليه عند الحاجة يوماً ما لنتزود منه .

وسار ثلاثتهم صامتين يرهفون السمع لعلهم يسمعون خوار ثور أو جعير بقرة ضالة .

٧

كان يعيش في مونتيري سرّاج اسمه جريجوري ، يقوم أحياناً بإصلاح اللجُم والرشمات وباقي عدة الخيل .. وكان فيلسوفاً عنيفاً يعشق المناقشة والجدل ، ولم تنل منه السنون فتلطف من غلوائه في آرائه الثورية المتطرفة ، فقد خلّف أرض الأحلام الجميلة التي صورها ماركس بعيدة الى الوراء .

كان جريجوري قد تجعد وجهه وبرزت وجنتاه لكثرة ما يزم فمه حنقاً على هذا العالم ، واكتسبت عيناه بفضل ذلك بريقاً غريباً متوحشاً . وكان يقدس حقه فيطالب جيرانه بعـدم الاعتداء على أتفه شيء يخصه هو ، ومن طبيعته أن يكتشف كل يوم شيئاً جديداً عن سوء العدالة في ما تمنحه القوانين العـــامة من حقوق . وقد حاول أن يلقن ابنته اليزابيت طريقته هذه في الحياة ، ولكنه لم يجد اذناً صاغية فأخفق في مسعاه معها كما سبق أن أخفق مع أمها من قبل . وكان من عادة اليزابيت أن تطبق فمها حين يشرح لها آراءه .. فيتعذر مناقشتها ويظل يرغي ويزبد حانقاً مقهوراً .

وكانت اليزابيت صبية مليحة شديدة الحزم ، شعرها سبط غزير ، وأنفها حلو صغير ، وفي ذقنها صرامة وحزم . أما عيناها فكانتا سر جمالها .. متباعدتين في أقصى جانبي وجهها ، طويلتا الأهداب ، سوداوان نفاذتان يشع منهما بريق ينم عن الحكمة والتعقل . وكانت رموشها حين تطبقها طويلة تحرس العلم الخالد

المشمئز من نظراتها . كانت عشرقة القامة ليست بالناحلة ولا السمينة المفرطة ، وإنما تتصف بين ذلك ، تميل إلى القصر ، سريعة الحركة ، وعصبية لا تتردد .

وكان أبوها يشير إلى سيئاتها أو بالأحرى ما يعتقده هو كذلك فيقول .

— أنت كأمك ، عقلك منغلق على نفسه ، يعوزك كل ذرة من المنطق ، تتصرفين كما تشعرين بعاطفتك فقط .

انظري الى امك ، انها مجرد امرأة جبلية ، لا يزال والداها يعتقدان بالجنيات . وحين أشرح لها نفسيتها على شكل نكتة ومن أجل المزاح فقط تزم فمها وتطبقه كأن شفتيها درفتي نافذة لا تنفتحان وأحياناً تقول :

« هنالك أشياء لا يمكن أن يضمها المرء على محك العقل ، ولكنها صحيحة بالرغم من ذلك » . وأراهن أن تلك الأم قد حشت رأسك بالجنيّات وأمثالها قبل أن تموت .

وقد قولب جريجوري مستقبل ابنته وصاغه لها على الشكل التالي :

— سيأتي يوم تصبح فيه المرأة قادرة على كسب قوتها ، فليس هنالك سبب معقول يمنع المرأة من أن تتعلم شيئاً أو تتعاطى مهنة معينة ، فأنت مثلاً .. سيأتي وقت تصبح فيه فتاة مثلك قادرة على أن تكسب أجرتها وتقبل يد من يطلبها للزواج .

وقد راع جريغوري من اليزابيت انها كانت منكبة على دراستها في البيت تؤدي مختلف الفحوص العامة كي يؤهلها ذلك لأن تصبح معلمة .

فقال لها :

— لا زلت صغيرة السن يا اليزابيت فلا يتجاوز عمرك السبعة عشر عاماً ، فدعي عظامك يشتد عودها على الأقل .

ولكن اليزابيت كانت تبتسم قليلاً بزهو ولا تتكلم ، فاكتسبت فضيلة الصمت من جراء حياتها في بيت لا مجال فيه لآرائها أن تلاقي أي تقدير ، وظلت تلك الطبيعة متأصلة فيها فيما بعد .

لقد كانت مهنة التعليم لدى اليزابيت أكثر من تلقين دروس للأطفال ، واعتبرتها

وسيلة تستطيع بهـا أن تنتقل من وسطها الضيق الى آخر رحب تحاول أن تبرز فيه وتفرض شخصيتها إذا استطاعت الى ذلك سبيلا ، أو تحيط نفسها بالمهابة ، والاحترام على الأقل . فكانت غامضة لدى الناس الذين ستمارس عملهـا بين ظهرانيهم .. لكنها محبوبة ، خفيفة الظل .

إنها تروي بعض المقطوعات الشعرية وتعرف طرق جمع وطرح الكسور . وهذا علم غزير ، وتتلفظ بعض الكلمات الفرنسية في أحاديثها ، وهـذه نهاية المعرفة ..

كانت ملابس اليزابيت الداخلية من الحرير والكتان الثمين ، ترى معلقة على حبل الغسيل ، وفي هذا حجة قاطعة لدى أهل البلدة على أنها من وسط راق . وكانت هذه الأشياء التي تتسم بالسطحية والمظاهر الجوفاء شيئاً جديراً بالملاحظة والتقدير في معلمة مدرسة ، لأنها شخصية اجتماعية كما أنها تهذيبية أيضاً .

كان الناس الذين ذهبت اليهم اليزابيت لتشتغل بينهم لا يعرفون اسمها الأول فاتخذت لنفسها لقب (الآنسة) وكان يلفهـا رداء الغموض ويقنّعها اتساع اطلاعها . أما عمرها فسبعة عشر ربيعاً .

فاذا لم تستطع الزواج من أكفأ عزاب محلتها فمعنى ذلك أنه لا بد أن تكون أبشع من غولة . لأن معلمة المدرسة ترقّي رجلهـا وترفع من مستواه الفكري ، هكذا يقولون. ولا بد أن يكون أطفالها أذكى من أطفال الاخريات من النساء، وعلى هـذا فإن مهنة التعليم للفتيات يمكن أن تكون درجة السلّم الأخيرة نحو الزواج .

واليزابيت كانت أغزر علماً من باقي المعلمات ،فبالإضافة الى الفرنسية المكسرة، والكسور الصحيحة ، قرأت نتفاً من افلاطون وشذرات من لوكريتيوس ، كما تحفظ أسماء روايات ايسخيلوس وارستوفانس وحتى يوريبيدس ، وتستند في اطلاعها الكلاسيكي على اسمي هومر وفرجيل ، اسميهما فقط .

وقد سر انعزال المكان اليزابيت ؛ حيث قدّرت أنه سيتوفر لديها متسع من

كان من الوقت التفكير في جسم ما قرأته فتأمل شكله ووصف أعضاءها ترتيباً بديعاً ثم شخصيتها على أساسه لتمثل البزابيت جريفوري جميلة .

كانت مدينة السيدة ، هي الوسط الذي اختار لعبتها لين ، فسكنت في بيت آل غونزال ، الذين كانوا يقيمون لها طعامها الخاص مرتباً عن آخر الشهر .

وطارت أخبار البزابيت ، وسمع من في الرابي أن سيدة جميلة شابة قد قدمت الى البلدة ، فكانت البزابيت حين تخرج للتنزه أو تذهب الى البقال أو حتى في طريقها الى المدرسة ، بل أينما ذهبت وحيثما اتجهت ـ تجد الشبان الفارغي الأعمال ينتظرون : هذا يتشاغل بلف سيجارة وذاك ينظر الى ساعته ، وثالث يتمطى ، والجميع بود الاختراف من منظر الفتاة الحلوة ، المعلمة . وبين هؤلاء ، وكل بضعة أيام ، كانت البزابيت تلمح رجلاً غريباً طويلاً أسمر اللحية ، حادّ زرقة العينين ، يراقبها بفضول وتنفذ نظراته الى ما تحت ملابسها ، الى جسدها ، الى نفسها .

وكان جوزيف حين تناقلت اليه أخبار البزابيت قد أخذ يطاردها فيضيّق عليها الخناق حتى ضمها مجلس واحد في منزل آل غونزال حيث كانت البزابيت هناك في زيارة عادية .

كان شعر البزابيت منفوشاً إلا أنها «المعلمة» ، وكست وجهها صرامة وجدية . ولم يكن يبدو عليها شيء غير عادي ، إلا أنها ، تلمس تنورتها وتخفضها إلى ما تحت ركبتيها بين الحين والآخر ، وتنظر في عيني جوزيف أحياناً ثم تخفض بصرها الى حجرها . وكان جوزيف يرتدي حلة سوداء وحذاء جديداً ، قد شذّب شعره وهذب لحيته ، وقلم أظافره ونظفها ما استطاع . وسألته البزابيت :

ـ هل تستذوق الشعر ؟

ـ نعم ، طبعاً .. نعم ، أتذوق ما قرأته منه .

ـ طبعاً يا مستر واين ليس هنالك شعراء عظام في العصر الحاضر كشعراء الاغريق ، كهومر مثلاً .

ـ فتضايق جوزيف وقال :

– طبعاً أتذكر ، أتذكر ان رجلاً ذهب الى جزيرة وتحول هناك الى خنزير.

وفي لحظة واحدة اكتسب وجهها مظهر المعلم، المعلم المتفوق على تلميذه البليد الذاكرة وقالت :

– تلك هي الأوديسية . اما هومر فيعتقد أنه عاش حوالي ٩٠٠ ق.م وكان له أثر عميق في ما تلاه من أدب الإغريق .

– يا مس جريجوري ، هنالك طريقة لحفظ مثل هذه الأشياء ، ولكنني مع الأسف لا أعرفها .. وهنالك من يعلمون الأمور بغريزتهم ، وليس الحال معي كذلك . فقد حاولت ان أعرف ما يجب ان أقوله لك ، ولكني لم استدل على طريقة ما ، لأنه لم يسبق لي ان قمت بمثل هذا العمل . فهنالك وقت للمداورة ولكنني أجهل أصول تلك المداورة . كما أنه يبدو لي أنه لا نفع منها .

وأحست اليزابيت بقوة تأثير عينيه ، كما أذهلتها جمله القصيرة وشدة نفاذها إلى هدفه مباشرة فقالت :

– لا أدري عما تتحدث يا مستر واين .

وشعرت بأنه قد انتزع منها مركزها العلمي ، وخشيت من ذلك .

– أنا أعلم أنني أتصرف بشكل خاطىء ، إلا اني لا أعرف طريقة أخرى . وأخشى ان أرتبك وأستحي ، فبالاختصار المفيد انا أرغب ان تكوني زوجتي ، ويجب أن تعلمي بذلك ، فهـا أنا أقوله . ونملك انا واخوتي ٤٦٠ هكتاراً من الأرض ، ودمنا نقي لا ملوثين في أجدادنا. وأعتقد أنني سأكون طيباً معك إذا عرفتُ ما تريدين .

كان جوزيف قد خفض بصره وهو يتكلم،فرفعه الآن.ورآها خجلة منكمشة فنهض وقال :

– أعرف أن طريقتي كلها خطأ ، ولكنها قصيرة ، وقد فعلتها . وسأذهب الآن وأعود عندما يزول من كلينا الحياء .

وأسرع خارجاً دون وداع او تحية للحاضرين ، فقفز على حصانه وأعمل مهماز . وشعر جوزيف بنار الخجل وحرارة الغبطة في حلقه. وسار حتى وصل

إلى سكينة تخيط الثياب بالنهر ، فوتر عضلات ساقه وشد بالأنسي من فخذه على جانبي الحصان ، وانتصب على سرجه وأخذ يصرخ ليريح حلقه من تلك النار . وسمع رجع الصدى يشاركه الصراخ . وخلّف صراخه سكوتاً عميقاً في الغابة أرهبه ، فارتد الى سرجه صامتاً يستمع لهات حصانه في عدوه . وقال جوزيف بضيق :

— إن هذا الليل هادئ جداً ، فيجب ان أبدد هدوءه . يجب ان أفعل شيئاً .

ولما كان لا بد للعمل الذي ينوي جوزيف ان يفعله من ان ينم عن طبيعة شخصيته العامة وحالته النفسية في تلك اللحظة معاً ، فقد أخذ قبعته وألقى بها عالياً في الهواء . إلا أنه لم يكتف بذلك . لقد تذكر سوطه فجلد به ساقه ليشعر بالألم لحظة . وشرد الحصان عن الدرب عند سماعه الصوت ، فألقى جوزيف بالسوط في الدغل وكبح جماح الحصان بضغط فخذيه وشدّ اللجام . ولما هدأ الحيوان أرسله جوزيف خبباً في اتجاه المزرعة .

وفغر فاه يستنشق هواء الليل المنعش ويخفف من حدة تلك الحرقة التي يشعر بها في حلقه .

أما اليزابيت فراقبته ينزلق خارج الباب . ولاحظت ان خلعاً كبيراً كان تحت الباب فقالت : لا بد ان تندفع زخات المطر على شكل رذاذ قوي عندما ينزل المطر ، فمن الضروري إصلاح هـذا الباب . حيث لا أدري فيما اذا كنت سأنتقل من هذا البيت الى غيره .

وجذبت تنورتها الى أسفل ثم أوقفت أصبعها في وسط حجرها فلصق القماش بفخذيها وتحدد شكل ساقيها ، ثم فتشت تحت أظافرها خوف ان يكون قد علق بعض الوسخ . وحدثت نفسها قائلة :

— الآن انا مستعدة ، مستعدة لأن أعاقبه على وقاحته ، وقلة ذوقه ، فهو لا يعرف ان يتصرف بلباقة وأدب . وحتى لو رأى لطف الآخرين فإنه لا يعرفه او يقدّره . انني لا استلطف لحيته ، كما أنه كثير البصبصة ، أما طريقة تقدمه بالخطبة فتدعو للرثاء .

وفكرت في الطريقة التي ستعاقبه بها على هذا النحو .

لقد قال بأنه لا يحسن المداورة فهو يريد ان يتزوجني ، وعليّ حينئذ ان احتمل تينك العينين طيلة حياتي . اما لحيته فيجوز ان تكون خشنة ، لا ، لا أعتقد ذلك . إنه لجميل ان ينفذ المرء إلى هدفه رأساً ، وخطبته إياي .. ويضع يده على خاصرتي .

وأغلق على فكرها .

أنا حائرة فيما يجب ان أعمل .

كان الرجل الذي سيتصرف بحياتهـــا في المستقبل رجلاً غريباً لا تعرف اليزابيت من طبائعه شيئاً ، ولا ردود الفعل التي يمكن ان تتركها تصرفاتها عنده .

وصعدت اليزابيت الى غرفة نومها ببطء وخلعت ملابسها وقالت :

— يجب ان اقرأ كفه ، وهي تبيّن عنه الكثير .

وانبطحت على الفراش منكبة على وجهها وأخذت تبكي ، بكاء لذيذاً كتثاؤب الصباح . ثم نهضت بعد قليل فأطفأت الفانوس ، وجذبت كرسياً هزازاً الى جانب الشباك ، اتكأت بمرفقيها على حافته ، وأدارت بصرها في ظلام الليل تملأه رطوبة الضباب . ولاح لها طاقة صغيرة يلمع منها نور ضئيل . وسمعت حركة تسلل مريب في الباحة ، فأطلت من شباكها . كان هنالك وثبة ، وصفير ، ومواء ، وصرخة ألم .

ونفذت عينا اليزابيت حجب الظلام فرأت قطاً ينسل الى الخارج وفي فمه قد تدلى حيوان طويل الذنب رفيعها .

وطرق رأس اليزابيت صداع خفيف وقالت :

— أين هو يا ترى ؟ لا بد انه على حصانه يلعب الريح بلحيته وسيكون تعباً عند وصوله ، بينما أرتاح أنا هنا مطمئنة في منزلي لا أقوم بأي جهد . هذا ما يستحقه .

وسمعت جوقة موسيقية تعزف ، وتقترب صوبها من الناحية البعيدة للقرية حيث كان مجمع الطرب . واقتربت الجوقة ، فكان فيها صوت ينغم لآخر بشكل منسجم

فيه عذوبة كأنه قنهدة تصبي . وسمعت صوتاً يرتفع في غنائه قائلاً :

« ما أحلى خصور فتيات مكسولتن » .

ومرّ شخصان . قال أحدهما : «توقف . فليس هذا الغناء سليماً ، خلّصْه من الألحان المكسيكية » وكرر المغني اللحن ، فقال الآخر : وهذا خطأ أيضاً .

وأطرق الحاضرون فقال المغني :

— ليتني أستطيع العزف على الأرغن اللذيذ .

— جرب يا سنيور .

— اللعنة . لقد فعلت ، فكان يطنّ فقط عندما أعزف عليه .

— لنجرب هذه الأغنية ثانية يا سنيور .

وانتقل أحد الرجال الى جانب السياج ، ورأت اليزابيت ذلك المغني يسترق النظر الى شباك غرفتها وقال :

— اهبطي . انزلي من فضلك .

وظلت اليزابيت ساكنة في كرسيها لا تريم . وخافت أن تتحرك .

— سأصرف الجميع اذا هبطتِ .

— لا حاجة بي للناس يا سنيور .

— سأرسل السيد الى البيت ، فأنا أشعر بالوحدة .

— سأغني اذا هبطت . استمعي كيف استطيع الغناء يا بانكو . أعزف لحن الفتاة العاقلة .

وارتفع صوته في الهواء كأنه بخار الذهب ، وكان في صوته شجن لذيذ .

وانتهت أغنيته ناعمة دافئة ، فاتكأ على السياج ينتظر اشارتها . وقال :

— الآن تهبطين ؟ أنا في انتظارك .

فارتجف كتفاها بعنف تزايد حتى طرقت اليزابيت درفتي الأيجور ، وهي ترد هما غضبى ، ثم تغلق زجاج النافذة من الداخل . وسمعت الرجل يقول :

— انها لا تود الهبوط يا بانكو ، ما رأيك بالبيت المجاور ؟

— شيخ وعجوز في الثمانين يا سنيور .

– والبيت الذي يليه ؟
– هناك مجال للنجاح ، فعندهم بنت في الثالثة عشرة .
– اذن نجرب حظنا مع صبية الثالثة عشرة .
وأخذ بانكو يعزف .
وجذبت اليزابيت أغطية فراشها فغطت رأسها وهي تقول في نفسها :
– كنت على وشك ان أهبط اليه ، وأخشى ان أكون قد فعلت لو كرر طلبه مرة أخرى .

٨

انقضى أسبوعان قبل أن يذهب جوزيف إلى المدينة ، لزيارة اليزابيت . وكان الخريف قد أطلت بشائره ، إذ بدأت تزحف غيوم دكناء من المحيط كل يوم لتستقر على رؤوس التلال لفترة قصيرة ثم تتقهقر عائدة الى المحيط كأنها أسطول بحري يناور للتمرين . وأخذت اليمائم ، التي لم تكن لتظهر في الربيع والصيف، تتجمع في أسراب ترفرف على البيت وتنبش بقايا الحصاد. وعلى ضفتي الجدول ، أخذت الشمس في شروقها وغروبها تبدو حمراء خلف غبار الخريف المتطاير .

كان بيرتون قد ذهب إلى مخيم للتجمع يقع على ساحل المحيط ، مصطحباً زوجته وأطفاله ، فقال ثوماس .

— إن بيرتون يأكل الله كما يأكل الدب اللحم في الصيف ليدفئه في الشتاء .

وكان ثوماس يضيق ذرعاً بالشتاء لأنه ربما لن يجد كهفاً أو مغارة صغيرة يحبو الى داخلها لينام. وأخذ الأطفال يترقبون عيد الميلاد بفارغ الصبر ويشعرون باقترابه رويداً، فيسألون راما عن السلوك الطيب الذي يرضي القديسين — وهي أهم من القديسين في نظرهم — فتشبع بحديثها اليهم غريزة الفضول في نفوسهم .

أما بنجامين فكان منطرحاً في فراشه مريضاً ، وقد حاولت زوجته الشابة أن تفهم لماذا لم يهتم بمرضه أحد .

كانت الأشغال قليلة في المزرعة في ذلك الوقت ، فالحشيش على سفوح التلال غزير يكفي القطيع طوال الشتاء ، والبايكات ملبدة بالبرسيم للخيل . وكان جوزيف يقضي معظم نهاره جالساً تحت البلوطة يفكر في اليزابيت ، فيتذكر كيف كانت تجلس ، بقدميها ملتصقين ، ورأسها مرفوع عالياً كأنه يحـــاول الطيران لولا ما يشده الى جسدها .

وكان جوانيتو يجلس الى جانبه يسترق النظر الى وجهه يحاول استطلاع نواحي شخصيته ويتفهم عاداته ليقلدها . وقال جوزيف :

— ربما جلبت زوجة قبل الربيع يا جوانيتو . أجلبها الى بيتي هنا ، تعيش فيه فتدق لي جرساً صغيراً وقت الغداء ، لا جرس بقرة . سأشتري لها جرساً صغيراً من الفضة . وأظن انه يسرك سماع مثل هـــذا الجرس اللطيف يدق وقت الغداء .

وشعر جوانيتو انه قد أصبح موطن ثقة رئيسه فكشف هو الآخر سره .

— وانا أيضاً يا سنيور .

— هل تتزوج يا جوانيتو ، أنت أيضاً ؟

— نعم يا سنيور . «أليسَ غريزا» . ولدى عائلتهم وثيقة تثبت أن نسبهم من قشتالة .

— يسرني جداً زواجك يا جوانيتو ، وسنعاونك في بناء بيت لك ، وتستقر هنا ولن تعود تتجول على حصانك بعد .

وقرقر جوانيتو بسعادة :

— وسيكون لدي جرس يا سنيور أعلقه عند السُدة ، ولكنه طباشة ، إذ ليس من المستحسن ان أسمع جرسك فاذهب للغداء .

ورفع جوزيف رأسه الى الشجرة ، وكان كثيراً ما فكر في أن يهمس اليها بحبه لاليزابيت إلا أنه يقلع عن ذلك لسبب يجهله ، ثم قال :

— بعد غد أهبطُ المدينة يا جوانيتو ، وإذا كان لي حزر فإنك تريد أن ترافقني .

— أوه ، نعم يا سنيور ، سأقدم ستان السائق في (الكارة) ويمكنك أن تقدمه قائلاً : «هذا سائقي ، وهو سائق ممتاز ، وأنا طبعاً لا أسوق الخيل بنفسي» .

وضحك جوزيف من ذلك وقال :

— أظنك تود أن أقابلك بالليل .

— لا ، أبداً يا سنيور معاذ الله .

— حسناً ، رافقني يا جوانيتو فمن الضروري أن نفصل لك حلة تناسب الاحتفال .

— بدلة جديدة ! ألا يكفي (اوفر هول) بدلة لها جكيت وأزرار ؟

— اوه طبعاً ، جكيت وصديرية وسلسلة لساعة جيب الصديرية أيضاً ، وذلك يناسب المقام .

— هذا كثيراً يا سنيور ، لديّ قطعة من (رشمة) أعلقها ويكفي .

مشى جوانيتو الى البايكة ليفكر في ارتداء هـذا الزي لأن ذلك يجب أن يسبقه إعمال فكر وبعض التمرين أيضاً .

ورفع جوزيف بصره الى مجمـع أفراع البلوطة ، فوقع نظره على أربعـة او خمسة شحاتيت تتعاون في بناء عش لهـا من القش مستدير تحيط به الأغصان ، فاستعاد جوزيف صورة الساحة في الغابة وارتسم في رأسه السرخس النامي على ضفتي الجدول في المغارة الساكنة ، والطحلب الشديد الخضرة ، والصخرة العظيمة جامدة كأنهـا مزار مقدس ، والهدوء المطبق في ذلك المكان يدعو الى الفكر والتأمل . وودّ لو يعود الى تلك الصخرة فيربت على الطحلب الرطب ويُسرّ الى الصخرة بخبر زواجه المقبل .

لقد قال سابقاً ، ان ذلك مكان فيه غذاء روحي لا بد أن نعود اليه لنتزود منه فيما بعد ، إذ أنه يطرد الخوف والأسى والحيرة ، ولكنني لا أشعر بحاجـة اليه الآن لأنه ليس لديّ خوف أو أسى أو حيرة ، أما اذا كان هنالك حاجة بسبب فقدان شيء عزيز فإن ذلك المكان هو الذي يجب أن أقصده .

وتذكر السكينة حتى في الغابة الكثيفة الملتفة وانسياب الجدول تحت الأدغال وخروجه من المغارة فقال : « يجب أن أحبو الى داخل تلك المغارة لأرى من حيث ينبع النهر . »

وقضى جوانيتو نهار اليوم التالي في العناية بالخيول والعدة ، يغسل الأفراس بالصابون وتقرقع مهمّته على ظهورها ، ويبرُد مقدم حوافراها ، ويثبت مسامير نعالها ، ويصفف شعر معارفها ، ويجدل جانبي ذيولها ، أما العدة النحاسية فيلمع عراها النحاسية حتى تعود كأنها الفضة ، ويقحط ما علق بالسروج ثم يغسلها ويُمر عليها الشمع حتى يكاد السرج يلمع .

وتناول غداءه مع جوزيف في ذلك اليوم فلم يصب أحد منها من الطعام عادته . كانت أفكارهما مشغولة ، ونهضا الى (الكارة) فوجدا بنجامين ينتظرهما ، وقال جوزيف :

— يجب أن لا تهبط الى المدينة يا بنجامين ، فأنت مريض .

— لقد شفيت .

— سأصحب جوانيتو ، فلا متسع لك للجلوس في المقدمة .

— إذن أنبطح في الصندوق في الخلف .

وتسلق العجَل واتكأ على حافة لوح من الخشب في الصندوق . ولم يرتح لذلك جوزيف ولا جوانيتو ، وقال جوزيف :

— آخذك على شرط أن لا تشرب ، فأنت مريض .

— اوه . لن أشرب ، وإنما أريد ساعة للحائط .

— تذكر ما أقول يا بنجامين ، أنا لا أريدك أن تشرب أبداً .

— لن أجرع قطرة واحدة حتى ولو كانت في حلقي .

وخلاّه جوزيف وهو يوقن أنه سيسكر بعد وصولها بساعة واحدة ، ولن تكون له حيلة في ذلك .

كانت أشجار الجميز قد بدأت أوراقها تتساقط ، فتغطي أرض الطريق بطبقة كثيفة حمراء سريعة التقصف من الاوراق .

سمعت الزبيبت صوت جوزيف وهي على السدة أمام البيت فصعدت الى غرفتها كي تهبط اليه ثانية ، وكانت قد ظلت تفكر فيه طوال غيابه : أترفضه أم تقبله ، كيف ترفضه ، فلربما حدث شيء عظيم إن فعلت ، ربما مات غماً ، أو حتى ربما صفعها . واستشارت علومها الغزيرة من جمع الحدود المتشابهة في الجبر الى رسو قوارب قيصر على ساحل بريطانيا ، فجمع نانسي الكنسي ، وتصريف الفعل اللاتيني (أقول) !!

كان جوزيف لا يفقه هذه المسائل ، ولربما أنه لا يعرف من التاريخ إلا سنة ١٧٧٦ وعيد الاستقلال ، الذي هو معلومات بدائية في نظرها. لقد كان جاهلاً ! فزمّت شفتيها احتقاراً وكانت على وشك أن تعين له مكاناً في الصف كما تفعل مع أي ولد ، ثم تحسست خاصرتها بأصابعها لترى فيما اذا كانت تنورتها مكسمة تماماً ، وفركت شفتيها بقوة لتحمرّا ، وهندمت فرق شعرها بأصابعها وهرشت وجهها براحتها ليتوارد اليه الدم ، ثم هبطت تختال الى المقصورة حيث يجلس جوزيف ، وقالت :

— مساء الخير ، لقد كنت أقرأ رواية عندما بلغني أنك هنا، وهي من تأليف الشاعر الانكليزي براوننج . هل تحب قراءة شعره يا مستر واين ؟

فأمرّ جوزيف أصابعه الغليظة الخشنة على شعره وقال :

— هل اتخذت قرارك يا مس . يجب أن أسألك ذلك أولاً فأنا لا أدري من هو براوننج هذا .

كان ينظر اليها وفي عينيه جوع أفقد الزبيبت ما اعتادت عليه من سيطرة على الآخرين ، وحتى سيطرتها على نفسها.. إذ تراجعت علومها الغزيرة مذعورة تندس في جحورها لتقول صاحبتها بإشارة تنم عن الحيرة والعجز :

— أنا ... لست أدري .

— إذن أغادرُ المكان. يظهر أنك غير مستعدة الآن ، إلا إذا كنت تفضلين الحديث عن هذا الـ براوننج ، أو هل تحبين أن تذهبي في نزهة .. معي كارة .

ونظرت اليزابيت إلى السجادة الرخيصة المفرودة على مصطبة الغرفة . كانت حمراء اللون قد تآكل افريزها الأخضر فبدت منها خيوط اللحمة بعد أن انقطع السدى . ثم نظرت إلى حذائه فكان غير ملمع وقالت : أوه يظهر انه صبغه منذ أيام ، او أن علبة الصباغ قد ظلت مفتوحة بعد أن أضاع سدادتها من الفلين ، ولذلك جفّ الورنيش ولم يعد صالحاً للاستعمال، كما يفعل الحبر تماماً، فقد وجدت محبرتي جافة أول أمس لنفس السبب .. يظهر أنه لا يعرف هذه الحقيقة ، ولن أخبره بها لأنني أخسر عادتي في كتمان السر إذا فعلت ؟

وقال جوزيف :

— سنذهب إلى النهر، المنظر هنالك لطيف للغاية، وسنقطعه بالكارة، إذ من الخطر اجتيازه على الأقدام ، لأن الحجارة في مجراه ملساء تزلق عنها القدم .

كان يود أن يخبرهـــا كيف ستقرقع دواليب الكارة الحديدية الإطار على الحجارة في الطريق، وكيف تقدح نعال الخيل شرراً إذا أسرعت، وعن طرطقة ألواح الخشب وصرير الفصالات ، وخشخشة الأوراق في الغابة ؛ ويود أن ينبهها إلى أن قبة السماء ظهرت منخفضة جداً ذلك المساء بفعل الضباب حتى لتراود الإنسان نفسه أن يقلع ملابسه ليستحم في بركة الجو.. وغير ذلك.ولن ينسى أن يمتدح متانة خشب البلوط أبداً .

وانتصب جوزيف وتقدم نحو الفتاة فنزع عنها طمأنينتها التي استقر فيهـــا عقلها وقال :

— يسرني أن نذهب معاً .

وشعرت اليزابيت بميل عظيم في نفسها إلى المرح ، فوضعت يدها على ذراعه وربتت كمه وقالت بصوت جهوري انتقدت نفسها عليه فيما بعد .

— حسناً نذهب ، فالتعليم فيه انحباس ، ويسرني أن أستنشق الهواء الطلق.

وهرولت إلى الطابق العلوي وهي تقول لنفسها على الدرج كما تفعل بنات المدارس في الثانية عشرة حين يرقصن لأول مرة مع الصبيان .

« آه . . . بدأت أفضح نفسي » .

وقابعت في ذهنها . سيرانا الناس وحيدين في الليل ، وهذا يعني لديهم اننا خاطبان .

ووقف جوزيف في أسفل الدرج ينتظرها أن تطل ، وودّ لو يشق لها جسده لتفتشه فترى كل شيء ، حتى الأشياء التي لا يعرف وجودها هناك . وحدث نفسه :

— سيكون ذلك صحيحاً تماماً ، إذ ترى الفتاة أي نوع من الرجال أنا وربما فهمتني وحينئذ تقبل أن تكون قطعة مني .

وهبطت الفتاة مطرقة ثم ابتسمت له حين وصلته .

كانت ترتدي قبوعاً من الصوف الأزرق ، وقد انتثرت بضع خصلات من شعرها على سالفيها . وسرّ منظر الشعر المنثور قلب جوزيف فسَرَت في جسده رعشة خفيفة من اللذة وقال :

— أسرعي قبل أن يفتر حماس الخيل ، فتفوتنا تلك اللحظة .

وفتح لها الباب ، وانطلقا مهرولين حتى إذا وصلا الكارة ساعدها في الارتقاء وفك رباط الخيل وأرسلها خبباً ، ورقصت الخيل قليلاً أول الأمر فسرّت اليزابيت من ذلك . وسألها :

— هل أنت دافئة ؟

— نعم .

ولاحظ جوزيف كيف يستطيع بحركاته الرجولية أن يشير إلى قبة السماء ويحوش الغابات والمروج ، ويضم إلى صدره النجوم وأرتال السحب المتدافعة ، وشعر بالجبال الرواسي في الأرض تخضع له عانية مستكينة ، وبالطريق الصلبة تستعطفه أن يشفق على ضعفها من جبروته . وتملّكه الزهو في روحه وجسده . . لقد كانت لذة تحقق الرجولة القريبة من تقديس الذات لأن فيها شيئاً من عظمة الألوهية الجبارة . وقال :

– أنا أعشق الليل ، ففيه قوة ورجولة أكثر من النهار .

كانت اليزابيت من أول عهده معها قد اتخذت جانب الدفاع محاولةً أن تبعده عن أن يخترق حدود نفسها ، بفعل الغريزة المناقضة . أما الآن فقد تغير موقفها معه ، وهي لا تدري هل كان ذلك نتيجة لصوته ، او رجولة كلماته او تأثير شخصيته القوية التي اكتسحت ما بنته اليزابيت على نفسها من أسوار ؟

ولمست ذراعه المتوترة النافرة العضلات ، فشعرت بنشوة غامرة. وأبعدت يدها اثر ارتجاف جسدها ، وجفّ حلق الفتاة وفكرت :

– لا بد انه يسمع لهاثي كأنني حصان ، هذا عيب أن يظهر عليّ .

وانفجرت ضاحكة من أعماقها لتخفي ما ظنته وجيب قلبها ، وتصاعدت إلى رأسها تلك الأفكار التي كانت تكبتها في تلافيف دماغها ،لأنها تخجل أن تبدو ، فأحست بأنها حلوة مرحة مقدسة ، وقالت :

– سأكون ممتنة له الآن لو ألصق شفتيه بنهدي ، وسيكون عنف سروري أقوى من أن يحملني أقاومه ، فسأمسك الحلمة لشفتيه بكلتا يديّ ..

وتخيلت نفسها تفعل ذلك فعرفت ماهية شعورها حينذاك ، وهي تسكب عصير نفسها الساخن بين شفتيه .

ونخرت الأحصنة ثم انداربت إلى منعطف في الطريق لأن شبحاً ظهر لها .. وركض جوانيتو ليقول لجوزيف :

– هل أنت في طريقك إلى البيت يا سنيور ، أنا أنتظرك .

– لا ، لبعض الوقت .

– إذن سأظل انتظر يا سنيور ، إن بنجامين سكران .

– لقد خمّنت ذلك ، وقدّرت انه سيفعل .

– وقد سبقك على هذا الطريق يا سنيور ، فقد سمعته يغني ههنا منذ برهة قصيرة !. ووليم روماس سكران أيضاً ومبسوط و (مفرفش) ... ربما قتل أحداً هذه الليلة .

كان جوزيف يشد بيديه اللجم والأعنة بقوة إلى الوراء، والخيل تقفز الى الأمام تحاول الاندفاع . وصاح :

— غتش عن بنجامين يا جوانيتو ، سأكون مستعداً للرجوع إلى المزرعة خلال ساعتين .

وقفزت الخيل وغيّب جوانيتو الظلام .

أما الآن وقد انهارت أسوار اليزابيت ، فقد فكرت الفتاة مع نفسها قائلة :

— لا بد ان يحدثني بقلقه فأسرّي عنه .

لكن جوزيف ظل جالساً في مقعد القيادة جامداً يشعر بثقل يديه على الأعنة خشية انطلاق الأحصنة في العدو ، إذ كان يخشى ان يخص رفيقته في الكارة لأنها لم تتعود الخشونة مثله . وتراخت الخيل فسارت بخطوة عادية أقرب الى البطء ، وحينئذ تراخت قبضته على أعنتها . وسمع جوزيف صوت بنجامين :

— قف أيها السائق اللطيف ، يا بدرو ، يا روادرتي ، يا سيمون . .

كان ينـــادي بأسماء زبائنه من المكسيكيين الذين يقضي وإياهم الليل تحت نوافذ الصبايا .

فسحب جوزيف السوط من نقرته وضرب قفا الخيول بوحشية ، وشدّ بكل قواه كي يمنعها من الجماح ، وأدارها إلى أرض صخرية حتى كادت تخفي حوافرها ثم قال :

— لم أخبرك يا آنسة ان أخي سكّير مدمن ، ومن حقك ان تعرفي شيئاً عن عائلتي . فأخي سكير ، ولا أعني بذلك أنه يشرب كثيراً بين وقت واخر ، لا فهو مدمن . . في جسمه مرض للشراب ، فها أنت الآن قد عرفت . وهو ذلك الذي تسمعين غناءه .

وبكت اليزابيت ، فشعر جوزيف كأن سكاكين تمزق لحمه ، وقال :

— هل تودين أن أعود بك الى البيت الآن ؟

— نعم .

— وهل تريدين ان أبتعد عنك ؟

ولم تجب ...

— أقول هل تريدين ان أبتعد عن طريقك في الحياة ؟

— لا ، أنا سخيفة ، أريـد ان أذهب الى البيت لأنام ، فأتحقق من ماهية مشاعري وأفكاري . هذا كل ما أريدة بصراحة .

وشعر جوزيف بنشوة غامضة ، فمال على اليزابيت وقبّلها في وجنتها ثم ساط الخيل ثانية . ووصلا ، فساعدها على الهبوط ورافقها حتى الباب ، ثم قال :

— سأذهب للتفتيش عن أخي ، وسأعود بعد بضعة أيام ، تصبحين على خير !

ولم تنتظر اليزابيت لتشيعه ، فقـــد كانت في فراشها قبل أن تخفت قرقعة حوافر الخيل . كان قلبها يدق بعنف يهتز منه رأسها على المخدة ..

كان من الصعب أن تسمع شيئاً لطغيان وجيب قلبها ، ولكنها استطاعت أخيراً أن تميز الصوت الذي كانت بانتظاره .. جاء متهادياً نحو بيتها .. صوتاً مخموراً عذباً .

واستجمعت اليزابيت قواها الروحية لتقاوم الألم اللاهب الذي يصاحب ذلك الصوت ، فهمست لنفسها :

— انه فاسد ، لا نفع منه ، سكير ، أحمق ، وعليّ أن أقوم بأي شيء .. ولو كان ذلك تعويذة من السحر .

وانتظرت حتى قارب الصوت بيتها فقالت لنفسها :

— الآن يجب أن أقوم بما أنوي فهذه هي الفرصة الوحيدة .

وغطت رأسها بالمخدة وغمغمت هامسة :

— أنا أحب هذا الرجل الطروب ، مهما كان عديم النفع ، فأنا أحبه ، لم أرَ وجهه سابقاً ، وأحبه أكثر من كل شيء آخر .. ساعدني أيها السيد اليسوع أن أنال مطلبي ، أعني أن يكون لي هذا الرجل .

وانتظرت ترى تأثير رُقْيتها ، فامتلكها كره عميق نحو بنجامين ، احتقار

شديد ، كرامية متناهية ، حتى لرت فيها وعرفت أسنانها على مجرد الاحتفاظ بما وحفظت أعصابها ، فإنها تريد أن تذهب أطفارها في هذه .

ثم ذابت تلك الكرامية ، وزال أثرها ، وبعضه يبقى مرة ثانية فلم يترك شيئاً في نفسها أي أثر ، لا سبباً ولا كرامية .. أصبحت لا تبالي برجوعه على الأطلاق ، فقد صارت إنسانة أخرى تماماً ، فقالت :

— الآن يجب أن أتزوج بسرعة ، وإلا ...

٩

حل الشتاء وتبعته تباشير الربيع الجميل ثم عقبها خريف آخر قبل أن يتم الزواج. فقد كان على اليزابيت أن تطيل التفكير وأن تكون بطيئة في روحاتها وغدواتها الى الخياطات .

وكان جوزيف يذهب الى مدينة السيدة مرة في الاسبوع ، فيجلس في المقصورة المعهودة أو يتنزه معها في الكنارة . وسألها يوماً :

— متى نتزوج يا اليزابيت ؟

— عليّ أن أنهي سنة تعاقدي في المدرسة أولا ، وهناك مئات الأشياء التي يجب أن أقوم بها ، فأعود الى مونتري مدة قصيرة ، وطبعاً لا بد أن يراني أبي قبل ان أتزوج .

— هذا صحيح ، فستتغيرين بعد الزواج طبعاً .

— أعرف ذلك .

وشدّت بكل قوتها بأصابعها على رسغه وقالت :

— انظر يا جوزيف ، ما أصعب ان تحرك الاصبع الذي تريد تحريكه ، كذلك ينسى الانسان حياته السابقة .

فضحك جوزيف من طريقة تعبيرها عما تريد من أفكار ، فقالت :

— هل تظنني أخشى أن أتغير ؟ لا ، أنا اريد ذلك ، حسناً سيمتلىء جسمي

قليلاً ، وفي لحظة ساصبح اليزابيت جديدة ، تذكر اليزابيت الحالية كإحدى ذكرياتها .

— لا أدري ..

ووضع جوزيف اصبعه تحت طية في كتف بلوزتها ، وقال .

— ربما لن تتغيري أبداً .

واصطحبها في أحد الأيام إلى المزرعة وأشار لها بزهو قائلاً :

— ها هو البيت الذي نبنيه ، ولم يكن هنا غيره . ولا بيتاً واحداً على بعد أميال ، إلا هو وحيداً تحت البلوطة .

واتكأت اليزابيت على عرق البلوطة وطبطبت على ساقها ، وقالت :

— هنـاك مجلس طيب في الشجرة يا جوزيف ، هناك عنـــد التقاء الأفراع بالجذع . هل تسمح أن أتسلق الشجرة يا جوزيف ؟

ونظرت في عينيه فكانتا تحملقان فيها بذهول وعجب وسرور عظيم .

ووقف شعر حاجبيه ، وتمتمت اليزابيت لنفسها :

— حتى لو كان له جسد حصان لأحببته أكثر فأكثر .

ونهض جوزيف وقال :

— تسلقي البلوطة فأنا أريدك أن تفعلي ذلك ، وسأساعدك ، هيا ..

وقعّر راحتيه لقدمها وثبّتها حتى جلست في مجمع الافراع فوق البـاوطة ، ولما رأى مناسبة جسمها للمكان قال :

— أنا مسرور بك جداً يا اليزابيت .

— ذلك يبدو عليك حقاً ، فعيناك تفيضان بالسرور . فما هو سبب سرورك العظيم هذا ؟

— أشياء غريبـــة تسر الانسان أحياناً ، إنني مسرور لأنك تجلسين بين أفراع شجرتي ، فقد بدا لي قبل لحظات ان شجرتي تحبك ..

— ابتعد من تحتي قليلاً ، لكي أتسلق فرعاً فأرى ما بعد البايكة !

وأطاع جوزيف فانزاح جانباً وتسلقت اليزابيت أحد الافراع ..

— جوزيف .. أنا أعجب لماذا لم تسترع انتباهي تلك الغابة من الصنوبر ! أنا أشعر وكأنني في بيتي في مونتري حين أنظر اليها ، فقد وُلدت وسط غابة صنوبر ، سأراها عندما نذهب هناك لنتزوج ..

— هذه صنوبرات غريبة ، سآخذك اليها يوماً بعد زواجنا .

وهبطت اليزابيت من الشجرة باحتراس ورشاقة ، ثم ملست شعرها وهي تقف أمامه على الأرض وتقول :

— سأصعد هـــذه البلوطة كلما اشتقت إلى مونتري ، فأرى الصنوبر ، وهذا يكفي ..

١٠

تمّ زواج اليزابيت وجوزيف في كنيسة بروتستانتية عتيقة صغيرة في مونتيري ، وكانت الحفلة رزينة . فقد شهدت الكنيسة الأزواج الكثيرة من الرجال والشابات المكتملين النمو يدفنون أنفسهم عن طريق الزواج، فلم تشأ إلا ان تشارك في الأسى بطقوسها الجامدة التي تمّ عن امتعاض الكاهن بوظيفته أكثر من ابتهاج العروسين باكليلها .

كانت الموسيقى لا طعم لها ، ونظرت اليزابيت الى والدها فلم تلاحظ بركة في أصابعه الطرية المدبوغة .. فنظرت الى الرجل الواقف الى جانبها والذي يصبح زوجها لحظة فلحظة ، فراعها اشمئزازه من مسيحيتها ، وتجهمُ وجهه ، وهو يشد عظم فكّيه بصرامة . وفجأة تذكرت أمها . لو كانت موجودة لتقول:

« خذ اليك هذه اليزابيت ، وهي فتاة طيبة لأني أحبها ، وستكون لك زوجة مخلصة وطيبة في سلوكها إذا عرفتْ كيف ترضيك . أرجو ان تخلع عن نفسك هذا التجهم الذي يكسو وجهك فتعاملها بلطف ومودة يا جوزيف، فهذا كل ما أطلبه اليك وليس ذلك شيئاً عسير المنال » .

وفاضت دموع اليزابيت لهذه الذكرى فحدثت نفسها قائلة :

— سأكون حتماً عند حسن ظنك يا أمي ..

وفكرت:«يجب ان أصلي . ساعدني أيها السيد يسوع ، سهّل أموري لأنني

خائفة ، وقد حاولت دائماً ان أفهم نفسي فلم أستطع ، فاشفق عليّ يا يسوع حتى أعرف حقيقة من أنا على الأقل » . وودت لو كان هنالك صليب تتبرك بلمسه ، ولكن الكنيسة بروتستانتية ! وحاولت ان ترسم في مخيلتها صورة ليسوع ، فكانت صورة جوزيف بلحيته ورجولته .. ولكن بدون صرامة نظراته .

أما من ناحية جوزيف فقد فكر : « ثمة خبث في هذا المكان ، لماذا يجب ان نمر بكل هذه الإجراءات الحمقاء حتى يثبت زواجنا ؟ لقد كنت أظن أنه لا بد وان يكون في الكنيسة جمال الحياة ، لكنني لم أجد إلا نوعاً سخيفاً من عبادة الشيطان المملّة » . وشعر جوزيف بخيبة أمله في بيت الله وجماله . كما دهش من إصرار اليزابيت على ضرورة هذه المراسيم التافهة قبل أن تدخل في زوجيته .

وشدّت اليزابيت بذراعه قائلة: لقد انتهى كل شيء فاستدر تجاهي لنخرج. وساعدته في أن يندار ثم هبطا من أمام الكاهن ومرا بين المقـــاعد المخلعة الى الباب ، بينما دقت الجرسيّة في أعلى الكنيسة . وهزّ جوزيف كتفيه عند سماع الأجراس وقال :

— « ها هو الله قد جاء متأخراً إلى عرسنا » .

ربما كان جوزيف قام بالصلاة لو أنه يعرف الصلاة ، ولكنه قال : « هذا هو الزواج .. صوت الأجراس » . وتذكر صوت طبّاشات بقراته على السفح ، فأكمل حديثه : « إن الشمس تدق الأجراس في قبة السماء عند الشروق ، والمطر يدق أجراس الحيـــاة على صدر الأرض حين ينهمر ، والبرق يسوط ظهر الغيوم لتلقح .. تلك هي الأجراس ، تدقها الحياة ، أما غير أجراس الحيـــاة فحديد أصواته هراء » . ومال إلى اليزابيت وقال :

— الأجراس مقدسة وأنا أحبها يا اليزابيت ..

كان يفكر في أجراسه هو لا أجراس مسيحيتها .

ورفعت العروس نظرها الى وجهه. لم يكن قد تغيّر ، إنه صورة المسيح لولا رجولة زوجها . فضحكت من نفسها وقالت :

— « أنا أصلي إلى زوجي ! » .

وكان جريجوري مازحاً بمكر حينما قبل ابنته وهما يغادران الكنيسة فقال :

ـ لا تنسي أباك مع انه لن يكون عجيباً أن تفعلي ،فهذا شائع في هذه الأيام .

ـ ستأتي الى المزرعة تزورنا يا أبي ، ألن تفعل ؟

ـ أنا لا أزور أحداً ، وما المجاملات إلا ضعف فيه قليل من السرور .

ـ حسناً ، يسرنا أن تزورنا فترى بيت اليزابيت يا عمي .

ـ إذن عليك أن تنتظر طويلاً لأراك والـ ١٠٠٠ هكتار خاصتك في الجحيم قبل أن أزورك .

وبعد لحظة انتحى بجوزيف جانباً حيث صرح له :

ـ إنني أكرهك لأنك أقوى مني . أنا أحـــاول أن أتصرف مثلك في مونتري ، ولكنني لا أستطيع لأنني ضعيف .. كانت هذه مشكلتي مع اليزابيت والمجنونة أمها ، فقد عرفتا ضعفي فكرهتهما .

وشعر جوزيف بحب السرّاج فابتسم متودداً وقال :

ـ لا ، ليس ما تفعله الآن ضعفاً .

ـ أبداً ، إنه يدل على القوة ، إنني قوي بعقلي ولكنني لا أستطيع أن أتعلم كيف يجب أن تظهر قوتي تلك .

وملمّس جوزيف ذراع حميه وهو يقول :

ـ يسرّنا جداً أن نستقبلك عند زيارتك لنا .

وتقلصت شفتا جريجوري غضباً من فعلة جوزيف .

ركب جوزيف وعروسه القطار من مونتري الى كنج سيتي ، فمرّا بوادي سيلاناس ،وهناك شرح لها جمال الطبيعة ،وقوة اندفاع الريح في الوادي ،ونبّهها إلى جبروت الجبال الشاهقة ، وضخامة عروق أشجار الجميز والسنديان على سفوحها ، ورقّة انسياب الأودية وتنـــاغم خريرها مع نقيق الضفادع ، إلى غير ذلك ، بلهجته التي يعرفها وحسب طريقة تفكيره الخاصة . وتقبّلت اليزابيت كل ذلك بالرضى والغبطة ..

.. لقد كان قوياً ..

وغادروا القطار في كنج سيتي حيث أسرع جوزيف الى البايسكلة التي أودع فيها الخيل في قدرمه ، فوجد أحصنته وقد أبطرها الشعير والراحة طيلة غيابه أربعة أيام تتحفز الجماح . وبدا جوزيف ثقيلة على أعنتها كالجبل .

وشعر جوزيف واليزابيت بفرح الشيء الجديد ، فقد أصبحا زوجين حتى ولو لم يقتنع جوزيف بالطقوس . وكانا يرتديان ملابس جديدة ، وعلى وجه اليزابيت نقاب أزرق شفاف وفي يدها منشة الذباب تنفض بها غبار الطريق أيضاً ، كما تراكمت صناديق جهاز العرس الحديدية خلفها . كانت اليزابيت مرحة بعقلية معلمة تجد زوجاً ، وجوزيف مرح بقدر ما يسمح تجهمه الأصيل ، فقد أصبح الآن خصباً فكمل بذلك النسل في المزرعة ، في الدجاج ، والبقر ، والأفراس ، وزوجات اخوته .

وبعد بضعة أميال من السير شاهد العروسان مجرى ذلك النهر الذي يمرُّ بمزرعتهما . كان صافياً رقراقاً ينساب الى شبه جرف واسع ثم يختفي ليعود الى الظهور ثانية على بعد عدة أميال . ففكر جوزيف : لا بد أنه يجري تحت سطح الأرض ، فلو حفرنا قليلاً لظهر الماء . وبالفعل رأى جوزيف نُقَراً في المسيل يترقرق فيها ماء النهر تحت الأرض ، وكان في بعضها عالياً .

وفك جوزيف ربطة عنقه ، وشدَّ زر قبة قميصه فتدحرج في الطريق ، ورمى قبعته على (عريش) الكارة وقال :

ـ اليوم قائظ يا ليزا ، فانزلي واغسلي رسغيك وارشقي وجهك تتبردين .

ولكن حياء العروس ، ودلاعة المعلمة لازمتا اليزابيت فقالت :

ـ أنا مرتاحة يا عزيزي ، سنتأخر قبل أن نصل البيت ، وأنا قلقة من أجل ذلك .

ربّت جوزيف على أقفية الخيل العريضة المكتنزة ، ثم جعلها تسير بمحاذاة النهر ، وكانت أغصان (البطم) تضرب رأسيها فتدبق ، وصراصير (مغني الصيف) ترسل نغماً قوياً يثقب الآذان ، والجنادب تتواثب في الهواء ثم تحط في

أمان بين الحشائش نصف الجافة ، فتخشخش . وينطلق أرنب بري أحمر الى شجيرة يختبىء في أرومتها ، ثم يأخذ يبصبص كأنه يتفرج على العروس .

أما الجو فقد امتلأ برائحة قشر الصفصاف ، المتسلخ ، وعطر النعناع المتحلق على المسيل ، والحشيش اليابس الذي كانت تشويه أشعة الشمس .

واتكأ جوزيف واليزابيت على ظهر مقعدهما في الكارة ، وأخذهما شبه نعاس ، وذلك من تأثير القيظ ووقع حوافر الخيل.. لم يناما ، ولكنهما لم يكونا صاحيين ايضاً ، فقد وقعا في حالة عميقة من أحلام اليقظة .

كان الوقت عصراً . ومرّا بوادٍ عميق بين سلسلتين من الجبال تضيقان عليه كأنما تودّان خنقه ، وقد ظهر النهر مستقيماً يوازي حضيض الجبل كأنه جرح من أثر سرج غير متقن الصنع في ظهر حصان ، لكنه قد اندمل فترك ندبة بيضاء مستقيمة . وكان العوسج يتعلق على حواف الصخور القريبة من الماء كأنه يخشى أن تدفعه الى الماء وهو لا يتقن السباحة ، والصخور الجيرية في الطريق تدبّ عليها الخيل فتزكم رائحتها الانوف ، والشمس قد أشارت الى نقطة مغيبها .

نفض جوزيف عن نفسه شبه الكرى الذي لازمه ثم وكز عروسه ، ولكن بأقل عنف اعتادت عليه قبضته ، وقال :

— اليزابيت ، نحن نقترب من الممر .

ففكّت عقدة نقابها من تحت ذقنها وجللت به قبعتها ، واستعادت عيناها اتساعهما ببطء ثم قالت :

— لا بد انني كنت نائمة .

— وأنا أيضاً ، كانت عيناي مفتوحتين وأنا نائم ، ولكن ها هو الممر .

كان الجبل قد تصدّع في ذلك المكان ، ومالت صخرتان عملاقتان من الصخور الجيرية فالتقتا في منتصف الطريق تشكلان قوساً جوفه فارغ يسيل فيه النهر ، وتتدلى منها بروزات واطئة تكاد تلامس رأس الفارس . ثم انهار قسم من سفح أحد الجبلين تاركاً منحدراً يكاد يكون عمودياً . فأصبح ضرورياً ان تخوض

الخيل في النهر إذا لم تدر حول الجبل بكامله . ولما كانت الكارة مع جوزيف فقد تعذر الحل الأخير .

أوقف جوزيف الأحصنة قليلاً ثم تركها تسير ببطء، فيما وقد على فرملة هي عبارة عن قطعة سميكة من الخشب ، تضيّق على الدواليب فتدور بصعوبة بعد أن تكشط سطحها ، وأخذ يقترب من الماء قليلاً قليلاً .

كان يشعر بشيء من السرور لعبور النهر ، ففي ذلك مهارة وانتصار . ونظر الى اليزابيت علّه يجد في وجهها مثله ، فقابله منها فزع شديد ورعب شحب منه لونها . وصاحت :

— أريدك أن تقف يا عزيزي .. أنا خائفة .

فجذب الخيل ، وأحكم فرملة الوقف ، ونظر اليها متسائلاً . فقالت :

— لم أكن اعرف ، هل هـــذه هي الطريق الضيقة التي تحتها واد سحيق فيه نهر ؟

— لا . ليست هذه .

وقفز الى الأرض ومدّ لها يده ، ولكنه عندما حاول أن يسير بها الى الممر كانت ترتجف فزعاً ، وتقف وتصطك ساقاها .

وفكر جوزيف « يجب أن أقول لها ، فلم أفعل ذلك من قبل ، ويبدو أنـه شيء صعب ، ولكنني مضطر أن اقوله » . وجرّب بعقله الطريقة التي يجب أن يعبر بها عمـــا أراد ، فقال هكذا : « لقد فكرت دون كلام » ولكنه استبعد صواب هـــذا الاستهلال فجرّب آخر « لقد أخبرني رجل عن شيء غير معقول وفكرتُ فيه ، اسمعي يا اليزابيت .. يمكن أن يكون المسيح مصلوباً والمسامير في يديه أكثر من رمز لجميع الآلام ، إذ يمكن حقاً أن يجمع كل الآلام ، ولكن رجلاً يقف على قمة هضبة وذراعاه ممدودتان هو رمز للرمز، وهو أيضاً يمكن أن يكون مجمعاً لكل آلام الدنيا » .

وقطعت صورتها وهي تقول : « جوزيف أنا خائفة » عليه تفكيرَه لحظة ،

ثم تابع « لا تخافي يا اليزابيت . لقد أخبرتك انني فكرت دون كلمات فدعيني الآن أتعثر بين مقاطع الألفاظ ، فهذه فسحة بين الحقيقة العادية والحقيقة الصافية دون ان تشوهها العواطف . هنا الحد ، لقد تزوجنا أمس في الكنيسة ولكن ذلك لم يكن زواجاً حقيقياً ، والآن هو زواجنا ، عبر هذا الممر فندخله كأننا الحوّين المنوي يلقح البويضة فيصبحان جرثومة الحبل . هذا هو رمز الحقيقة دون تشويه ، ففي عقلي شعور لم يسبق ان طرقه ، ويختلف عنه في أية لحظة اخرى . من حيث طول مدته ، وطبيعته . هذا هو الزواج . إنه ما تحويه هذه اللحظة . وحدث نفسه قائلاً :

(لقد حمل المسيح في جسده أثناء مدته القصيرة على الصليب كل آلام الحياة ومع ذلك لم تتشوه تلك الآلام) .

كان جوزيف قد حلّق به نجم فارتفع معه في أعالي السماء ، أما الآن فقد انزاحت عن كاهله التلال وأزالت عنه غيبوبته ووحدة نفسه ، فأصبحت يداه ثقيلتين ، قد انسابت منهما الحياة ، تتدليان كالأثقال مشدودتين الى كتفيه اللتين كادتا تنوءان بحملهما . ورأت اليزابيت فمه مندلق الشفة السفلى في عجز وقنوط وعينيه قد ذهب منهما البريق الحي فصاحت :

— جوزيف ، ماذا تريد ؟ ما الذي تطلب مني أن أفعله ؟

وحاول جوزيف مرتين أن يجيب ، ولكن ثقلاً في حلقه واحتباساً في لسانه أعجزاه . وأخيراً أفلح في أن يقول بصوت أجش مبحوح :

— أريد أن نعبر الممر .

— ولكنني أخاف ذلك ، لست أدري لماذا ، ولكنني أرتعد فرقاً .

وتخلص من نوبته فلف إحدى ثِقَلَيه حول خصرها كأن ذراعه حبل من الشعر وقال :

— لقد طرت يا اليزابيت ، وظللت مدة طويلة بعيداً عنك مستوحشاً . ويبدو

أن عبور هذا الممر يعني شيئاً بالنسبة إلي ، فأود أن أجتازه معك . ليس هنالك ما تخشين منه .

وانتفض جسدها وقالت :

— لا بأس . أجتازه معك ، لأن علي أن أجتازه ، ولكنني حتماً سأترك اليزابيت قبل عبوره ، أتركها تقف فتنظر الى اليزابيت الأخرى الجديدة في الجانب الآخر .

وتذكرت كيف أنها قدمت الشاي مرة لثلاث بنات في فناجين صغيرة فقلن: لقد أصبحنا سيدات الآن . فهكذا تتصرف السيدات . لقد تحولت البنات .

وتذكرت أيضاً كيف حاولت وهي في صغرها أن تمسك حلمة لعبتها بمنديل. فقالت :

— جوزيف ، إنه شيء شاق أن أكون إمرأة ، فأنا أخاف ذلك. وكل شيء فعلتُه أو فكرت فيه سيتخلف دون أن يعبر الممر ، حيث أغدو امرأة جديدة في الطرف الآخر من الممر ، كنت أظن أن ذلك سيأتي بالتدريج فإذا به سريع جداً الآن .

وتذكرت قول أمها لها :

« عندما تكبرين يا اليزابيت ستعرفين الأذى ، ولكنه سيكون أذى لن تزيله قبلة تلطف » .

« والآن يا جوزيف سأجتازه معك . لقد كان سلوكي جنونياً ، وعليك أن تتوقع جنوني أحياناً فاصبر عليّ » .

وفارق الثقل يد جوزيف حينئذ وانفك عقال ما كان يشلّه فأصبح جباراً كما هو .

وفارق الثقل جوزيف أيضاً ، فشدّ على خصرها بذراعه وهو يدفعها إلى الأمام قليلاً . وعرفت اليزابيت ، مع أن رأسها كان مائلاً ، كيف كان ينظر اليها جوزيف من فوق ، وأحست بذلك اللطف الذي بدا في عينيه .

وعبرا الممر ببطء فقال جوزيف :

— هنالك آلام أعمق من المسرات يا اليزابيت كمص روح النعناع الحارق الذي يلهب اللسان..ومرارة تحوّل العذراء إلى امرأة هي نشوة أكثر منها ألماً .

وتوقف عن الكلام وكانت دقات أكعاب حذائيهما على الطريق الصخري ترتفع وتنخفض تبعاً لموطىء أقدامهما . واستندت اليزابيت على ذراع زوجها ليقود خطوتها ، وحاولت أن تغلق رأسها فتطرد منه الأفكار لتغوص في الظلام إلا أنها سمعت وشوشة الماء حول عمود من الحجر في النهر وأحست بلسعة البرد في الجو .

وبعد قليل شعرت بدفء الهواء فقد اجتازا الطريق الصخري وانتهى عبور الممر ، واحمر جفناهما ثم اصفر باطنهما ، وجذبها جوزيف الى صدره قائلاً :

— الآن انتهينا ، لقد اجتزنا الممر يا اليزابيت .

ففتحت عينيها ونظرت الى الوادي المحصور بين سلسلتي الجبـــال ، وكانت أرضه تتراقص تحت أشعة الشمس ، والأشجار ، أجمات صغيرة من البلوط ، تتحرك بتأثير الريح عصر ذلك اليوم .

وأطلا على (مدينة السيدة) الصغيرة ، تتلامع بيوتها حمراء السطوح ، وخضراء الجدران حيث تتسلقها الدوالي . وقالت اليزابيت :

— لقد كنت نائمة ورأيت حلماً مزعجاً .

— إنسِ حلمكِ الآن .

ثم سكتَ لحظة وسألها :

— إذن ليس مراً أن تصبحي امرأة !

— ليس هنالك فرق بين الحالتين ، إذ يبدو أن الأشياء لا تتغير ، لم أشعر بجمال الوادي إلا هذه اللحظة .

— انتظري هنا ، سأعود فأجلب الخيل والكارة .

وعندما فارقهـــا ، بكت اليزابيت بحزن ، لأنها رأت بلتاً ترتدي تنورة قصيرة منشاة ، وطـا ضفيرتان من الشعر تتدليان على ظهرها ، كانت تقف على حافة الممر من الجهة المقابلة وتنظر اليها بقلق ، تقف على قدم واحـــدة ثم تنط فتبدو لاليزابيت كأنها تشمر بالنـــار تحت أقدامها ثم ركلت حجراً صغيراً في النهر . وشعرت اليزابيت بالعطف عليها لأن من المؤسف أن تكون لا زالت طفلة ، ففي الحياة مسرات جديدة ومجالات واسعة يجب أن تطرقها .

١١

عبر جوزيف النهر بالكارة، وناضل خوف أن تنقلب في النهر من جراء شكس الأحصنة او انزلاق نعالهـــا على الحجارة الملساء ، وأخيراً ساعد اليزابيت على الارتقاء الى جانبه وقال :

— سنخترق المدينة ، وسينظر كل من فيها الينا .

فعدّلت جلستها وأرخت نقاب وجهها ، وأمسكت منفضة الغبار بيدها .

وقرقر جوزيف يحث الخيل ، ثم أرخى لها العنان فشرعت تعدو ، وقال :

— هل تمانعين في ذلك ؟

— لا ، طبعاً ، يسرني ، ولكن يجب أن تكون جلستي لائقة ، والنـــاس يشاهدوننا .

— ربما لن ينظر احد .

— لا . سينظرون كلهم الينا ، أنا سأجعلهم يفعلون ذلك .

وسارت الكارة في الشارع الوحيد الطويل في المدينة الصغيرة، حيث تتجمع البيوت على جانب واحد من الطريق كأنها تطلب الدفء ، وكانت النساء يخرجن من بيوتهن ليتفرجن على العروس الجديدة ، ويلوحن براحاتهن السمينة ليخلعن على اليزابيت لقبها الجديد حين يحيين العروسين فيقلن :

— مبروك بالهنا يا سنيورة . بالرفاه والبنين وطول العمر .

وكانت اليزابيت تردّ عليهن التحية ملوحة بيدها بأبهة .

وفي طرف الشارع كان على الكارة أن تتوقف لتتقبل العروسان الهدايا ، تقف سيدة تلوّح بمنديلها وهي تغريه ، وتنفض جلاميها تطلب النجاة ، وبصوص مخوص يحمله كهل ، ويشق حفل صغير الإبلة أسمر الرأس والقوائم وأبيض الظهر والبطن ، وتمشي سخلة قد جعل لها شعرها ثوب المين الشريرة عن العروس ، وديك حبش يتطاول بعنقه الأحمر الأجرد وقد انثنى فوق رأسه عرف طويل .

وامتلأ مؤخر الكارة بالهدايا ، هدايا الفلاحين في الريف .

سرّ ذلك البزابيت واعتبرته بداية طيبة وطرازاً جديداً من تأثيث بيت الزوجية حتى وإن كانت لا تعرف كيف تعتني بالدواجن، وتخاف من الخنانيص.

ومدت يدها الى تحت ابط جوزيف فقرصته . وقالت :

ـ كان ذلك كأننا في عرض فخم، أرأيت كيف خرج الناس يتفرجون !

ونزع جوزيف قبعته ووضعهـــا في حجره ، وكان شعره قد رطبه العرق فتشابكت خصلاته وقال :

ـ الناس معنا طيبون ، أود أن نصل البيت بسرعة . هل يسرك ذلك ؟

ـ طبعاً يسرني .

وسكتت لتقول فجأة :

ـ هنالك لحظات يبدو فيها حب الناس والحياة دافئاً قوياً أقوى من الأسى.

وانذهل جوزيف من تغير اتجاه تفكير البزابيت فقال :

ـ كيف تفكرين على هذا الشكل يا عزيزتي ؟

ولم يسبق له أن استعمل معها هذا اللطف ، فضحكت عيناها وقالت :

ـ لا أدري ، وإنما أعتقد انه صحيح .

كنت أفكر في هذا الأمر قبل لحظات وبدا لي ان هنالك وقتاً يتحد فيـه الناس والجبال والأرض وكل شيء عدا النجوم، فتصبح كلا واحداً، ويصبح هذا الكل المتحد عنيفاً عميقاً أكثر من أحزان البشر .

ـ إذن استثنيت النجوم ؟

– نعم، النجوم غريبة دائماً ، وتكون شريرة أحياناً ، ولكنها دائماً غريبة. سمّي (الطيّون) يا اليزابيت فهذا فأل حسن عند الرجوع الى البيت .

ورفعت نقابها ، وتنفست شهيقاً طويلاً فيه رائحة الطيون . كانت شجيرات الجميز قد أخذ يصفر ورقها ، وقد تساقط بعض أوراقها العريضة على الأرض .

وقال جوزيف :

– سيكون الوقت منتصف الليل عندما نصل .

ولم تجب اليزابيت ، واستمرت تستنشق روائح الغابة ، منها العطري ومنها الحاد الذي يثير الخياشيم فيضطر المرء الى ان يعطس .

ورقّ الهواء في المساء وامتلأ الجو بالرطوبة ، وبدت الجبال صلبة كالبلور ، وصار الوقت يدعو الى الخدر والارتخاء في شبه نوم لذيذ . وحلّقت أفكار جوزيف ، فصوّر لنفسه قمم الجبال كما يشاء ، ورأى على إحداها سحابة ضخمة تتدافع من المحيط، ثم تشكلت تلك السحابة في عينيه فتجسدت رأس شاة من الماعز بان له قرناها المعقفان ، وتأكد أن عينيها الصفراوين المنحرفتين تنظران اليه نظرة فيها حكمة وفيها سخرية واستهزاء وقال :

– أنا متأكد من ان الشاة موجودة حقاً هناك ، تستند بذقنها على قمة الجبل وتنظر الى مسيل الماء في الوادي ، فقد سمعت بذلك او قرأته ، لا أدري ، ولكنه يتراءى لي ان شاة تخرج من المحيط شيء معقول سبق أن عرفته .

كان جوزيف لديه الموهبة أن يخلق من خياله أشياءً ثم يخلع عليها الحياة فتصبح حقيقية كالأرض . وقال في سرّه :

– إذا اقتنعت بأن الشاة هناك ، فهي هناك حقاً ، وهذه الشاة تعني شيئاً يهمني .

وطار سرب من الطيور فوق رأسيهما ، ثم صفقت بومة جناحيها وأخرجت نعيباً فيه رزانة من تجارب الدهور .

وفكر جوزيف :

– يجب أن أقبل بوجود الشاة على الجبل، فلا أهينها بعدم تصديق وجودها.

وارتجفت الیزابیت قلیلاً ، فالتفت الیها وقال :

— هل تشعرین بالبرد ؟ سأحضر لك إحدى بطانیات الأحصنة وأفرشها على ركبتیك .

— لست أشعر بالبرد ، ولكني خائفة ، فهذا جد غریب في نوعه ، أرید أن تحدثني ، احسُّ بخطر أجهل ما هو یا جوزیف ، تكلم معي .

— ماذا تعنین بقولك ، خطر ؟

وأخذ یدیها المضمومتین فوضعها على ركبتیه .

— أعني أن هنالك خطر ضیاعنا ، فالنور هو حارسنا الوحید . لقد شعرت بأنني قد تحللت فأصبحت سحابة ارتفعت بین الغیوم في السماء ، وامتزجت بكل ما حولي من أشجار وجبـــال وتراب وماء النهر ، فأدركت انه لن یمكنني أن أعود الى الیزابیت مرة اخرى .

— لیس هذا إلا من أثر المساء في البریة ، لا تخافي ، ویبـدو أن المساء یؤثر على كل الأشیاء الحیـــة . هل لاحظتِ كیف تتصرف الطیور او الحیوانات وقت المساء ؟

— لا .

واندارت الیزابیت نحوه ، لأن كلامه معها بدا لها نوعاً من الاتصال النفسي لم تعرفه من قبل ، ثم تابعت :

— لم یسبق لي أن تعمّقت في ملاحظة أي شيء على الإطلاق طیلة حیاتي قبل عبور الممر یا جوزیف ، ویخیَّل إليَّ فیهذه اللحظة أن عدسات عیني قد جُلیت من جدید . قل لي ماذا تفعل الحیوانات في المساء ؟

— لا أدري ، أقصد ، أدري ولكنني یجب أن أفكر .. فإن هـذه الأشیاء لا تكون أحیاناً في متناول التفكیر ، كما تعرفین .

وسكت جوزیف وأخذ ینظر الى غیاهب الظلام كأنه یستقرىء مجاهلها . ثم قال :

— الأمر هكذا . لماذا تسكن الحيوانات تماماً لحظة الغروب ، فلا ترمش وإنما تشطح وتحلم .

وأصابها الذهول من صدق ما تسمع فقالت :

— أتذكر شيئاً مثل هذا لا أدري أين لاحظته ، ولكن كما قلت لي الآن .. إن هذا بتأثير الوقت ، وصورة الوقت ، وصورة الوقت هذه مهمة في نظري .

— ماذا ؟

— تذكرت .. تستقيم أذناب القطط وتسكن تماماً وهي تأكل .

— صحيح . أعرف ذلك .

— وهو الوقت الوحيد الذي تستقيم فيه ، كما أنـــه الوقت الوحيد الذي تسكن فيه تماماً .

وضحكت بمرح بعـــد أن قالت ما اعتبرته مجرد جنون من كلام المجانين . وفطنت الى أن جوزيف يمكن أن يحمل ذلك على أنه انتقاد لاذع لمـا يعتقده من أحلام الحيوانات وسرها ذلك .

وقال :

— سنرتقي الهضبة ثم نهبط الى الوادي عبر غابة نامية فتبدو أمامنا مروج فسيحة نصل بعدها الى المزرعة ، وتحت البلوطة الكبيرة يقوم بيتنا كما تعرفين .

وألصقت الميزابيث جسدها الى جانب جوزيف ، وقالت :

— الخيل تعرف الطريق يا جوزيف ، فهل تشمها ؟

— هي تراها يا عزيزتي ، فالظلام علينا فقط ، أما بالنسبة لها فلا زال الوقت شفقاً . وعلى كل سنرتقي هذا التل بعد قليل فنرى الشفق ثم نسير الى المزرعة .

وبعد ساعة كانت الكارة في أعلى التل وأخذت تنحدر فيسمع لهاثها رتيباً منتظماً ، ولاحت بعض الفوانيس في المرج فقال جوزيف :

— هاك الضوء ، فإخوتي ينتظرون قدومنا ، حيث لم أخبرهم بوقت وصولنا عندما غادرتهم الى مونتيري ، ولكنهم يبدو أنهم ضمنوا ذلك .

وأشار الى فانوس يتحرك حامله وقال :

— وأعتقد أن ذلك الفارس مع توماس الذي خرج يقصد البايكة ليتفقد الخيل .

وتغير الجو فهبت الريح منعشة فيها برودة ، وقال جوزيف :

— هنالك شر هذه الليلة ، هكذا تنبئني الريح .

— ماذا تقول ؟

— ان تغيراً مفاجئاً سيحدث في الطقس ، فالعاصفة تقترب .

واشتد هبوب الريح وحملت الى آذانهم عواء كلب من بعيد ، فقال جوزيف :

— انه كلب بنجامين ، لقد هبط سيده المدينة ، ومن عادته أن يظل ينبح طيلة غياب سيده . وطرق مسامعهما خبطات قوائم حصان على الأرض اللينة ، وأوجس جوزيف خيفة فقال :

— هناك شخص يقترب ، ربما كان بنجامين ، وسأمنعه إن قدرت .

وزاد اقتراب الحركة وانبعث صوت نحيف يقول :

— سنيور ، هل أنت دون جوزيف ؟

— نعم يا جوانيتو ، ما هي القضية ؟ ماذا تريد ؟

ومرق الحصان ، ولا زال الصوت النحيف يقول :

— ستحتاجني بعد لحظات يا سنيور ، وسأنتظرك بالقرب من الصخرة ، بين الصنوبر . لم أكن أعرف يا سنيور ، أقسم على ذلك .

وظلا جوزيف واليزابيث يسمعان وقع حوافر حصان جوانيتو ، وهي تتسلق التل في سرعة ونفاذ . وانشغل بال جوزيف فساط الخيل ، وأخذت تخب . وحاولت اليزابيت أن تستطلع الخبر من تعابير ملامح زوجها ، فلم تستطع .

كانت يداه ترتفعان وتنخفضان ، وهو يشد اللجم بعزم لئلا تنطلق الخيل فتخض العروس التي لم تتعود شظف الحياة ، وكانت إطارات العجلات الحديدية تقرع أحجار الطريق ، وقال :

— لا أدري ما هي المسألة ، ولكنني أعرف ان هذه الليلة ليلة شر .

ووصلا المرج فعدت الأحصنة ، وقد ثبّتت اليزابيت نفسها بأن أمسكت بوتد إلى جانبها بكلتا يديها ، وأصبح بإمكانها أن يشاهدا البيوت الآن ثم استقرا في باحة الدار تحت البلوطة ، وجاء توماس ليقول :

— رأيتك مسرعاً جداً يا جوزيف .

وقفز جوزيف من مقعده وقال :

— ما الذي حدث ، لقد لمحت جوانيتو في الطريق .

وفك توماس لجم الخيل ، ثم أخذ يحل الحبال التي تشدها إلى الكارة من على أكتافها وقال :

— كنا نعرف أنه لا بد أن يحدث ذلك يوماً ما ، لقد بحثنا ذلك مرة .

وظهرت راما من الظلام وقالت :

— اليزابيت ، أظن من الأفضل أن تأتي معي .

— ولكن ما الخبر يا راما ؟

— تعالي معي ، وأنا أحدثك بالأمر .

فنظرت اليزابيت إلى جوزيف تسأله فقال :

— اذهبي معها ، رافقيها الى البيت .

وخفض توماس (عريش) الكارة ، ثم نزع العدة عن الخيل وقال :

— سأتركها ههنا لحظة لتلتقط أنفاسها .

ورمى العدة على السياج ، ونظر بشبه اعتذار إلى جوزيف وقال :

— والآن تعالي معي .

كان جوزيف قـــد طال عليه الوقت وهو يثبت بصره على الفانوس ، فمشى الآن مع أخيه الأكبر وقال :

— الأمر يتعلق ببنجامين طبعاً ، فهل لحقه أذى ؟

— لقد قُتِل ، ومات منذ ساعتين تقريباً .

ودخل توماس وجوزيف بيت بنجامين المتواضع ، ليجدا في غرفـــة نوما

فانوساً خافي الضوء يُظهر نوره الضئيل شخصاً ممدداً وكان جثة هامدة ، وقد تمكر وجهه واربدّت ملامحه ، وزمّ شفتيه كناية عن الألم العظيم ، فقال توماس :

— سيصفو وجهه بعد قليل .

وجالت عينا جوزيف في المكان فرأى سكيناً عريضة ملقـــاة الى جانب القتيل ، قد تلطخ نصلها بالدم المتخثر الجامد . ولم يشعر جوزيف بالغضب ، بل سيطر عليه هدوء غريب ، وامتلأت روحه بحب الخير ، وقال :

— جوانيتو ؟

فأمسك توماس السكين بقصد أن يناولها لأخيه ، ولكن يد جوزيف لم تمتد ، ورفض بذلك أن يمسها ، فأعادها توماس الى موضعها وقال :

— نعم ، وقد طعنه من الخلف .

ثم أضاف :

— لقد ذهب جوانيتو الى المدينة ليحضر منشار قرون يقص بهـا قرني ذلك الثور اللعين ذي القرنين الكبيرين ، ولكنه فعل ذلك احتيالاً ، وقتل بنجامين .

وأبعد جوزيف نظره عن الفراش وقال :

— دعنا نلقي عليه غطاء ، لقـــد قابلني جوانيتو ، وهو يقسم أنه لم يكن يعرف من طعن .

وضحك توماس وقال :

— وكيف يمكنه أن يعرف ؟ لم يرَ وجهه ، لقد رأى الوضع الشائن فطعن ، وكان يود أن يسلّم نفسه فطلبت اليه أن ينتظر ، إذ ان المحاكمة ستكون في غير صالحنا حتماً .

— هل ترى أن علينـــا أن نستقبل محققاً وقصاص أثر ؟ هل غيرت شيئاً أو لامست أثراً ؟

— طبعاً ، نقلنا الجثة الى البيت ، ورفعنا سرواله الى خصره .

وانتقلت يد جوزيف الى لحيته وأخذ يربت شعراتها ثم قال :

— وأين زوجته جني ، الآن ؟

— أخذها بيرتون معه الى بيته ، وهو يصلي معها الآن ، وقد كانت تصرخ باكية عندما غادرت بيتها ، ولا بد أنها في هستيريا .

— حسناً ، أرسلها الى بيت أهلها في الشرق ، فلن تستطيع الحياة هنا بعد الآن . واركب لتبلغ عن الحادث يا توماس ، قل ان ذلك حدث قضاء وقدراً ، ولربما لا يجري تحقيق في الأمر حينئذ .

واستدار جوزيف فجأة وهو يربت براحته على يد بنجامين القتيل قبل أن يغادر البيت . ثم قصد شجرته فوقف تحتها ونظر من بين أفراعها فلاحت له مجموعة من النجوم ، بدت قاتمة اللون بفعل الضباب الذي يكاد يسترها . وتسلق جوزيف الشجرة واقتعد مجمع أفراعها وأسند خده الى لحائها الغليظ البارد وقال:

— مات بنجامين .

وفكر .. وكان يعرف ان أفكاره ربما سمعها الغير وهو يقول :

— « الآن عرفت ما هي البركة التي منحني إياها والدي ، يتهيأ لي أنني أعرف العبء الملقى على عاتقي . فبيرتون وتوماس مطلقا الحرية ، وأنا الوحيد المقيد . أنا المحصور المضيَّق عليّ ، أنا الذي يخنقني قمقم البركة . حتى الحظ لا خيره ولا شره يؤثر عليّ ، ولا أستطيع التمييز بين الحق والباطل ، ليس عندي مجرد شعور بالألم أو اللذة ، فقد اتحدت كل هذه الأشياء وأصبحت مني » .

ونظر الى البيت الذي جاء منه ، فكان فانوسه قد انطفأ . ونبح كلب بنجامين ثانية فسمعت ذلك بنات آوى وأخذت تعوي .

ولف جوزيف ذراعيه حول جذع البلوطة يضمها الى صدره وقال :

— لقد مات بنجامين ، ولست آسفاً أو مسروراً ، فلا داعي لديَّ في أن أكون هذا أو ذاك . الآن عرفتك يا والدي ، كيف كنت منطوياً وحيداً هادئاً لأنه لا يهزك شيء .

ونزل من على الشجرة وقرأ على مسامعها تقريره مرة أخرى .

— لقد مات بنجامين يا سيدي ، ولو كان باستطاعتي أن أرد عنه الموت لما فعلت ، فليس هنالك ما أحتاجه لأرضي .

ومن ثم اتجه جوزيف الى البابيكة ليسرج حصاناً يلحق عليه بجوانيتو ، لأن الأخير لا بد ينتظره عند الصخرة .

- ١٢ -

قادت راما ضيفتها اليزابيت عبر باحة الدار وقالت :

- لا حاجة بك لأن تصرخي وتبكي ، فالقتيل غريب لديك لا تعرفينه . وهو لن يقلقك في محاولة سلوانه ، وأعدك بأنك لن تريه فيما بعد ، فلا حاجة إذن لذرف الدموع .

وصعدت بها درجات من خشب إلى غرفة الجلوس في بيت ثوماس حيث رأت اليزابيت كراسي هزازة قد بُطن ظهرها باللباد ، وشمعدانات من الخزف منقوشة بالورد. وحتى طراحات الجلوس كانت أغطيتها من ملابس راما الداخلية الهفهافة. وقالت اليزابيت إلى راما :

— إن منزلك مريح للغاية .

وأخذت تنظر إلى حاجبيها ، يكادان يقترنان ، والى وجهها العريض المنبسط ، وشعرها الغزير الناعم يهاجم جبهتها . وأجابت هذه :

— أنا الذي جعلته . وآمل أن تجعلي منزلك كذلك .

كانت راما قد ارتدت للمناسبة تنورة سوداء ضيقة من التافتا يخشخش قماشها كلما تحركت ، وعلقت حول عنقها سلسلة من الفضة تتدلى منها مدالية من العاج كان أحد البحارة القدماء قد جلبها معه من جزر الهند في المحيط . وجلست

على ذكرى مزار ، وحدث أصابعها الطويلة الخليطة على وركتيها كما يفعل عازف البيانو وقالت :

— إجلسي ، عليك أن تنتظري بعض الوقت .

وشعرت اليزابيت بطغيان جاذبية راما ، وعرفت أنها ستقاومه ، ولكنه سَرها وجود مثل هـــذه المرأة الواثقة بنفسها إلى جانبها . وجلست اليزابيت بلطف وضمت يديها في حجرها ثم قالت :

— لم تخبريني ماذا حدث الليلة ؟

فابتسمت راما وأجابت :

— أيتها الصبية الطيبة ، لقد وصلتِ في وقت مشؤوم . لقد طُعن بنجامين من الخلف هذه الليلة فمات بعد طعنه بعشر دقائق وسيدفن خلال هذين اليومين .

ونظرت الى اليزابيت وابتسمت كمن يعرف كل دقائق القضية وتفاصيلهـا ثم تابعت :

— اسألي ما شئت هذه الليلة ، فقد أصابنا مسّ ولم نعدْ أنفسنا السابقة ، فإن مصيبة من هذا النوع تشل طبيعتنا الحقيقية لمدة من الوقت . اسألي ما شئت فقد أستشعر بالندم والخجل من الخوض في هذا الحديث ، وعندما ندفنه لن نعود نذكره إلى الأبد ، وبعد سنة لن نتذكر أنه قد عاش من قبل .

كانت اليزابيت مصغية ،ولم يتفق في مخيلتها ما وجدته مع ما سبق أن رسمته من صور لاستقبالها في بيتها الجديد حيث يسلّم عليها أفراد العشيرة ويباركون لها فرحها ، إلى غير ذلك مما قرأت عنه في الكتب أو سمعت به من أعراس أهل مونتيري .

وتخيلت حينئذ أنها تنظر إلى بركة صافية تتقاتل في مياهها ثعابين البحر . فقالت مستدركة لتعود إلى حيث هي :

— ولماذا طعن بنجامين ؟ لقد سمعتُ أن جوانيتو هو الذي طعنه .

وطافت بسمة مودة على شفتي راما وقالت :

ـــولم لا يكون ذلك؟فقد كان بنجامين لصاً،لم تكن مسروقاته ضرورية له، فقد كان يسرق عفة الفتيات . وكان من عادته أن يسكر قبل أن يسرق حزمة من الموت ، وكما ترين أنه قد فعل . كان لا بد أن يحدث مثل هـذا يا اليزابيت ، فالمثل يقول : إذا رميت حفنة من الفاصوليا على كشتبان مقلوب ، فإن حبة لا بد ان تدخل فيه . وهل فهمت الآن ؟

لقد جاء جوانيتو فوجد اللص في غمرة العمل ، لقد كنا جميعاً نحب بنجامين وليس هنالك بون واسع بين احتقار الشيء ومحبته .

وشعرت اليزابيت بضآلتها أمام قوة شخصية رامـــا ، وودت تغيير جو الحديث فقالت :

ـ لقد سافرت مسافة طويلة ، ولم أتغدّ ، أو حتى أغسل وجهي من غبار الطريق .

وارتجفت شفتاها حين تذكرت الآلام التي عانتها واحداً واحداً ! ورقت نظرات راما وعرفت في وجه اليزابيت مشاعر العروس بعـد ليلتها الأولى . وقالت هذه :

ـ وأين جوزيف ، إنها ليلتنا الأولى في بيتنا ، وها هو قد ذهب ، لم أشرب حتى قطرة واحدة من الماء .

ـ أيتها الفتـاة العاقلة ، أنا متأسفة من أجلك ، تعالي الى المطبخ. سأعدّ لك شاياً وأشرّح بعض الخبز واللحم فكلي .

وارتفع حسيس المـاء المغلي في إبريق الشاي ، وطقت السكين تشرّح اللحم على خشب الطاولة ، ثم قالت مضيفتها :

ـ تعالي الى غرفة الجلوس الآن ، وهناك تتناولين عشاءك في راحة .

واتخذت راما مقعدها وقالت وهي تنظر الى اليزابيت تلتهم الشطائر بنهم :

ـ أنت مليحة ،لم أكن أعتقد أن جوزيف يحسن انتقاء عروس حلوة هكذا.

وقررت ومضت اليزابيت خجلاً وقالت :

— ماذا تعنين ؟ إن جوزيف يستحق الاشفاق عليه .

وضحكت راما من غيرة اليزابيت على فوق زوجها وقالت :

— لم أكن أعرفه بمقدار ما كنت أعتقد أنني أعرفه ، فقد كنت أظن أنه سينتقي زوجة بنفس المعايير التي ينتقي بها بقرة تتوفر فيها ميزات البقرة الجيدة . ربما كان انساناً أكثر مما ظننته .

وأصبح صوتها أجشّ وتخللت أصابعها شعرها بحدة . وقالت اليزابيت :

— طبعاً ان فيه رقة . . ولست أدري ماذا يبدو عليه حتى يجعلك تقولين أنه ليس كذلك .

وعاودها منظره قبل عبور الممر ، ومنظر الممر نفسه ، فاستشعرت الخوف ، ولكنها أقصت الذكرى عن خيالها حينما سمعت راما تقول :

— لا ، إن جوزيف أقل رجل في الوجود معرفة بقيمة نفسه . أنت لا تعرفين هذا الرجل يا اليزابيت ، فسأخبرك عنه ، لا لأخوّفك منه بل لكي لا تخافي حين تعرفينه على حقيقته إذا استطعت معرفته .

وانعكس عمق تفكير راما على بياض عينيها ، ثم قالت :

— يبدو لي أنك تودين خلق الأعذار لزوجك يا اليزابيت ، فتقولين انه طفل يحلم . ليس جوزيف طفلاً أبداً ، ولن تستطيعي أن تعرفي أحلامه حين يحلم .

وانتفضت اليزابيت غضباً وقالت :

— ما الذي تخبرينني ؟ لقد دخل بي ، وتودّين أن تجعليه غريباً في نظري ! أنا أفهمه يا راما . لو لم أكن أفهمه لما تزوجته . .

ولم تفعل راما إلا أن ابتسمت وقالت :

— لا تخافي يا اليزابيت ، فقد سبق أن رأيت منه أشياء من قبل ، وهو لا فظاظة فيه ويمكنك أن تعبديه دون الخوف من أن تضحي بنفسك من أجله .

واستعادت ذاكرةُ اليزابيت صورة زواجها حين اختلط عليهـــا الأمر بين صورة المسيح ووجه عريسها ، فقالت بنبرة عالية :

ــ لا أدري ماذا تعنين يا راما ، أو لماذا اخترت كلمة (تعبدين). إن علمك يضايقني ، فقد سافرت طيلة النهـــار ، وها هي معاني الكلمات تتغير كما تتغير نفسيتي تدريجياً ، قولي : لماذا اخترت كلمة (تعبدين) ؟

فجرّت راما كرسيها حتى وضعت يديها على ركبة اليزابيت وقالت :

ــ هذا زمن عجيب . قلت لك منذ البداية ان باباً من السماء قد انفتح هـذه الليلة . فأصبحت الدنيا وكأنها أمسية كل روح أي عندما تنطلق الأشباح . وقد انفتح عليّ باب جديد لأن أخانا قـــد قتل ، وسأخبرك فيما فكرتُ فاكتمي السرّ . إذا أنني أقرأ أفكار الآخرين في عيونهم ظاهرةً كالظل في الماء .

وربتت راما على ركبة اليزابيت بلطف كأنها تود أن تكسب كلامها المقبل نوعاً من التناغم والاتساق . وأكملت :

ــ أنا أفهم الرجال . أفهم توماس الى درجة انني أقرأ الفكرة التي ستطرق ذهنه قبل أن تفعل ، وأعرف الشعور الذي يدفعه الى فعل شيء ما قبل أن تتحرك أطرافه . وبيرتون أعرفه حتى قرارة نفسه الهزيلة الخـــائرة . وبنجي كنت أعرف حلاوة روحه وكسله ، وكيف أنـه كان نادماً لكونه عاجزاً عن أن يكون غير بنجي .

وابتسمت برضى ، وتابعت :

ــ جاء بنجي ذات ليلة في غياب توماس ، وكان شارداً حزيناً ، فأبقيته بين ذراعي حتى الفجر تقريباً .

وتضخمت أصابعها وهي تثنيها كمن يضم الى صدرها شيئاً . وأكملت :

ــ لقد جربتهم جميعاً ، ولم تخطىء غريزتي مرة واحدة . أما جوزيف فلم أعرفه ولم أعرف أباه قبله . لا أدري اذا كان هنالك رجـــال يولدون خارج حدود الانسانية ، أو أن هنالك رجـالاً تبلغ رقتهم أن يجعلوا غيرهم مجرد خيالات ،

فلربما كان هنالك إله صغير يهبط ليعيش بين الناس بين فترة وأخرى . فقوة جوزيف أعظم من أن تقهر ، لأن له مثل ثبات شرايح الجبال ، وعواطفه متوحشة شرسة وحادة كالبرق ولا يمكن تمثيلها كما ينبغي لي. فكّري فيه وأنت بعيدة عن تأثيره وستجدين ما قلت لك صحيحاً . إذ ذاك يتضخم شخصه ويرتفع حتى يسامق الجبال ، وتعظم قوته حتى توازي عنوّ العاصفة . مات بنجي ، ولكنك لا تستطيعين أن تفكري في أن جوزيف سيموت . إنه أبدي خالد . ولقد مات أبوه ، ولكن موته لم يكن موتاً .

وُجفّ حلقها وهي تفتش عن الكلمة المواتية وقالت :

— ملخص ذلك ، أن جوزيف رجل ، ولكنه ليس كالرجال إلا اذا كان هو كل الرجال في واحد. فقوته ،وتصميمه ، وطول تفكيره وصوابه — نابعة من أنه كل صنف الرجال حقاً . وحتى مسرّاته وآلامه عظيمة ، وفي نفس المستوى لولا أن أحدهما يلغي الآخر . إن جوزيف رمز جبار لروح الأرض العاتية .

وخفضت راما بصرها وأبعدت يدها ثم قالت :

— لقد قلت لك ، ان باباً قد انفتح .

وفركت الزابيت ركبتها وقالت :

— أنا تعبة جداً ، فقد سافرنا طول النهار في أشعة الشمس القائظة على طريق وعرة . لا أدري إذا كانت الصيصان لا زالت حية ، أو أن الخنانيص قد داستها ، أو نطحتها السخلة . أعتقد أنهم أخذوها .

ومن الضروري أن تُفك عراقيبها وإلا انتفخت بفعل الأربطة .

ثم أخذت من صدرها منديلاً مخطت به أنفها ومسحته حتى احمرّ ولم تتطلع إلى راما وهي تقول بلهجة من يوجه الاتهام :

— أنت تحبين زوجي ، تحبينه ولكنك تخشين ذلك .

— لا . لا احبه ، فلا مجال للنكوص ، أنا أعبـــده ، ولن أتراجع أيضاً .

وأنت أيضاً ستحبينه ، ستعبدينه ، ولن تتأسفي على ذلك . والآن كما قلت لك، لا تخافي ، لا حاجة لذلك .

وحملقت في حجرها برهة ،ثم رفعت رأسها ونظرت فيعيني اليزابيت لتقول:

– انتهى كل شيء الآن ، فاذكريه في وقت الحاجة ، وعنـــدها يحين ذلك الوقت تعـالي إلي وسأساعدك . الآن اغلي الشاي مرة اخرى ، وحدثيني عن مونتيري . إيه ؟

– نعم ..

— ١٣ —

ذهب جوزيف إلى البـــايكة ، ومن ثم إلى الممر الطويل خلف الاسطبل ، فرفعت الخيل رؤوسها تجاهه كأنها تبارك عرسه أو تعزيه بفقدان أخيه. وهناك وجد توماس يسرج فرساً . فلما رآه الأخير قال :

— أظن من الأفضل أن آخذ المهرة (روني) معي فهي لا تزال طرية وركوبها يصلّبها ، كما أن خطواتها ثابتة في الظلام فهي حديدة البصر .

— خذ أياً تريد من المهاري . لفّقْ لكَ قصة في المخفر ، قل انه زلقت قدمه فوقع على سكين ، وحاولْ أن تنهي الموضوع دون أن يزورنا محقق وقصّاص . غداً ندفن بنجامين .

وابتسم جوزيف ابتسامة حزينة ثم قال :

— هـــا نحن نحفر أول قبر ، الآن بدأنا نستقر في وطننا الجديد ، فالوطن عبارة عن بيوت تُبنى وأطفال يولدون وقبور تُحفر . وقد توفرت هنا الثلاثة . أيُّ خيل الركوب موجود خلف الاسطبل يا توماس ؟

— لقد أطلقتها ، لأقلب الحشيش ،ولتروّض سيقانها بعد طول راحة. ولِمَ ؟ هل ستركب أحدها الليلة ؟

— نعم ، سآخذ واحدة .

— تطلب جوانيتو ؟ لن تجده في التلال المجاورة ، فهو يعرف المنطقة تماماً ، انه صديق كل ورقة حشيش وكل حُجر صغير قد تختبىء فيه الحية ، في المنطقة .

ردّ جوزيف ركابين إلى ظهر سرج ، وحمله من قرنه وقربوصه وقال :

— جوانيتو ينتظرني في الصنوبر .

— لا تذهب يا جوزيف هـذه الليلة . انتظر حتى غـد في النهار وخذ بندقيتك معك .

— ولماذا آخذ بندقية معي ؟

— لأنك لا تعرف ماذا يفعل . . فهؤلاء الهنود عجيبون يكتمون ما سيفعلون حتى عن أنفسهم .

— لن يطلق جوانيتو عليّ النار أبداً ، فأمري معه سهل ، ولن يتطلب ذلك.

وفكّ ثوماس رباط المهرة التعسة وركبها وخرج وهو يقول :

— على كل حال : انتظر حتى غد ، وسيظل جوانيتو منتظراً .

— لا . إنه ينتظرني الآن ، ولن أبقيه ينتظر طويلاً .

وسارت المهرة بثوماس بعد أن لكزها وقال :

— لا أزال أعتقد أن من الأفضل أن تأخذ معك بندقيتك .

وسمع جوزيف وقع حوافر (روني) في خبب أول الأمر ، ثم ابتعد ثوماس فلم يعد بإمكان جوزيف سمـــاعه ، وأسرج الحصان (باش) وركبه وسار نحو الصنوبر .

وبدا له الليل هـــادئاً ، والظلام أغبس غير حالك ، وغمره شعور بالرقة واللطف نحو الجبال والأرض والنهر والأشجار ، وبدت له قبـــة السماء كاملة الاستدارة تنفذ قمم أشجار الصنوبر إلى مركزها .

كان الليل قد شاخ والفجر على وشك الطلوع ، تهمس اليه أوراق الحشائش وبتلات الأزهار الثرية ، وتتنهد الأفنان متعجلة قدومه في نسيم الفجر العليل . وكانت أجنحة الطيور تصطفق وألحانها العذبة ناعمة فيها نشاط اليقظة ، بعضها يود الاستمتاع بميلاد يوم جديد . البوم يأوي إلى صومعته يتأمل نسكه في النهار المطلّ . وهبّت الريح فزكمت رائحة الصنوبر النفاذة خياشيم جوزيف . وتلذّذ الخيّال ، وشطّ به السرور بتلك المناظر والأحاسيس ، فكاد ينسى مهمة قدومه

عندما تجمّل التلال تفتح له ذراعيها في رقة وحنان ، ثم تضمّه إلى صدرها كما تفعل امرأة حنون .

ومدّ (باش) رأسه الضخم إلى الأمام وبدد هدوء خيالات فارسه بنخرة قوية ، وضرب بذنبه القوي على جانبيه وتراقص ، فتراشقت الحصى من قدح حوافره .

وكان في التلال أنوثة هادئة ، فتذكر جوزيف عروسه البرابيت وعامل نفسه عما تفعل العروس في ذلك الحين ، وأعجب ان راما ستعتني بأمرها في البيت .

كان جوزيف على مقربة من غابة الصنوبر حيث تشابكت أغصان البُطْم والسرّيس فسدّت عليه الطريق ، وحاول أن يتذكر الممر الذي أنقذه منه جوانيتو من قبل ، فأدار (باش) إلى اليمين ، ولكنه لم يجد ذلك المسرب .

وحاول أن يخترق بحصانه الشجيرات الملتفة ، ولكن باش ثبت قوائمه في الأرض بعناد ورفض أن يتقدم .. وأعمل جوزيف مهازيه ، فرفع باش قائمتيه الأماميتين وأخذ يتراجع إلى الوراء. وأرخى له جوزيف اللجام فحط قائمتيه على الأرض وأخذ يشخر كأنه يحتج بالرفض . ولكنه جوزيف مرة أخرى ، فاندار يود أن يقفل راجعاً. كان باش عنيداً هذه المرة فقط ، وشرساً في عناده أيضاً. مما أثار عجب جوزيف ، وحاول أن يدفعه إلى الأمام مرات . ولكن الحصان بدا عليه أنه يود المشاكسة ، ولو كانت جبال الدنيا على ظهره لما تزحزح من موضعه ، فترجّل جوزيف وقال :

— حسناً ، لا تود الذهاب ! إذن ابقَ هنا وانتظر. إن ثوماس يخاف مثلك.

وأطال عقاله بحيث يتمكن الحصان من الرعي إذا عنّ له.

وحدّد جوزيف بصره في طرف الغابة فرأى شبه مغارة كانت أشد ظلاماً من غيرها . فتمتم « ها هي فتحة الممر من هذا الطرف » . وقصدها جوزيف حيث سار في شبه دهليز من الشجر يزيح بيده الأغصان الشائكة عن وجهه ، وينقل خطواته بكل بطء واحتراس . ومع هذا فقد كان عرق هـذه الشجرة

يلطم كتفه أحياناً وشوكة تخز ركبته أخرى . كان الهدوء شاملاً اللهم إلا خرير جدول بعيد ، وأعالي الصنوبر تبرم في مهب الريح . وظل جوزيف يسير إلا أن سحابة من الخوف بدأت تلفّ نفسه ، ولم يطل ذلك فقد خفّ الظلام وأحس الرجل أن أمامه فضاء .. إذن قد انتهى الممر . وخطا جوزيف إلى الساحة الواسعة فوق طبقات كثيفة من الحشيش اليابس . واستولى عليه حينئذ شعور بالرهبة .. كان المكان رهيباً ، ولكن فيه قداسة تبعد الخوف الذليل ، وتجعل الرهبة إكباراً وتقديراً . ولاحت له الصخرة العاتية في منتصف الساحة سوداء أشد سواداً من ظلام الممر ، وعلى طرفها صرصور تضيء مؤخرته .

واتجه جوزيف صوب الصخرة ، ولما أن قاربها شعر بما يشعر به صبيّ يسير متجهاً إلى المذبح بين مقاعد كنيسة مقفرة ، وقد ثبت عينيه على صور القديسين خوف أن يخرج عليه أحدهم فيطير لبه ، أو تندّ صرخة من المسيح الذي تنزف دماؤه من الصليب فيُجن .

ولذا فقد مشى جوزيف في خط دائري وهو يحدق في الصخرة الغامضة الحبيبة . وفكر :

— لا بد أن شراً قريب من هنا ، الآن عرفت سبب عناد باش .

ونكص إلى عرق صنوبرة جلس تحتها واتكأ برفقه على أرومتها حيث بقي على حاله برهة من الزمن ، ثم أجفل حين سمع صوتاً .

— أنا هنا يا سنيور .

— لقد روّعتني يا جوانيتو .

— أعرف ذلك يا سنيور ، فالهدوء شامل ، وهو يخيم هنا دائماً ، ولربما يسمع المرء بعض الأصوات ولكنها تظل خارج نطاق الساحة تحاول النفاذ إلى داخلها.

وصمتا لحظة . وكان جوزيف يرى شبح جوانيتو شخصاً أسود لا يتبينه ، ثم قال :

— لقد طلبتَ إليّ المجيء يا جوانيتو ، فما هي قضيتك ؟

— نعم يا صديقي السنيور ، فلم أُرِدْ أن يفعل ذلك سواك .

— بفعل ماذا ؟ ماذا يريدني أن أفعل ؟

— ما يجب أن تفعل يا سنيور ، هل جاءت سكرينا ؟

— لا ، ليس معي سكين !.. قال ذلك مندهشاً .

— إذن أعطيك خاصتي ، وهي التي أستعملها في ذبح العجول . نعم ، إن نصلها قصير ولكنها تفي بالغرض إذا وُضعت في المكان الصحيح .

— ما الذي تتحدث عنه يا جوانيتو ؟

— إطعنْ بمرض النصل يا صديقي ، فتفقد السكين ما بين الضلوع ، وسأريك المكان ، وحينئذ تستقيم النصل حيث يجب .

— تعني .. أن أطعنك يا جوانيتو ؟!

— أنا الذي قتلت أخاك يا سنيور ، وأنت صديقي ، فيجب أن تكون عدوي الآن .

— لا ، يا جوانيتو ، هنالك خطأ .

وأطرق جوزيف صامتاً ، فقد هدأت الريح وران على الساحة سكون عميق لفّها كأنه ضباب كثيف . وبصوت خافت كأنه لا يود أن يزعج ذلك السكون الشامل ، قال جوزيف :

— في الأمر خطأ يا جوانيتو ، فلم تكن تعرف أنه كان أخي .

— كان الأجدر بي أن أنظر يا سنيور .

— وحتى لو نظرتَ يا جوانيتو ، فلن يؤثر ذلك . إن ما فعلته شيء طبيعي ، لقد قمت بما تتطلب منك طبيعتك ورجولتك ، وانتهى الأمر .

لم يكن جوزيف يبصر جوانيتو مع العلم أن خيوط الفجر قد بدأت تتسلل في الأفق .

— لا أفهم ما تقول يا سنيور ، إنه أقسى من الطعن ، حيث أعاني الألم لحظة ثم أنتهي ، فأرتاح أنا كما ترتاح أنت . إن معنى كلامك أن أظل سجين نفسي مدى الحياة .

كانت الصنوبرات ترتفع بين جوزيف وجوانيتو ، تقوم وكأنها شهود إثبات

على كليهما فيما تستمع اليه. ونظر جوزيف إلى الصخرة علّه يستمد القوة والمعرفة، وهو يستبين صلابتها الآن في حزمة النور النافذة من الأفق ، وقال :

— لا ، يا جوانيتو، ليس ما اريده عقاباً لك ، فلا أملك أن اعاقب أحداً ، ولربما عاقبت نفسك بنفسك إذا كان ذلك من طبائعك ، فتكون حينئذ تتصرف بما في طبعك تماماً كما يفعل البـاز حين يرى سرباً مجتمعاً من الطيور ، فهو يتجه نحوها بطبع كونه طائراً . أما أنا فلن اعاقبك .

وركض جوانيتو إلى الصخرة فغرف بيديه من ماء النهر وشربه وهو يقول :

— هذا الماء جيد ومبارك يا سنيور ، والهنود يأخذون منه ليسقوا مرضاهم، ويقولون انه ينبع من قلب العالم .

ومسح فمه بكمّه ، فسأله جوزيف :

— وماذا تنوي أن تفعل ؟

— ما تأمرني به يا سنيور .

فصرخ جوزيف :

— أنت تحمّلني كثيراً من شأنك يا جوانيتو . تصرّف كما تشاء .

— لقد رغبت اليك أن تقتلني يا صديقي .

— هل تعود الى العمل ؟

— لا . فذلك قريب جداً من قبر رجل لم يؤخذ بثأره، ولن أستطيع العمل هناك إلا بعـد أن ينحلّ اللحم عن العظم في التراب . سأرتحل مدة يا سنيور ، وعندما تبيضّ عظام الميت ، أعود ، حيث تزول ذكرى السكين مع زوال اللحم الذي انغرزت فيه .

وامتلأ قلب جوزيف حزناً وصدره أسى . وقال :

— إلى أين ترتحل يا جوانيتو ؟

— لست أدري ، سأصطحب وليم معي، وحيث نجد الخيل يطيب لنا المقام. وسأساعده في طرد أحلامه المزعجة عن النـــاس الذين يتخطفون أطرافه من شقوق الأرض .

وكان صوت قصير سمع جوزيف بعده جوافر تقول :

— حصاني قريب ، وسأعود فيما بعد يا سنيور .

وبعد لحظات سمع جوزيف وقع حوافر حصان يبتعد مبتعداً ، وظل جوزيف مكانه يفكر فيما سمعه عن ماء الينبوع (من قلب العالم) ، آه . وتذكر إعلان البطاريات الذي يقول (من قلب العالم) ، ثم انسحب وهو يكره أن يدير ظهره الى الصخرة . ووصل إلى حصانه فامتطاه وانحدر في طريقه الى المزرعة ، فكانت الغزلان تقف ترفع رؤوسها اليه لا تنفر .

وكان يشعر بابتهاج عظيم ، أما تحقق له أن روحه من روح الأرض ! وأطلق جوزيف العنان لحصانه ، إلا أنه تذكر ثوماس وتبليغه الحادث فامتعض لتلك الذكرى مع أنه حاول أن يرسم صورة بنجي في مخيلته ، فلم يستطع . لم يعد يعرف أحداً بهذا الاسم .. (كان وبان) .

- ١٤ -

كان حلول فصل الشتاء مبكراً في ذلك العام ، فأخذت الريح تعول حول زوايا البيت وتطرق زجاج نوافذه ، والدوامات الهوائية ترفع في السماء أعمدة من الغبار وتهبط بمجموعات من الأوراق تساقطها كالجنود التعبين في ميدان القتال ، صرعهم رصاص اخوتهم في الانسانية ! وكانت أسراب الأوز البري والبط ترى محمومة في السماء تفتش عن غدير تقضي فيه سحابة الليل ، واليمائم تحط على السياج قرب البايكة علّها تلقط حبات من الشعير تخزنها في أعشاشها.

كان هنالك تأهب في السماء وعلى الأرض لاستقبال ضيف أطلت رسل قدومه فلم تجد في وجوه مستضيفيها بشاشة ولا انطلاقاً ، فقد انهمكت السناجيب في اختزان عشرة أضعاف ما يكفيها من المؤونة ، وكانت جدودها تطل من الحجور فتصوي وتشقشق عند قدوم أبنائها تحمل ما يُبقي على الضعاف دمها حتى شتاء آخر ، وقد خلعت الخيل والبقر شعورها الناعمة الملمسة لتستبدل بها شعراً جديداً قصيراً خشناً هو خير أزياء الشتاء ، وتنقّرت الأرض هنا وهناك من نبش مخالب الكلاب وهي تحفر لها حفراً تتلوى فيها على نفسها . وبالرغم من مظاهر جميع هذه النشاطات فقد خيم على الوادي حزن خفيف كأنه ضباب الوادي يلتف بيتاً في سفح الجبل .

حالَ لون شجيرات المريمية إلى أعفر ، وساقطت البلوطات أوراقها الميتة

واحتفظت بأخرى خضراء جديدة ، وكانت السماء تهاجم الأرض كل ليلة فتفرغ في صدرها شحنتها التي أعارها إياها المحيط الجبار .

وكما كان الشاب يقف على قدم وساق في الأرض والسماء كان يقوم مثله في مزرعة راين ، ولكن على قدم واحدة ، فقد كوّم البرسيم الجاف والحشيش في أركان الباحة ، ونشطت مناشير الخشب لتزوّد الواقـــد بحاجتها ، وأفرغت البطاطا في أفراع البطاطا حقدها الدفين . وكان توماس يباشر هـــذه الأعمال بنفسه ويشتغل الآخرون تحت رقـابته ، فبنى عريشة آوى اليهـــا أدوات العمل من محاريث الى مناجل الى حبال ، واعتنى بيرتون بسقوف البيوت فرمّمها ودقّ المسامير في أطرافها ، ونظف جميع عدة الخيل .. من الركاب الى حلقة قربوص السرج .

كانت جني أرمـلة بنجي ترى قبر زوجها على ربع ميل من البيت يؤشر اليه صليب قد نجره بيرتون ، يقف كشرطي السير في الميادين العـامة ، فتحزن أشد الحزن ، وتأخذ كل يوم شيئاً أخضر من نبتة او عرق حشيش او زهرة الى ذلك القبر ، كأنها تحلم أن تمنحه الحياة فيما تأخذه اليه من حياة جديدة . ولكنها نسيت حتى ملامح بنجي ، عزيزها ، بعـد مدة قصيرة من الزمن . ولربما حدثت نفسها بأن الميت لن يعود ، ومن السفه أن يموت الحي من أجله ، فلو كان الميت يسوى أن يعيش لما مات . كما شعرت جني بالحنين إلى أهلهـا حيث النزهات واللعب على الثلج وعشرة والديها وأهلها ، وحدثت جوزيف برغبتها فركب بها ذات يوم الى (مدينة السيدة) وقالت له في محطة القطار بصوت ناعم رقيق :

— سنأتون جميعاً لزيارتي ، أليس كذلك ؟

— طبعاً . طبعاً .

قال جوزيف ذلك وهو يشعر بالقلق ، فهو يودّ العودة الى المزرعة في أقصر وقت ممكن .

* * *

وناحت زوجة جوانيتو ، وأعولت أول الأمر ، ثم هدأت عواطفها وتقبلت الواقع الراهن على علاّته ، إلا أن نوبات من البكاء كانت تنتقدها كل بضعة أيام . وكان جوزيف قد نقلها إلى بيته لتساعد اليزابيت ، فعهدت اليها هـذه بتنظيف المطبخ . وكان يسرُّ أليس أن تغسل الأطباق ، وتنشف الصحون ، وتنـال من طعام العائلة ما تشاء .

كانت أليس جريزا حبلى ، وكثيراً ما جلست على العتبة تهرش ظهرها ، وقد فرجت ساقيها لأن ذلك الوضع أسهل لها في الجلوس . وحين تأتي اليزابيت لتجلس معها كانت أليس تتحدث قليلاً ولكنها تظل ميّالة الى الانطواء ، وكثيراً ما ردّدت هذه الكلمة :

— لم يمت جوانيتو .. سيأتي يوماً ، وبعـد ليلة واحدة معه أنسى كل شيء ، ويعود الحال كما كان في السابق . إن والديّ يريدان مني أن أنتقل اليهما ، ولكنني لن أفعل ، بل سأنتظر جوانيتو وسيأتي الى هنا .

وكانت أليس تسأل جوزيف دائماً عن خطة جوانيتو فتقول :

— هل تظن انه سيعود ؟ وهل أنت متأكد من ذلك ؟

وكان جوزيف يجيبها :

— لقد قال انه سيعود .

— ولكن متى سيعود حسب تقديرك ؟

— ربما بعد سنة او اثنتين ، فعليه أن ينتظر .

وتخاطبه أليس حينئذ :

— سيكون طفلنا يحبو ، او ربما يمشي عند قدوم والده .

وتطبّعت اليزابيت على الحيـــاة الجديدة في المزرعة وأنساها الاعتناء ببيتها ليلة قدومها الاولى وحديثها مع راما ، مع أنه كان يخيفها دائماً أن تتذكر أن تمثالاً من الرخام لا عاطفة لديه ولا حب ولا كره ولا ألم ينبض به قلبه ، هو الى

جانبها في الفراش ، وتضيق أحياناً فتمد يدهـــا الى ذراع جوزيف فتحسسها لتتيقن انها حارة لم يفارقها ضياء الحياة فتتحول الى برودة الرخام

لقد كانت راما على صواب .. إذ انفتح باب في تلك الليلة ، ولكنه الآن قد افسد وأحكم في خلفه الرتاج .

وقد شعرت اليزابيت بالاستئناس عنـــدما وصل الأثاث المصنوع من خشب الجوز الى المزرعـــة ، مع أباريق الخزف ، والمرايا المسدسة الأشكال ، وخزانة الصحون والفناجين ، والطاولات الصغيرة المزخرفة .. فأخذت في ترتيبها وهي تغني بعض الأغنيات الاسبانية المرحة التي تعلمتها في مونتيري ، بينما كانت أليس تساعدها وتشاركها الغناء بسرور .

كان من عادة راما أن تأتي كل صباح لتثرثر معها ، على شكل ألغـاز دائماً ، فبثت لاليزابيت أشياء عن الزواج لم تكن تعرفها هـــذه بحكم وفاة أمها قبل بلوغها ، وشرحت لها كيف يمكن إنجاب الصبيان والبنات ، بطريق غير مضمونة النتيجة ، نعم ، ولكنه لا بأس من تجربتها ، فراما تعرف مئات الحالات التي نجحت فيها تلك الطرق . وتقول أليس :

– ارسمي صليباً على الأرض ، وضعي جسد الكتكوت على الصليب ، وعندما يُقطع رأسه لن يتحرك الكتكوت أبداً ، لأن علامة الصليب مقدسة .

وقد جربت راما ذلك فيما بعـد فثبتت لها صحته ، مما جعلها تتقبل بعض التسامح مع الكاثوليك بعد ذلك الحين .

ورأت اليزابيت سلفتها رامـــا تطبخ شوربة مرة ، وتذوقها بخاشوقة من خشب ثم تقدمها لها لتذوقها ، وسألتها :

– هل هي لذيذة الطعم ؟

– لا ، ليس كما ينبغي .

ولم يكن جميع ما تطبخه راما حسن المذاق في فم اليزابيت .

وفي أيام الأربعاء كانت راما تأتي بسلة كبيرة من الثياب لترقيعها ، فتجلس اليزابيت وأليس ، وراما ، كل منهن في قرنة من البيت ويتصبب عرق بيضات

الترقيع ، وهي تروح وتجيء بين فردات الجوارب الممزقة الأصابع أو المتآكلة الكعوب. وفي وسط ذلك المثلث كان يجلس الأطفال الطيبون الذين رضيت نفس راما من تصرفاتهم ، أما الشريرون ففي بيتها وقد أغلقت عليهم الباب ، فهي لا تتسامح مع شيطنتهم مطلقاً .

وتجرأت أليس حين شعرت بالألفة بينها وبين اليزابيت ففسّرت لها عجائب كثيرة وتحدثت عن معجزات شتى ، منها أن أباها رأى شاة من النار تعبر وادي الكرمل في وقت الغسق ، وان آل فالديز قد حلّت في أجسادهم الأرواح الشريرة ، وان الليفتانانت مورفي الذي قتله جماعة من قبيلة ياكي في طريقهم الى مكسيكو – يسير في الوادي كاشفاً عن صدره ليرى الآخرون جرحه الدامي ، واختفاء قلبه من موضعه لأنه لم يكن له قلب على الاطلاق. وكان يكفي أن يقال للأطفال « لا قلب له » حتى يتملكهم الفزع .

وقصّت اليزابيت على المرأتين بعض القصص التي سمعتها في مونتيري ، عن الجنيات التي يعشن في اسكتلندا ، وكيف يشغلن أنفسهن بالذهب دائماً . ولكن تلك القصص لم تكن لذيذة بقدر قصص راما أو أليس ، إذ أنها موضوع غريب أولاً ، وفي بلاد نائية ثانياً ، وليست اسكتلندا نفسها إلا شيئاً قريباً من الخيال في أذهان الأطفال . لم تكن اليزابيت محدثة لبقة ، كانت معلمة .

وكانت اليزابيت مسرورة من مثل تلك الأوقات ، « أوقات التجمع » كما كانت تدعوها . أما جوزيف فكان صموتاً قليل الكلام ، ولكنه لا ينسى أبداً أن يفتح ذراعيه فيعانق زوجته التي لم تنظر اليه مرة إلا وشعرت بالدفء والسعادة من شعاع عينيه ، وبدا أنه لا ينام بروحه وجسده كما يفعل الآخرون أبداً . وكثيراً ما أفاقت اليزابيت فمدت يدها تتحسس غطاءه ، فيأخذها بين ذراعيه .

كان الحليب قد أخذ يملأ ثديي أليس ، فشهورها تقترب من موعد الوضع ، وانتقل سائقان مكسيكيان فاحتلا بيت بنجي الخالي ، وكان توماس قد أمسك خنوصاً بريّاً وهو يحاول أن يدجّنه بنجاح قليل، ويقول عنه « إنه أشبه بالرجل

منه بالخنزير، ولا يود أن يفلته، مع أن أنياب الخنزير قد انغرزت في يدي الرجل مراراً . وكان بيرتون يتأهب لترميم روحه ويستعد للذهاب إلى مخيم تبشيري على ساحل المحيط حيث يحلو له أن يعترف بخطاياه أمام جمهور من الناس، ثم يبكي ندماً وحرقة على ما فعله من التجديف بحق المسيح أو أحد الأقانيم، وحيث يلذ له أن يشترك في الترتيل فتطهر نفسه ويعود إليه صفاء روحه المسيحية ونقاؤها.

وكان يقول :

ـ ما أحلى أيام مخيم التبشير ! سنأخذ معنا خيمة، وبأهل طفلانا البوظة بالإضافة إلى غسل قلوبهم وغرس الإيمان عميقاً في أرواحهم .

- ١٥ -

زاد انهيار الماء في تشرين الثاني من ذلك العام، وكان جوزيف يستطلع أخبار السماء صباحَ كل يوم ومسائه، وينغّم في نفسه نبوءات يرويها سكان المنطقة، منها:

اذا أصبح السماء أحمر
فعلى البحارة أن يحذروا
وإذا أمسى السماء أحمر
فعلى قلوبهم السرور .

وكان ينظر الى البارومتر أكثر من نظره الى الساعة، ويشعر بالرضا والابتهاج عندما يهبط مؤشر الجهاز.. وقد ذهب مرة الى البلوطة فأسرّ لها « سينزل المطر خلال أيام قلائل، فيغسل أوراقك مما تراكم عليها من غبار» .. وصاد فرخَ صقر فعلقه منكساً بين أفراع البلوطة، وأخذ يرقب الخيول والأبقار .

ضحك توماس من تصرفات أخيه وقال له :

« إن هذا لن يعجّل بالمطر، وما أنت إلا كمن يتعجل غليان المـاء في إبريق الشاي .. إنه لن يغلي حين تشاء أنت، بل حين تسمح طبيعته، ولربمـا أبعدت المطر بقلقك هذا على الاسراع به .

ولم يتكلم جوزيف، فقال توماس :

— سأذبح خنزيراً صباح غـــد، وأعلق في شجرة البلوطة القريبة من بيتي أنشوطة تحمله .

— وتقوم راما بإعداد النقانق . أليس كذلك ؟

طمرت اليزابيت رأسها بالمخدة والخنزير يصرخ من الألم حينما حزّ توماس عنقه القصير الغليظ بالسكين، أما راما فوقفت إلى جانب زوجها لم يرتجف في وجهها عصب ، وتلقت الدم الشاخب في سطل للحليب . ولم يكن توماس عجولاً في السلخ ، إذ ما كاد الشحم واللحم يستقر في (الدسوت) وترتفع أعمدة الدخان من مدخنة البيت حتى كانت السماء قد أرخت عنان سحبها ، فهدت السحُب الى الأرض ، وإلى قلب جوزيف عدواً .

وقف الأطفال في فناء بيت راما يتفرجون على المطر، وكانوا يودون اللعب تحته وليكن ما يكون لولا أن راما لن يرضيها ذلك. كما صلّى بيرتون وساعد زوجته في صلاتها لأنهـا كانت مريضة في ذلك اليوم ، وهرول توماس الى البايكة وتمدد بالقرب من مذود هناك وأخذ يحس بالات البرسيم التي كانت لا تزال حارة بفعل شمس المنحدرات في الصيف ، ويوثق أربطة الخيل التي نشطت فجأة فأخذت تنخر وتدب الأرض بحوافرها معلنة احتجاجها على حرمانهـا من تنشق رائحة الهواء الجديدة . أما جوزيف فكان مقعياً تحت بلوطته كأنه ناسك يتعبد، حينما ابتدأ نزول المطر . وكان دم الخنزير الذي سفحه جوزيف على عرقها أسود لماعاً.

ونادت عليه اليزابيت :

— المطر وشيك ، تعال تنج من البلل .

فأدار لها وجهاً ضاحكاً وقال :

— إن جلدي يتحرق للمطر كما تتحرق الأرض العطشى ، أود أن أبتل .

ورأى جوزيف نقاط المطر الاولى تخبط على الأرض، وتصوّر صوت وقوعها كقدم الفيل ، ثم ثار الغبار على سطح الأرض من كل مكان . وتزايد سقوط المطر فهدأ الغبار، وانتشرت رائحة الأرض الرطبة وارتفعت قرقعة شآبيب المطر على سطوح المنازل وطقطقتها على ألواح زجاج النوافذ . ووقف جوزيف في المطر وقـــد ابتلت ثيابه بحيث يمكن عصرها : وقف عاري الرأس يفرّق شعر لحيته ليتخللها المـاء ، فيسيل منها الى تفاحة آدم في نحره ثم ينحدر الى صدره ليروي

ما نبت من شعر هناك. واغتسل حذاؤه جيداً وان كان قد زاد سمك نعله قليلاً، وأطال جوزيف وقفته ليطمئن الى أن ذلك المطر ليس من سحابة عابرة ، وإنما رسول شتاء مدرار .

ورأته اليزابيت فراعها حاله . ونادت :

ـ جوزيف ، انك تأخذ برداً .

ـ لا برد منه ، إنه مفيد للصحة .

ـ ستنمو الحشائش من رأسك إذن ، تعال ، ههنا نار جيدة ، بدّل ثيابك على الأقل .

ولكنه ظـــل واقفاً كأن لم يسمع ، رافعاً رأسه الى السماء والمطر يضرب جبهته ووجنتيه وصفحة عنقه . ولم يتحرك إلا حينما تدفق المـــاء منحدراً على طول ساق البلوطة من مجمع أفراعها ، فسار الى البيت وجلس ثم قال :

ـ سيكون عام خير : وستجري مسايل الخنادق قبل عيد الشكر .

وجلست اليزابيت على كرسي كبير قاعدته من الجلد أمام المدفأة المشتعلة وقالت :

ـ اوه ، ما هذا ، ثيابك تقطر الماء على طول المصطبة ، المصطبة النظيفة .

ـ أعرف ذلك .

وأحس جوزيف أن موجة عظيمة من الحب تغمره ، حب الأرض وحب اليزابيت ، فمر الى حيث تجلس زوجته ووضع يده على رأسها في مودة وحنان فقالت :

ـ جوزيف ، أنت تنقّط الماء على رقبتي .

ـ أعرف ذلك .

ـ إن يدك باردة يا جوزيف ، وعندما وضع الكاهن يـــده على رأسي في الكنيسة كانت يده باردة ايضاً، فارتجف منها ظهري وظننتها يد الروح القدس.

وابتسمت له ثم تابعت :

ـ وقد تحدثت عنها مع الفتيات الأخَر فقلن إنها يد الروح القدس حقاً .

واستعادت البرابيت بعض ذكرياتها السابقة وعلى الخصوص ذلك اليوم الأبيض بين الحجور . فهذا هو كل ذلك قديماً موغلاً في القدم . لقد تغيرت كثيراً بعد ، فجدّن أشياء وانقضت ثم جدّت أشياء أخر لا زالت .

والتفتت جوزيف فقبّلها خلف عنقها وقال .

— سيكون الجيش غائباً طويلاً خلال اسبوعين .

— ليس هنالك شيء أكثر إزعاجاً من طية مبللة يا جوزيف . بدّل ملابسك من فضلك . هناك ملابس جافة على جانب السرير .

لم يخرج جوزيف من البيت في المساء ، بل جلس على كرسي هزاز بجانب الشباك .

وكانت البرابيت تسترق اليه النظر كل لحظة فتراه يقطب وجهه حين ينقطع المطر وتنشرح أساريره حين يستأنف السقوط .

ودخل ثوماس تلك الليلة على جوزيف، مع انه نادراً ما كان يزوره في البيت . وقال جوزيف :

— حسناً ، لقد نزل المطر ، وعلى ما يرام .

— نعم ، ولذلك سنباشر العمل في الحفر غداً ، لنجفف الماء من تحت السياج المغمور .

— ذلك الماء غني بالسماد الذائب يا ثوماس ، سنجرّه بقناة الى حقل الخضروات .

ووافق ثوماس على اقتراح أخيه لأنه معقول أولاً ، ولأن في جوزيف سيطرة ومسؤولية ثانياً .

واستمر هطول المطر طيلة الاسبوع ، وتدفق الماء من سفوح المنحدرات في أخاديد عميقة ، ففاض النهر على ضفتيه ، وجرف التيار كثيراً من أشجار الصفصاف فطفتْ على سطح الماء طويلة في شبه انتظام كأنها أسنان المشط . ولم يكن ذلك في صالح الأطفال ، فأخذوا يشعرون بالضيق من طول حبسهم في البيت ، ولا يجرؤون على عصيان أوامر راما وإن كانوا يتحرقون شوقاً الى ان

يتراشقوا بالطين ، ويخوضوا في البرك الصغيرة أمام البيوت بأقدامهم الحافية .

وكان جوزيف يرتدي مشمعاً ويقضي وقته يمشي حول المزرعة وفي أرجائها، يدق وتداً هنا ، ويقيس عمق الرطوبة هناك ، ويبرم حول مسايل الماء فيتفرج على الحشائش الجافة وكتل الأخشاب وهي تتدافع مع التيار ، فيشعر بالنشوة والسرور ويتأكد ممـــا سماه خصب الحياة .. أما في الليل فكان خفيف النوم ، قلق الغفوة ، يلذ له الاستماع الى أصابع الطبيعة الخفيفة وهي تعزف على بيانو السماء فتلحن أغنية الحياة طلقة خصبة نامية .

وانقطع نزول المطر في نهـاية الاسبوع ، فجلب جوزيف من البايكة محراثاً أخـذ يشق به الأرض ليرى سهولة تفتت الكدر وليقلب الى سطح الأرض لوناً أحمر قوياً هو لون التراب المبلول . وكان توماس يسوّي الأرض خلف المحراث ويتسابق الأخوان على من يجب أن يصافح الأرض ويعانقها مدة أطول من الآخر. ولما تمت تسوية حوض الخضروات وزرعه ، شقت وريقات الفجل سطحه لتبدو خضراء حبيبة . وبانت أوراق الجزر رفيعـــة كثيرة التشعب ، فسرّ الأطفال بذلك غاية السرور وضربوا بقوانين راما عرض الحائط هذه المرة ، فنبشوا عن بعض جذور الفجل وقلعوا بعض الجزر ــ ولكن خفية ، لم تشعر بهم راما فأغفلهم العقاب .

واكتست الهضاب وسفوح التلال بساطاً سندسياً أخضر فيه رقة وفيه بهجة لعين الناظر وفيه نشوة لقلب جوزيف .

هكذا كان عيد الشكر عيد خير وبركة ، ولم يحلّ عيد الميلاد إلا والعشب غزير نام والحشيش كما يشتهي القطيع .

وفي أحد الأيام عبر بائع متجول باحة البيت وهو يحمل سلة كبيرة فيها مختلف أصناف البضاعة والأدوات الصغيرة مما يلزم لاستعمال ربات البيوت في المناطق الريفية .. كان مكسيكياً ، وبضاعته جيدة من إبر ودبابيس ، وخيطان وشموع إلى صلبان مصدفة وصور القديسين وعلب العلك ، ولفات أوراق تزيين الجدران.

وفتح سلته ونشر بضاعته على السدة الأمامية لبيت اليزابيت أمامها ، ووقف

مبتسما يقلب صفا من الدبابيس أحيانا، ويبرز علبة من الملك أخرى.. كان يود أن يبتسم ، فظهر لطيفا أديبا ، ذلق اللسان . وتجمعت حوله النسوة كل تفتش عن حاجتها ، ورآه جوزيف ورفع المكسيكي قبعته تحيية وقال .

— مساء الخير يا سنيور .

— مساء الخير .

— ألا تتذكرني يا سنيور ؟

— أقدّر ذلك .

— لقد رأيتك مرة تخترق شوارع (مدينة السيدة) على حصانك فظننتك خارجاً للقنص ، وطلبت اليك أن تمنحني قطعة من لحم الغزال فيما إذا اصطدت واحداً .

— نعم ، أوه ، لقد تذكرت الآن . أنت جوان العجوز .

— نعم ، أنا هو ، وأتذكر أننا تحدثنا بعدئذ عن وليمة فيستا تقيمها يا سنيور ثم انتقلتُ أنا إلى الجنوب في سان لويس ، وظللت هناك . وها أنا قد رجعت ، فهل أقمت الوليمة ؟

— لا ، لم أقمها ، ولكنني سأفعل ، متى يكون الوقت مناسباً كما تظن ؟

— كل وقت يناسب يا سنيور ، ولكن بعض الأيام خير من غيرهـا فهنالك عيد الميلاد مثلاً .

— لا ، ذلك قريب ، ولن تكون لدي مهلة من الوقت .

— إذن فليكن عيد رأس السنة ، فهو وقت سرور للجميع ويفتش الناس فيه عن وليمة تقام في أي مكان فيتوافدون عليه .

— ليكن ، إذن سأقيمها في عيد رأس السنة .

— صهري يعزف القيثار يا سنيور .

— سيكون حاضراً . من يجب أن أدعو يا جوان ؟

— تدعو !

وبانت الدهشة في وجه العجوز ، وتابع كلامه :

ـ لا تدعْ أحداً ، يكفي أن أخبر الناس في (مدينة السيدة) عن ذلك فيحضرون ، ولربما حضر الخوري بنفسه ، الأب انجيلو ، فينقل معه المذبح بعد أن يطويه في عيني الخرج ، ويقوم بالقداس .

فضحك جوزيف من ذلك وخاطب البلوطة قائلاً :

ـ سيكون الحشيش طويلاً حينذاك .

- ١٦ -

خوّفت مارتا ، ابنة راما الكبرى ، الأطفال الآخرين في اليوم الذي عقب عيد الميلاد بقولها : « ستمطر السماء يوم إقامة الفيستا » .. ولما كانت هي أكبر الأطفال وقد ورثت عن أمها مظهراً جدياً حازماً ـ فقد صدّق الأطفال نبوءتها فامتعضوا من ذلك كثيراً .

وكان الحشيش قد تزايد نماؤه بفعل شمس صاحية استمرت تسطع بضعة أيام فارتفعت سوق نباتات (الفقع) وازدحمت زهرات كعب الغزال والزعمطوط ، وكان الأطفال يتجولون في المزرعة فيعودون بسلال من الفقع وأكوام من زهر (المصيص) يمصون رحيقه الحلو ثم يلقونه الى البقر . ولما كان الفقع صنفين ، الإنسي والبري ، فقد كانت راما تقليه مستعملة ملعقة من الفضة ، وتقول : اذا كان هناك قرص بري واحد في المقلاة ، فإن الفضة ستسودّ حين تلامسه ـ وبذلك نأمن التسمم .

قدم العجوز جوان بصحبة صهره عازف القيثار الى المزرعة قبل عيد رأس السنة ببضعة أيام ، وكان ذلك الصهر شاباً مكسيكياً ثقيل الحركة دائم الابتسام ، فيه ميل الى الغباء ، يقلد حماه العجوز في كل ما يفعل كأنه كلب يتبع سيده .

وقال جوان :

ـ انه يعزف القيثار .

وكبرهان على ذلك عزف عمانويل لحناً طويلاً حزيناً ينضح بالألم . وتابع حموه كلامه :

— لقد أشعت خبر الفيستا في المدينة يا سنيور ، وسيتوافد الناس ومن بينهم أربعة عازفين آخرين والأب الجيلو الذي سيقوم بالقداس ههنا ، وقد كلفني أن أبني المذبح بنفسي .

كان بيرتون حاضراً فسمع عن الفيستا والمذبح والقداس والخوري الكاثوليكي فتجهم وجهه وقال :

— لن تسمح بذلك يا جوزيف ، هل تفعل ؟ وليس في مزرعتنا !.

فابتسم جوزيف لأخيه وقال :

— انهم جيراننا يا بيرتون ، ولا أريد أن أحولهم عن مذهبهم ..

— إذن لن يكون ذلك تحت سمعي وبصري . لن أسمح للبابا أن يلاحقني الى هذه الأرض .

وقرقر توماس ثم قال :

— ما عليك إلا أن تنزوي في بيتك يا بيرتون ، أما أنا وجوزيف فلن نخشى ان نصبح كاثوليك .. فلا بأس علينا أن نشهد الوليمة .

لم يكن تحضير الفيستا أمراً هيناً ، فهناك أشياء كثيرة يجب أن تتوفر لدى مقيمها ، مما جعل جوزيف يذهب الى مدينة السيدة حيث جلب برميلاً من النبيذ وزقاً من الويسكي . ونحر رعاة البقر ثلاثة ثيران وعلقوا لحومها في أفراع البلوطة ، وجلس عمانويل تحتها يبعد الهوام والحشرات المؤذية خشية أن تفسدها . وبنى جوان العجوز مذبحاً تحت البلوطة ، وسوّى جوزيف الأرض في باحة الدار لتكون حلبة للرقص . وكان جوان يشرح للنسوة كيف يهيئن (صلصة) ممتازة فيقول :

— استعملن (دبس البندورة) وافرمن (الفلفل الأخضر) مع قليل من (القرفة) وبعض هذه (العشبة) .

ويقدم لهن أعشاباً جافة من سلته . ولم يكن هذا عمله فحسب ، بل تعددت

نواحي الفـــائدة من وجوده ، فكان ينقل قطع الحطب الصغيرة الى المواقد ، ويساعد في جلب الماء الى القدور ، ويؤانس القادمين ويعرّفهم على كرم أصحاب مزرعة (واين) ، وبالاختصار كان جوان العجوز مديراً متبرعاً لكل شيء .

ووصل عازفو القيثار في الساعة التاسعة من مساء يوم العيد فكانوا أربعـــة نحافاً ، وجوههم برونزية اللون ، وشعورهم طويلة سبطة وأيديهم لطيفة رقيقة الأصابع . وكانوا ذوي قـــدرة عجيبة على تحمل المشقات في سبيل الفن ، من السهل عليهم أن يركبوا مسافة أربعين ميلاً ثم يعزفون طيلة نهار وصولهم ويعودون أربعين ميلاً أخرى ، في الليل . أما إذا عمل أحدهم مدة ربع ساعة خلف محراث يجره زوج من الخيل ، فالدوخة تهاجمه وربما هاجم الشلل ساقيه .

وانتعش رفيقهم عمانويل لدى وصولهم ، فاستقبلهم وربط خيولهم وفرد بطانياتهم على الحشيش ليرقدوا عليها . لكنهم لم يفعلوا ذلك طويلاً ، إذ ما أزفت الساعة الثالثة صباحاً حتى هبوا من مواضعهم ، ففكوا عدتهم على ضوء نار كان جوان العجوز قـد أشعلها ، وحلقوا في سماوات الفن والخيال من ألحانهم ، ثم توقفوا قليلاً ، وانتابتهم حمى العمل والنشاط ، ولم يدركهم الفجر إلا وكانوا قد نصبوا (صيواناً) فخماً .

وأطل الفجر ، وأشرق معه نور وجه الأب انجيلو . كان على بغل ضخم قد ربط الى (حياصته) رسن (كديش) سمين عليه المذبح والكنيسة والصليب وربمـا بيت لحم .. وكان خلفه ولدان على حمار صغير . وأسرع الأب انجيلو الى العمل ، ففرد القداس على المذبح وأشعل الشموع ، وصفع الولدين لتتفتح عقليتاهما فينشطا ويركضا فيأتيانه بمـا يطلب . ثم فرد حاجياته فكانت صورة للعذراء وطفلها من حولها القديسون والملائكة بأجنحتهم المذهبة وهالات النور فوق رؤوس الجمـاعة — كل ذلك من الخشب الرقيق بحيث يكون سهل الطيّ بفضل فصالات صغيرة اتقن الأب انجيلو دهانها فلا تبين فتشوّه رأس المسيح ولا ركبة العذراء إطلاقاً . كانت هذه الصورة الضخمة ترتفع الى ما يقرب الخمسة أقدام ولكنها تسمها عين (الخرج) على ظهر الكديش . وكان أعجب من ذلك صليب

ضخم حسن الطلاء بالكدان عندما يتساءل عن الأب انجيلو، فهو يحمل بركة ذوي المناصب من المقربين إلى الرب . وكان هذا الصليب يطوي أيضاً ولكن الخوري لا يسمح لأحد أن يطويه إلا هو ، إذ ربما كان الرجل الآخر ذا خطيئة ومن الإثم أن يدنّس الصليب حينذاك .

وأشرقت الشمس فأخذ الناس يتوافدون ، غنيهم في عربة مطهمة والعادي منهم في كارة أو على حصان . واجتمع البيض والملونون الهنود ، فكان الهنود ينظرون بعيون فاحصة إلى كل شيء ولكنهم وجلون لا يشاركون في شيء . أما البيض فكانوا مرحين يطلبون التفرج على شيء ليس مألوفاً لديهم ، كما أن استقلالهم الفردي منعهم من الانطلاق .

كان الأب انجيلو رجلاً صارماً فيما يتعلق بأمر الكنيسة وحين يتجاوز أحد حدودها ، ولكنه ما أن تنقضي مهمته مع ربه حتى يعود لطيفاً طلق اللسان بشوش الوجه وأحياناً مليح النكتة أيضاً . فحين يحمل بيده قدحاً من النبيذ ويمتلىء فمه بشرائح اللحم ، لن تجد من تسبق عيناه عينيه في الغمز واللمز .

وما أن قارب الوقت الثامنة حتى أشعل الأب انجيلو باقي الشموع وطرد الولدين وبدأ القداس ، فدوى صوته حنوناً مطرباً . وانتهى الخوري من عمله وتجمع الناس حوله ينظرون اليه وهو ينشر الصور المطوية ، ففعل ذلك بيد رشيقة حاذقة طالما تمرّست بالبركات .

كانت مجامر النار حمراء تنشّ ، وشرائح اللحم تلقى عليها ملحة غارقة بالتوابل، وبرميل النبيذ قد فتحه ثوماس ونشط صنبور في وسطه قد ثبته ثوماس أيضاً فتدفق منه نور العالم المسيحي، وكانت النساء يحملن أكواماً من الخبز الفطير على أذرعتهن . وعبق الجو برائحة الشواء فسال لعاب الحاضرين مدراراً .

ولكي يبتدىء جوزيف الفيستا تذكر عادة قديمة نبّهه إلى ضرورة ممارستها جوان العجوز . فأخذ قدحاً من التنك وذهب الى البرميل فملأه ثم سكبه على الأرض ، ثم ملأ آخر شربه في أربع جرعات، وكان هذا إيذاناً بافتتاح الوليمة .

واتجه جوزيف بعد ذلك إلى عرق بلوطته فسكب عليها بقية خمره في الفنجان ، ولاحظه الأب انجيلو فقال :

— ليس هذا حسناً يا بني .

— ماذا تعني ؟ كانت ذبابة في القدح .

وابتسم له الخوري وقد فهم كل شيء وقال :

— احذر الغابات يا بني ، فالمسيح أقدر على تخليص روحك من قوى الطبيعة .

وجزع جوزيف أول الأمر ثم عادت اليه طمأنينته وقال :

— هل تفهم كل شيء يا أبونا ؟

— لا ، يا ولدي ، أنا أفهم قليلاً ولكن الكنيسة تفهم الكثير الكثير ، ومع هذا أفهم أنا معنى ما فعلت أنت الآن .

وعطس الخوري ، ثم تابع كلامه :

— بمثل هذه الطريقة ظل الشيطان يحكم هذه البلاد طيلة آلاف السنين ، بينما حكمها المسيح لسنوات قليلة خلت . ومن الطبيعي لدى امة تحت الغلبة أن تظل عاداتها وتقاليدها القديمة ذات أثر عظيم ، يمارسها الأفراد سراً أحياناً وجهراً اخرى ، وذلك حتى يتطبعوا بالحكم الجديد للسيد المسيح .

— أشكرك يا أبونا . أظن أن اللحم قد نضج شواؤه الآن .

وبالقرب من مجامر النار كان بعض المساعدين يقلّبون شرائح اللحم بشوكات من الخطب ، وآخرون يملأون الأقداح ويوزعونها على عازفي القيثار أولاً ثم يتبعهم الحاضرون .

وتوزع الناس اللحم فيما بينهم ، واقترب الحضور على استحياء وشرب العازفون معظم الويسكي ، ونال الخوري نصيبه ، وتخاطف الأطفال الخبز . وتكوّن صف من البشر أمام برميل النبيذ ، ثم حمي الوطيس فابتدأ الرقص ، زوج ، اثنان ، أربعة ، حتى امتلأت الحلبة بجمع يخبطون بأقدامهم على الأرض كأن لهم عندها ثأراً . واحمرت العيون ، وارتفعت أصوات النشاوى كل يغني على ليلاه ، فذاك صوته أجش وآخر نشاز وثالث متقطع النبرة . وكان الرقص أدهى وأمرّ ، إذ

وسط الحلبة أعرج يرقص مع عكازه ، وبعض الفتيات اللواتي كانوا يتأوهن بعيونهم المعرفة وأجسادهم المحروقة البشرة .

ومع كل هذا فقد كانت النشوة في الوليمة عظيمة ، فأكل الناس وشربوا وسكروا وسمعوا الغناء ، منه الحزين المبكي والبهيج المفرح ، وشعروا جميعاً بالامتنان للدولم الذي هو مزرعة واين في تلك الحالة .

وقف جوزيف منتعشاً تتألق عيناه سروراً ، وشعر بأن قدميه تكادان تكونان مقيدتين الى حلبة الرقص ، وفكر : (على كل لقد وجدنا شيئاً جديداً في هذه الفيستا فقد قربتنا من الأرض ولو للحظات) . وكانت نشوته عميقة الجذور فقال : لا بد أن يخرج شيء من هذا ، فهو قوي كأنه صلاة .

ونظر الى السماء فرأى سحابة تزحف فقال :

— طبعاً سيأتي المطر ، وهذا أمر عادي عندما تنطلق دفعة قوية من الدعاء الحار .

كان توماس قد ذهب الى البايكة عندما ابتدأ الرقص ، لأنه كان يخاف الشعور الجارف كما يخافه الحيوان . وترامى الى سمعه هناك دق الطبول وضوضاء الفيستا فأخذ يلمّس قفا حصان ليخفف من تأثير ما يسمع على نفسه . وفجأة انتبه الى نشيج قريب ، فتطلع الى بيرتون راكعاً يصلي ويبتهل وترتجف ركبتاه من شدة تأثره ، فضحك توماس ثم قال :

— ما مسألتك يا بيرتون ، ألم تسرّك الفيستا ؟

— انها عبادة الشيطان يا توماس ، وأول عابد فيهـــا هو الخوري وتماثيله ثم التابعون .

— وما الذي يذكّرك به هذا يا بيرتون ؟

— يذكرني ! يذكرني بالسحر والسبت الأسود ، ويذكرني بكل مخازي عبادة الشيطان والكفر في العالم .

— استمر في صلاتك يا بيرتون ! هل تدري بماذا أشعر أنا ، ان الفيستا ذكرتني بمخيمات التبشير ، انهـــا تشبه اجتماعاً ينوّر فيه راهب انجيلي حشداً من الناس .

— انها عبادة الشيطان ، كفر ، أما سمعتني ، ولو كنت أعرف أن الفيستا على هذه الشاكلة لما بقيت في هذا المكان .

فضحك ثوماس وتراجع الى المذود يصغي الى صلاة بيرتون وابتهاله. وسرّه انسجام تنهدات بيرتون مع أنغام القيثارات التي كانت ترن من بعيد .

ظل جوزيف يراقب السحابة ، فوجدها تقترب حثيثاً ، فتلثم مساحة السماء ثم تحجب الشمس كأنها قد عبأتها في جوفها . ومض رمح البرق خاطفاً عنيفاً تبعه قصف رعدة اهتزت لها أركان المنطقة ثم ادلهمّ الجو. وأصبح المطر وشيكا.

وتوقف العازفون ، وفغرت أفواه الاطفال خوفاً ودهشة ، وساد الهرج والمرج حين تبعثر الحاضرون : هذا يشد سرج حصانه ، وذلك يركض الى عربته وآخر يعدو ليجلب الخيل فيشدها الى الكارة . وقال بيرتون محدثاً نفسه :

— هذا سوط غضب الرب .

وأجابه ثوماس :

— انتبه يا بيرتون ، فهذه عاصفة رعدية .

وسار صف طويل من ضيوف الفيستا في طريقهم الى مدينة السيدة ، وهم شبه موقنين بأن احترازهم من المطر لن يكون إلا عـــديم الفائدة حين يهمي ثم ينهمر .

وكانت سيدات مزرعة واين يجلسن على السدة أمام بيت جوزيف طيلة الحفلة مبتعدات عن حلبة الرقص كما هي العـــادة المتبعة من قبل مضيفات الفيستا ، ورافقتهن أليس أول الامر ثم عجزت عن المقاومة فنزلت الى حلبـة الرقص .. وحينئذ وقفت راما تبغي الانصراف وقالت :

— كان ذلك شيئاً غريباً ، احترسي يا اليزابيت من البرد فقـد ظللت طيل نهارك ساكنة غير نشيطة ، هل تحسين بما يزعجك ؟

— لا ، فأنا على ما يرام يا راما ، ولكن خمولي لا سبب له .

كانت اليزابيت قد راقبت زوجهـا طيلة الفيستا ورأته يرفع رأسه الى السماء ففكرت (الآن هو يستطلع المطر) ، وعندما قصف الرعد قالت : (لا بـــد

وأنا سرّ لذلك) . أما وقد انقضى المدعوون فقد ظلت ترقبه يقف وحيداً كأنه يتحدى السماء . وسقطت أول نقاط المطر . فاتجه جوزيف الى بيته حيث استند على مرفقيه أمام اليزابيت وسألها :

— هل سرّتك الفيستا يا اليزابيت ؟

— نعم .

— وهل سبق لك أن شاهدت فيستا من قبل ؟

— نعم ، ولكن ليس مثل هذه ، فهل تعتقد أن شحنات الكهرباء بين الغيوم في الجو هي التي جعلت المدعوين يتصرفون على هذا النحو المستهجن من الحماس ؟

— الخمر في معدهم أدت إلى ذلك يا ليزا .

وضاقت عيناه وقال :

— يبدو عليكِ أن صحتك ليست على ما يرام ، كيف حالك ؟ تعالي فادخلي يا اليزابيت ، سيكون البرد شديداً هذه الليلة ، وليس صحياً أن تتعرضي له .

وتقدمها فأشعل الفانوس المعلق بسلسلة في وسط الغرفة ، ثم أشعل النار في المدفأة وفتح صمام الدخان ، فارتفع اللهيب وحميت النار .

وتقدمت اليزابيت تصطلي وهي جالسة على كرسي هزاز وقالت :

— سيكون عشاؤنا خفيفاً يا جوزيف .

وركع جوزيف أمامها ووضع يديه على ركبتيها ثم قال :

— يبدو عليك التعب يا عزيزتي .

— لمجرد التهيج الذي عمّ الجميع في الفيستا ، ومن أثر الموسيقى الصاخبة ، فقد كان يوماً شاذاً .

وحاولت اليزابيت أن تستعيد بعض ألحان الموسيقى وتفسر جو الفيستا إلى نفسها فقالت :

— كان هنالك شيء من الغرابة ، توافُد النـــاس ، والرقص ، والقداس ، وأخيراً العاصفة . لقد شعرت بجو يختلف عما في نفسي ، فهل أنا حمقـاء في ذلك يا جوزيف ؟ لقد بدت لي الحفلة كتلك الصور التي يبيعونها في المدن ، صور مرح

الريف الغريب ، إذا نظرتَ اليهـــا عن قرب اكتشفت وجود مختلف أصناف البشر والحيوانات ، هل تعرف أياً من الصور أعني ؟ الصور التي تبـــدو فيها الصخرة ذئباً أغبر ، والسحابة جمجمة إنسان ، أما المعنى فغامض لا يُفهم .

— إنك تتعمقين في أفكارك يا اليزابيت . لا تتعبي نفسك .

— هل شعرت يا جوزيف مثل شعوري ؟ لقـد تراءى لي أن في الأمر شبه تحذير وإنذار ، ولم أفهم ممن ، ولا لماذا ؟

وقام جوزيف وجلس على كرسي الى جانبها يراقب الشرر المتطاير في المدفأة بينما هو يربّت على لحيته وقال :

— أترين يا اليزابيت ؟ إن قدرتك على استشفاف المعـــاني العميقة للاشياء تشعرني قليلاً بأنني لست وحيداً ، وتخفف طبيعة الانطواء فيّ ، هـذا لو كنت رجلاً عـادياً ، ولكنها لا تفعل الآن . اريد أن أتحدث اليك بشيء ولكنني لا أستطيع البوح به . لم يكن هنالك إنذار اليوم ، إذ أن السحابة لا يجوز أن تكون رسول شر ، ولكنني مع هذا أوافقك أن شيئاً جديداً وقع هذا اليوم ، شيئاً لا زلت أجهل حقيقته ، وشعوري به غامض مبهم لم يتبلور بعد .

وضرب جوزيف بلسانه على شفتيه ثم قال :

— كانت الرقصة في غير وقتها يا اليزابيت ، وقد تجلى شيء خالد هذا النهار وُسرّ به الجميع ، إلا بيرتون.. فقد ظل بائساً مكتئباً ، وليس بإمكاني تقـــدير اللحظة او المناسبة التي لا يتملك فيها الخوف قلب بيرتون .

ولاحظت اليزابيت التواء شفتي زوجها لحظة من الزمن ، وخشيت ما استعادته من منظره عند الممر ، فودّت تغيير وجهة الحديث وسألته :

— هل ستكون جائعاً بعـــد قليل يا جوزيف ؟ لم أطبخ ، فقد كنت مريضة اليوم .

ونظر جوزيف اليها بحنان وقال :

— لقد أجهدك تحضير الفيستا .

— ربما. لكن، لا ، لم أكن أود أن أخبرك.. لكن راما قالت هكذا، ويبدو

عليها أنها تعرف كل شيء ، فقد قالت لي ذلك ، ويظهر أن قولها صحيح دائماً .

وقرقر جوزيف ثم سأل :

— ما الذي تعرفه راما ؟

— حسناً ، عرفت أن في أحشائي طفلاً .

ووقعت كلماتها في هوّة سكون عميق ، لا تأثر ولا حركة ولا صـــا ينجم عنها . فقد كان سقوط المطر قد انقطع وهدأت العاصفة ، واغتمّ جوزيف من ذلك حتى أن وجهه لم تبدُ عليه علامات السرور وهو يسمع ذلك الخبر المفرح .

وضايق صمت جوزيف وعدم بشاشته زوجته اليزابيت فقالت :

— هل يسرُّك ذلك يا عزيزي ؟

— أعظم سرور في حياتي . وهمس « أعظم خوف أيضاً » !

— ماذا قلت يا جوزيف ؟ ماذا كانت كلمتك الأخيرة ؟ لم أسمعها جيداً .

ونهض جوزيف ووقف خلف كرسيها ثم انحنى عليها قائلاً :

— يجب أن تنتبهي لنفسك ، سآتيك برداء ألقيـه على ركبتيك . احذري أن يصيبك البرد ، واحترسي من الوقوع .

وجاء ببطانية ثبتها حول خصرها ودثر بهـا النصف الأسفل من جسدها . وابتسمت اليزابيت ، فخورة مسرورة من عنايته بها ، وقالت :

— أعرف ماذا يجب أن أفعل يا جوزيف ، لا تخشَ عليَّ شيئاً . لقد قالت راما أن باباً واسعاً من المعرفة ينفتح أمام عيني المرأة التي تحمل جنيناً .

— إذن انتبهي جيداً .

— هل الطفل عزيز عليك منذ الآن ؟

— نعم ، ثمين جداً في نظري ، وهذه حقيقة صلبة ثابتة كالجبل ، فهو رابط يشدني الى الأرض .

وطفق ينتقي الكلمات اللبقة التي تعبر عن مشاعره ، ثم تابع :

— إنه برهان على تبعيتنا لهذه الأرض يا عزيزتي ، والبرهان الوحيـــد على استقرارنا وعدم كوننا غرباء في هذا المكان .

ونظر من النافذة فانتبه الى أن المطر قد انقطع تماماً ، فقال :

— لقد كفّ المطر عن السقوط ، وسأذهب لأرى الخيل في الاسطبل .

فضحكت اليزابيت كيف انتقل الى موضوع آخر وقالت :

— لقـــد قرأت مرة أن الناس في روسيا او النرويج ، او لا أدري في أي مكان — يعتقدون أن الخيل والبقر يجب أن تُعطى علماً عندما يحدث في العائلة ولادة او وفاة ، فيذهب رب العائلة ويُبشّر بالخبر إلى الخيل والبقر ، فهل هـذا ما ستذهب من أجله يا جوزيف ؟

— لا ، أبداً ، وإنما أودّ أن أتأكد من متانة الأرسان وقصر حبال الأوتاد .

— أرجوك أن لا تذهب ، فثوماس يعتني بذلك كما يفعل دائماً ، إبقَ معي الليلة ، وسأشعر بالوحدة إذا فارقتني .

ونادت :

— أليس ، ضعي طعام العشاء على المائدة .

ثم أكملت سابق حديثها :

— اريدكَ بجانبي هـــذه الليلة . وأتذكر أن أبي قد أهداني هدية جميلة يا جوزيف عندما كنت صغيرة ، وكانت طفلة حلوة التقاطيع فشعرت بأنها عزيزة على قلبي ، وكانت عينـــاها خرزتين زرقاوين ، ورموشها من الشعر وكذلك حواجبها ، وكان اليوم عيد الميلاد ، فشعرت بسرور عظيم واتخذتها طفـلة لي . ها أنا أشعر بنفس ذلك الشعور الآن مع ان الدمية طفل حقيقي هـذه المرة من لحم ودم ، فهو أعز وأثمن ، ولذلك يرافق سروري شيء من الخوف ، فأرجوك أن تبقى معي ولا تخرج لتتجول بين التلال هذه الليلة .

ورأى جوزيف عيني زوجته تغرورقان بالدموع فقال :

— سأبقى عندك بكل تأكيد . تبدو عليك شدة التعب يا اليزابيت فيجب أن تنامي باكراً منذ الآن فصاعداً .

وسهر معها ، وأوى الى فراشه معها أيضاً . وعنـدما انتظم تنفسها الطويل

وقفت عينا ، انسلّ من جانبها فارقدي ملاءة ، وأفاقت اليرابيت ، ولم يبدُ منها ما يدل على ذلك ، وصعدت تهبط الى باحة الدار ، تفكرت :

« لا بد ان له عملاً مع الليل » . وظلت ساكنة في فراشها ، وتذكرت قول راما أول ليلة وصلت الى المزرعة : « إذا كان يحلم فإنك لا يمكن أن تعرفي شيئاً عن أحلامه » . فرأت ذلك صحيحاً ، وشعرت بالخوف من راما هذه .

هبط جوزيف ، وكانت النجوم تتلألأ في قبة السماء ، مع أن أوراق الأشجار لا تزال تتساقط منها قطرات المطر . كان الهدوء شاملاً بعد تلك العاصفة الشديدة .. وسار جوزيف الى شجرته ، الى بلوطته ، فأسرّ لها الخبر همساً يحاذر أن يسمعه غيرها وقال :

— سيلد لي طفل يا سيدتي ، وأعدك بأن أضعه بين يديك حين يولد .

وشعر جوزيف كأن جذع البلوطة يمدّ أصابعه ليتلقف الطفل بحنان ، ففكّر : «لقد عرف الحوري ، فإما أن يكون قد عرف شيئاً وهو لا يؤمن به ، او أنه عرف كل شيء وهو يؤمن به ، ويكون مخيفاً حين ذلك » .

وقال جوزيف للشجرة :

— هنالك عاصفة على وشك الهبوب ، أنا أدري أنه لا يمكنني النجاة منها ، ولكنك يا سيدي تعرف كيف تحمينا جميعاً .

وأطال جوزيف وقفته تحت بلوطته ففكر «لقد بدأ هذا الشيء صغيراً أول الامر ، بدأته لأشعر بالسلوان على فقد والدي ، وها هو الآن قوي يكاد يملك عليّ عقلي ، ولا زلت أشعر بالارتياح وسلوان همومي كلما مارسته » . وقصد جوزيف نار الفيستا فأخرج منها قطعة من اللحم خلّفها الجمع ، وعاد بها الى الشجرة فتسلقها ووضع قطعة اللحم في مجمع الأفراع وقال :

— خذ ، واحنا إن استطعت يا سيدي ، فإنني أشعر أن ما سيحلّ بنا سيدمّرنا جميعاً .

وسمع جوزيف وقع أقدام تقترب ، والتفت نحو تلك الأقدام فإذا بـه بيرتون . فقال :

— أهذا أنت ؟ الوقت متأخر في الليل ، ماذا تريد ؟

— اريد أن أتحدث اليك يا جوزيف ، أن احذّرك !.

— ليس هذا الوقت مناسباً ، حدثني غداً ، أود أن أطمئن على الخيل .

— أنت تكذب عليّ يا جوزيف ، ربما تعتقد أن سرّك مكتوم ، كلا ، لقد راقبتك ورأيت الوثنية تنمو في نفسك فجئت لأحذرك من عاقبتها .

وأخذ بيرتون يلهث ويبدو الهياج في كلماته وهو يقول :

— لقد لاحظت غضب الرب بعد ظهر أمس، وكان ذلك إنذاراً منه وتحذيراً لعبَدة الأصنام .. سيصعق البرق في المرة القادمة إن لم يفعل هذه المرة . لقـــد لاحظتك تنسلّ الى شجرتك يا جوزيف ، فتذكرت كلمات النبي أشعيا . لقد تخليت عن الرب يا جوزيف وسيعاقبك على ذلك . تعال يا جوزيف الى البايكة وصلّ معي وسيعفو المسيح عن معصيتك ويعيـدك الى حظيرته آمناً . ولنقطع هذه الشجرة ..

— انقـــذ نفسك أولاً يا بيرتون ، فأنت شديد التزمت . اذهب الى فراشك وأرجو أن لا تتدخل في أمور غيرك .

وترك جوزيف شقيقه هناك وعاد الى البيت .

- ١٧ -

حلّ الربيع باكراً ذلك العـــام ، فاكتست الأرض أبهى ثيابها من سندس واستبرق ، وتمـاوج العشب على سفوح المنحدرات راقصاً على ناي تعزفه أنامل الطبيعة ، وفاض النهر متدفقاً عنيفاً كحقيقة الوجود ، وثقلت الأغصان بأثمارها فاقتربت من سطح الأرض تلثمه ، واخضرّ الطحلب وازدهى بلونه الجديد بعد صفرة الخريف . أمـا أكوام الروث فقد نبتت عليها أشباه غابات من الخبيزة ، وأحست الأبقـــار بوفرة الطعام فزاد تناسلها وكثير منها ولدت توأم عجول ، فتوفر بذلك سطول من حليب (اللبا). أما الخنازير فلم ينقص معدل ما أعطته من خنانيص سمينة ، ولم يبق في الاسطبل إلا أفراس قليلة ، أما الباقي فكانت تبرطع على سفوح التلال لأن العشب أثمن من أن يفوّت .

وقدم ابريل .. فزادت حرارة النهار قليلا ، وتفتحت الأكمام عن أزهارها واصطبغت الحقول بالألوان : الارجواني والأزرق والبنفسجي وأصفر كالذهب . كان المطر ما زال يتساقط على فترات والأرض رطبة غزيرة الرطوبة كالاسفنجة الكبيرة ، وصار كل نقر في الارض بئراً ، وكل منخفض وادياً صغيراً . وما حلّ مايو إلا ونسيم الصيف الحبيب يهب ناعساً من المحيط يحمل رائحة الملح وفلوس السمك .

كان ذلك ربيع العمل للرجال في المزرعة ، فاسودّ سطح الأرض الثقيلة من روحات المحاريث وغدواتهـــا ، وشقت الارضَ الخفيفة بتلاتُ الشعير ! أما

أحواض الخضروات فكانت غنية نامية حتى أن أضخم أثمارها فقط كانت تعرف طريقها الى المطابخ ، ويلقى بالباقي الى الخنازير من لفت أو جزر أو غيرها . ووقوقت السناجب حتى في باحات البيوت ، فكانت سمينة ملساء الشعر بعد خشونته أيام الشتاء . وكانت المهاري تبرطع وترفس الارض برشاقة ، في خفة وحبور ، ولم تعد الخيل والأبقار تحتمي بالاشجار من سقوط المطر ، بل تظل ترعى متلذذة بالماء ينزلق عن خواصرها .

كان الاستعداد في بيت جوزيف على قدم وساق ، فسيطل فيه غلام على هذه الدنيا ليثبت للطبيعة خصب والده وقوة والدته . فكانت اليزابيت تشتغل في مقامط الطفل وتجلس حولها النساء يسلّينها ، ولِمَ لا ، فهذا الطفل هو وارث المزرعة وولي العهد فيها ، وربما ساعدنها أحياناً . فقد جلسن (لجن الحمام) بالساتان المضرّب ، بينما كن يهلّلن من الترانيم ما لا يستطيع أن يتحمله طفل واحد ، وفصّلن له من الأثواب المطرزة الصدر والأكمام ما لا يستطيع المسكين أن يُبليه . وعلمتها راما كيف تلفّه في القماط ، وكيف تستر نفسها بالشرشف وقت الوضع ، وجربت اليزابيت ذلك ووافقت عليه راما . ولما كان هذا الطفل هو ابن جوزيف ، فقد صنعت راما حبلا كسته بالمخمل الناعم الملمس لتشدّه اليزابيت وهي في آلام المخاض ، ولم يسبق أن شدّت امرأة غيرها إلا حبلا عادياً كلما جاءها الطلق .

وكانت النسوة يجلسن في الشمس على السدة في أوقات الضحى يخطن ما تبقى من ضرورات المناسبة ، فطوين شرشفاً كبيراً وشققنه على شكل حزام تربط به راما ردفي اليزابيت بعد الولادة حالا ، وحشون مخدات صغيرة بريش البط ، وتم تجهيز كل شيء في أول تموز .

كان الحديث الدائم للنسوة يدور عن الاطفال وولادتهم ، واختلاف عادات الصبيان عن البنات ، والطريقة الفضلى للاستلقاء حين الوضع ، وشكل السكين الواجب استعمالها لقطع الحبل السرّي ، وربما تشعّب الحديث أحياناً على لسان راما فكان عن أطفال ولدوا ولهم أذناب قصيرة ، وآخرين ملتصقين بمثيلهم في

السنة ، وفئة ثالثة يولدون بيد واحدة أو بأسنان في أفواههم ، وربما كانوا مختونين . ولكن كل ذلك لم تكن راما اتركه يرعب اليزابيث ويقلق عليها نومها ، لأن راما تعرف كل أسباب ذلك وتلخصها في أن الحمل قد تم أثناء حيض المرأة ، وهذا ما لا يجوز أن تسمح به امرأة ، فهي للرجل إلا وقت العادة حيث تكون لنفسها حينئذ . وكان جوزيف يتقدم أحياناً الى حيث يجلس ويسمع أحاديث راما فيضحك على هذا العلم الجديد الذي تتلقفه زوجته .

قام جوزيف بأعمال العبالقة في ذلك الفصل .. كان يخصي العجول ويكويها بـ (سمة) المزرعة (ج . و) ويزيل الصخور من الارض ، وبالأحرى يفتش عما ينساه المزارعون عادة فيقوم به ، كما اقتلع الاعشاب البرية من البرسيم ، كل ذلك يساعده فيه توماس الجبار الذي يسهل عليه أن يفهم عقليته .

وفي آب اشتدت حرارة الطقس فتضايقت اليزابيث منها ومن ثقل حملها وكتبت قائمة بالأشياء الصغيرة اللازمة للطفل والتي كان يجب على جوزيف أن يجلبها من المدينة . فشدّ جوزيف الكارة في أحد الأيام وذهب الى مدينة سانت لويز . وما كاد يدير ظهره وتتوارى الخيل عن بصر اليزابيث حتى انتابتها أفكار غريبة وهاجمها قلق بالغ على ما يمكن أن يحدث لزوجها فقالت : « ربما مات او قتله أحدهم ، او غرق في النهر ، او ... او ... الى حد أنه ... او تلاقيه امرأة اخرى فيعلق بحبها ويذهب معها الى حيث تشاء » . وهبطت الى السدة وجلست هناك تنتظر مجيئه .

كانت أعصابها متعبة جداً يهيجها أزيز صرصور او وقع جندب . وأنعسها ما شمّته من روائح الزبل فتكسرت رموشها وكانت على وشك أن تغفو محلها ، إلا أنها رفعت رأسها وتفحصت التلال وسفوحها ببصرها ، علّها ترى جوزيف قادماً ، فوقع نظرها على غابة الصنوبر . وسرعان ما داهمها الشوق الى مونتري والحنين الى مسقط رأسها ، وبدا لها أن رائحة أشجار الصنوبر هي أزكى رائحة في الوجود . وتركز تفكيرها على غابة الصنوبر ، فقد كانت أشجارها تنادي اليزابيث مشجّعة ، وتومىء اليها أن تعالي الى هنا فتجدين الراحة التي لم يحلم بها

أحد ، تنتظرك لتمنحك السعادة وراحـــة الصمير . وتخيلت اليزابيت نفسها مستلقية في شبه إغفاءة لذيذة فوق فراش من الأوراق الابرية ، لتستمتع بالهدوء والسكينة ، وتزكم أنفهـــا رائحة الصنوبر النفاذة ، والريح توشوش الأفنان والغصون . وتملّك ذلك الخاطر نفس اليزابيت ، فاتجهت صوب البايكة حيث وجدت توماس ينقل الزبل في عربة يد صغيرة ، فقالت له :

ـ أودّ أن أتنزه قليلاً ، فهل تسرج لي احدى الافراس ؟

فأجابها :

ـ انتظري نصف ساعة حتى أنتهي من عملي ، وأنزهك في العربة .

ـ انني أرجو أن أتنزه بمفردي .

ـ لا أدري فيما اذا كان جوزيف يرضى بأن تتنزهي بمفردك .

ـ لكن جوزيف ليس هنا ، وأنا اريد .

ـ لا بأس ، سأسرج الفرس (شعاع القمر) فهي ثابتة الخطو هادئة السير ، واحذري أن تنحرفي عن الطريق ، فلا زالت برك الماء وغرز الوحل عميقة ، مما يتعبك إذا خاضت فرسك إحداها .

وساعدها توماس في ارتقاء العربة الصغيرة التي تجرّها (شعاع القمر) .

وأحست اليزابيت بالغريزة أن توماس لا يريدها أن تذهب الى غابـــة الصنوبر فسارت أمام البيوت مسافة طويلة ثم انحرفت نحو التلة الصغيرة . وقطع عليها طريقها شلال صغير لا تعبره عربتها ، ففكت أحبـال الجر وركبت المهرة وعبرته على ظهرها ، تاركة العربة عنـــد الشلال . واتجهت اليزابيت بفرسها صوب غابة الصنوبر واعترضها جدول رقراق خاضته على مهرتها ، ثم تناولت عرقاً من الجرجير (رشاد) أخذت تقضمه .

وأحست اليزابيت بالطمأنينة وانشرح فؤادها وفارقتها كآبة نفسها السابقة وشعرت بالغبطة ، وحوافر مهرتها تقع على الاوراق الإبرية الناعمـة ، والغابة هادئة ساكنة كأنها تمتص ما يندّ فيها من أصوات . وترجّلت اليزابيت فسارت

في الغابة مسافة طويلة ، أحياناً تجثم على ركبتيها ، وأخرى تجثو على أربع وثالثة تستلقي على ظهرها كأنها تود أن تمس الارض كل بدنها .

كانت تفرك قشور جذوع الاشجار ، وترمي من أوراق الصنوبر حفنات ، وتلتقط بعض ثمار العليق ، كل ذلك بخفة وطرب . وتحدثت براحتها وانحل رباط شعرها ، وأطلت على الساحة الوسيعة التي تحفها أشجار الصنوبر من كل ناحية ، وفي وسطها الصخرة الجبـــارة ، فشعرت اليزابيت بشيء من الدهشة والعجب أول الامر ثم الاستحسان بعد ذلك . وهمست لنفسها :

ــ أظن أنني كنت أعلم بوجودها هنا ، فهكذا يتراءى إلي .. لقد أخبرني بذلك شيء في صدري ، هذه الصخرة العزيزة الغالية .

وتقدمت اليزابيت الى الينبوع فجلست عنده ، وبصرها مثبت على الصخرة ، وفكرت :

ــ لا بد أنني رأيت هذه الصخرة من قبل ، فأنا أتذكر أن مرّ بي مثل هذا المنظر ، فقد كنت يوماً في طريقي إلى المدرسة ورأيت صفاً طويلا من البنات البرتغاليات في لباس أبيض يسرن في استعراض أقمنه تعظيماً للروح القدس وأمامهن ملكة متوجة تتولى قيادة الاستعراض ، ثم أطبقت الهضاب على المدينة حينئذ ورأيت هذه الصخرة ، نعم هذه الصخرة بعينها . وتطلعت اليزابيت إلى الصخرة فخيّل اليها أنها ترى طفلهـــا الجنين مكوّراً في أحشائها ورأسه إلى أسفل ، وشعرت بحركته كأنه يود النزول .

وأرعب ذلك اليزابيت ، وأحست بالاشجار تطبق عليها ، رؤوسها تنحني وسوقها تزحف ، وبالجو يكاد يخنقها . وآلمتها الوحدة في المكان ، فودّت أن تتحرك ، أن تعمل شيئاً . وغمست يدها في ماء الينبوع وأخذت تحركها ، فارتدت الاشجار وانشرح الجو وتغير كل شيء ، حتى نفسيتها ذاتها صارت مرحة لطيفة .

ونظرت اليزابيت إلى الصخرة ثانية فتراءت لهـــا حيواناً قبيحاً مقعياً يهمّ بالوثوب عليها ليفترسها . وسمعت اليزابيت خشخشة أوراق الاشجار فأوجست

شراً ، وسرى في بدنها تيار بارد اقشعر منه جسدها . فنهضت وتراجعت الى الخلف ونظرها مثبت على الصخرة تخشى أن تقفز عليهـــا فتسحق عظامها . وامتلأت الغابة في نظر اليزابيت بالارواح الشريرة والوحوش الضارية ، وانعقد لسانها فلم تصرخ ، بل شمّرت عن ساقيها وركضت باتجاه الأرض المكشوفة حتى غدت خارج غابة الصنوبر ، فوقعت على الأرض من شدة الرعب ومن فرحها بالنجاة من شر بدا لها مستطيراً .

ونهضت اليزابيت منهوكة القوى ، متقطعة الأنفاس ، لا تكاد تصدق أنها قد نجت من غول الصخرة إلا حين أبصرت البيوت في المزرعة ، فهـدأ روعها وعادت اليها نفسها بالتدريج ، فتلت بعض الصلوات :

« أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك... » وأكملت : « احمني أيهـــا السيد المسيحُ من هـــذه المعاصي واغفر لي خطاياي ، وجنّبني طريق الزلل ، وارشدني بعطفك وكرمك الى سواء السبيل . لا تدع خطاياي يتوارثها طفلي ، احرسني أيها الرب من رواسب القديم في دمي » . وتذكرت أن أباها قال مرة ان أجداده كانوا وثنيين قبل آلاف السنين .

وراق خاطرها بعد أن أتمّت صلاتها ، فقد نفـــذ شعاع نوراني الى فؤادها فطرد منه الخوف ، وقالت :

– هذه طبيعتي ، ويجب أن أكون قد حسبت لذلك حساباً . وقد أخبرتني راما عما يجب أن أتوقعه . إن ذلك مجرد خيال .

وبذلك استعادت اليزابيت ثقتها بنفسها ، فأخذت تلتقط باقة من الأزهار البرية لتزين بها المائدة عند قدوم جوزيف .

- ١٨ -

كانت حرارة الشمس عظيمة جداً تمتص رطوبة الأرض ، وتجفف العشب وتضطر كل حي إلى التفتيش عن بقعة يجد فيهـا ظلاً .. فكانت الخيل والأبقار تقيل في الاصطبل والحظيرة طول النهار حتى إذا ما جن الليل ضربت في الأرض تلتمس الرزق . وظلت الكلاب متمددة على الأرض ، وألسنتها الطويلة تنقط اللعاب وخواصرها تصطفق من اللهاث كأنها منفاخ عجلات أو كور حـداد . وحتى الحشرات الكثيرة الجلبة والصوت ، سكنت وقت الظهيرة . أما النهر فقد تضاءلت مياهه في مجراه فغدا نهيراً أقرب إلى المسيل الصغير ، وما قارب شهر آب حتى جفت مياه ذلك المسيل أيضاً .

وكان ثوماس يحش البرسيم ليخزنه ، وجوزيف ينتقي ما يود بيعه من الأبقار ، أمـا بيرتون فيستعد لرحلته إلى مخيم التبشير على ساحل المحيط ، فكوّم خيمة وأدوات وما يحتاجه من فراش وبعض المؤونة في الكارة وغـــادر المزرعة مع زوجته صباح أحد الأيام ليقطع التسعين ميلاً التي تفصله عن مخيمه الديني . وقبلت راما الاعتناء بطفلتيه طيلة غيابه مدة ثلاثة أسابيـع . وخرجت الزابيت لتلوّح ببيدها مودعة ، وكانت قـد استعادت عافيتها بعد وعكة ألمت بها : فاكتست وجنتاها بلون وردي أحمر ، وشعّ من عينيها بريق السعادة .

وكثيراً ما كان جوزيف تصيبه الدهشة مما تعرفه زوجته أو تفكر فيه حتى يجعلها على وشك أن تضحك طيلة الوقت ، فيقول لنفسه :

– النساء ينزل عليهن إيمان قوي بالله في مثل هذه الحالة ، فلا بدّ أن يعرفن أشياء يجهلها غيرهن ، ويشعرن بسرور لا مزيد له ، إذ انهن بشكل أو آخر يمسكن بأطراف حبل الحياة بين أيديهن .

ولما اقترب موعد الوضع ، زاد تعلق اليزابيت بزوجها ، فهي تريده أن يجلس اليها طيلة النهار وتشكو اليه حينما يخبرها عن العمل الذي يجب عليه أن يقوم به وتقول : « أنا كسولة ههنا ، والكسل يحتاج رفقة الآخرين » فيجيب :

– لا . انك تعملين .

وهو يشير بذلك إلى أن عظامها تخلق عظاماً أخرى ودمها يقطّر دم الجنين ، ولحمها يكسو العظام الصغيرة لحماً جديداً .

وكانت تمد له ذراعها فيربتها في الأمسيات التي يقبل أن يسهر فيها معها وتقول :

– أخشى أن تنصرف عني ، وتذهب بعيداً ، تخرج من ذلك البـــاب ولا تعود ، وحينئذ يلد الطفل ولا والد له .

وقد سألته مرة :

– قل لي لماذا تحب الشجرة إلى هـذا الحد يا جوزيف ؟ هل تذكر كيف أجلستني في مجمع أفراعها حين زرت المزرعة لأول مرة ؟

– لأنها شجرة ضخمة وجميلة ، أحبها لأنها شجرة كاملة حقاً كما أظن .

– هنالك أكثر من هذا يا جوزيف ، فقد سمعتك ليلة تتحدث اليها كما لو كانت شخصاً عادياً ، سمعتك تخاطبها قائلاً : (سيدي) .

فنظر جوزيف إلى الشجرة كمن يستشيرها قبل أن يجيب ، ثم حدث زوجته عن وفاة والده ورغبته في الانتقال إلى الغرب ليرى أرض ولده ، وعن ساعة وصول نعيه في الصباح مع جوانيتو ، ثم أكمل يقول :

– انه نوع من اللعب كما ترين ، فالشجرة تجعلني أظن أن أبي لا زال حياً .

– ليس هذا عبثاً يا جوزيف ، فلا يمكنك أن تخلق هذا العبث فيما لو شئت ذلك . إنه عادة طيبة .

ولأول مرة منذ زواجهما شعرت الزابيت بأنها تفسدت إلى أعماق شخصية زوجها وعرفت عن أنها فهمته ، فانحنى يريد أن يقبلها ، إلا أن شقيقه عطلتا على ركبتيها ، وابتسمت الزابيت ابتسامة حكيمة وأخذت تلمس شعره وقالت :

— كان يجب أن تطلعني على دخيلة نفسك قبل الآن ، ولكن ربما لم تكن لدي العينان اللتان تستطيعان رؤية الحقيقة من قبل .

وعندما اضطجع جوزيف إلى جانبها تلك الليلة واستقر رأسها على ذراعه قبل غفوتها قالت له :

— هل تبقى معي عندما يحين وقتي يا جوزيف ؟ فأنا أخشى أن أخاف حينئذ فأنادي عليك ولا تكون قريباً ، عدني ألا تكون بعيداً عني ، وأن تدخل حينما أستنجد بك .

— سأكون بقربك ولن تحتاجي الى النداء لأسمع ، لا تخشي شيئاً .

— ولكن ليس في نفس الحجرة يا جوزيف ، فلا أريدك أن تحضر الوضع ، لا أدري لماذا ، ولكن إذا ظللت جالساً في الغرفة تستمع ندائي إذا فعلت فإن ذلك يبعد عني الرهبة ، ولن أشعر بأي خوف .

وكانت الزابيت في بعض الليالي تحدثه عما درسته سابقاً فقصت عليه كيف غزا الفرس بلاد اليونان وانهزموا شر هزيمة ، وكيف التجأ اورستيز الى الهيكل المثلث بينما كانت جنيات ينتظرن أن يضعفه الجوع فتتراخى قبضته ليلتهمنه ، وجعلت الزابيت تعد أسابيع ميقاتها ، ثلاثة أسابيع ، نصف شهر ، عشرة أيام ، الأحد القابل ، وتسأل جوزيف :

— هل تصدق يا جوزيف أن راما تسمع دقات قلب الطفل ؟.. هي التي قالت ذلك .

— يجوز .

كان جوزيف خفيف النوم جداً في تلك الليالي ، ينهض اذا تنهدت الزابيت أثناء نومها ليتأكد من أنها مجرد تنهدة .

وأفاق جوزيف مرة على صياح الديكة قبل الفجر وظل في فراشه ينظر الى بهاء أشعة الفجر المنعشة ، ويسمع تنفس اليزابيت المتقطع ، وكان على وشك أن يرتدي ملابسه ليهبط الى الاصطبل فيطمئن على الخيـــل ، حين هبت اليزابيت واقفة من فراشها ، وانقطع نفسَها وتيبست ساقاها وصرخت من الألم ، فعرّته الدهشة وصاح :

ـ ما لك ، ماذا حل بك ؟

ولما لم تجب قفز الى الفانوس فأشعله وانحنى عليها يتفحص وجهها كانت عيناها جاحظتين ، وفمها مفتوحاً يتدلى منه لسانها ، وكان جسدها كله يرتجف . وصرخت بصوت مبحوح للمرة الثانية ، فأخذ جوزيف يدلك يديها حتى ألقت رأسها على المخدة مرة أخرى ، وهدأ الانتفاض ، وأنّت وهي تقول :

ـ وجع في ظهري . يا جوزيف . سأموت .

ـ لحظة واحدة يا عزيزتي . أنا ذاهب الى راما .

وابتسمت له راما حين أخبرها وقالت :

ـ لحظة واحدة . عُد اليها ، لم أكن أتوقع ذلك بمثل هذه السرعة ، على كل لن تشعر اليزابيت بألم حتى أحضر .

ـ لكن أسرعي .

ـ لا حاجة للسرعة ، عُد اليها ، ربما أوقظ أليس لتعينني .

وعبرت المرأتان فناء الدار الى اليزابيت ، وباشرت راما مهمتها حالاً ، بينما تنظر اليها اليزابيت بعين منكسرة تستجدي الرحمة والعون .

وقالت راما :

ـ لا تخافي ، أنتِ على ما يرام ، فالحـــالة طبيعية ، وكما يجب أن يكون وضع الطفل .

وأرسلت راما أليس الى المطبخ لتشعل ناراً وتغلي عليها (سخاناً) من الماء ، ثم قالت لجوزيف :

— ساعدها على اللبس يا جوزيف ، اسندها .

وبينما كان جوزيف يقطع مع الميزابيت الغرفة ذهاباً وإياباً ، وهو يمسك بيديه خاصرتها ، نزعت راما الشراشف من السرير ، ونزعت قطعة اللباد المجلّلة ، كما فكت مشابك الحبل المحمل الى أعمدة السرير من جهة الأقدام .

ولما داهم الطلق الميزابيت ثانية ، أجلسوها على كرسي مستقيم الظهر حتى زال الألم ، ولما حاولت الميزابيت كتم صراخها الحنت فوقها راما وقالت لها :

— لا تمسكي نفسك عن الصراخ ، افعلي ما تشعرين بالميل الى فعله ، اصرخي لا بأس من ذلك .

ثم أنهضتها وجعلت جوزيف يسندها وهي تسير في الغرفة ، وذهبت هي الى غرفة مجاورة فأحضرت ساعة حائط علقتها ، وجعلت تنظر اليها بين كل طلقة وأخرى وتقول : لا بأس ، لا بأس ..

وتلاحق الطلق واشتد الألم ، وكان الوقت ظهراً تقريباً عندما أومأت راما برأسها وقالت :

— حسناً ، دعها تستلقي ، ويمكنك أن تغادر الغرفة يا جوزيف ، وسأهيء يديّ حالاً .

ونظر اليها جوزيف بعينين نصف مطبقتين وقال :

— ماذا تعنين بقولك (سأهيء يديّ) ؟

— أغسلها بالماء الساخن والصابون ، وأقلّم أظافري جيداً .

— أنا أفعل ذلك .

— الوقت قصير يا جوزيف ، وقد آن لك أن تخرج .

— لا . أبداً ، أنا أتناول ولدي ، أرشديني كيف أفعل .

— لا يجوز هذا يا جوزيف ، ليس هذا من شأن الرجال .

فحدجها بنظرة صارمة ، لم تتمالك أن تقوى أمامها وقال :

— انه من شأني .

كان أطفال المزرعة قد اجتمعوا في فناء بيت جوزيف منذ أن ارتفعت الشمس في السماء ، فسمعوا صرخات اليزابيت ، ودفعهم حب الاستطلاع في نفوسهم إلى تسلق النافذة ، ونهرتهم التي تسلمت الرئاسة وقالت :

— بعض النساء يمتن أثناء الولادة ، وقد أخبرتني أمي أن أول من يسمع صراخ الطفل منكن يجب أن تقول (أنا سمعت) وحينئذ يكون لها جائزة سنيّة وهي أول من يأخذ الطفل .

وسرّ ذلك الفتيات الاخر فصحن جميعاً (أنا سمعت) ثم أخذن يرددنها معاً وتسلقت مارتا الى حيث أمكنها أن تبصبص من النافذة وجعلت تصف للاخريات ما ترى فتقول : العم جوزيف يمشي بهـا ، والآن ها هي تستلقي على الفراش . لقـد مدت يدها فتناولت حبل المخمل الذي صنعته والدتي ، ها هي تشده ، اسمعوا الصرخة جيداً ، أمي تمد ركبتيها على الفراش ، الصراخ يتلاحق ، اسمعوه ، على وجهها يبين الألم ، العم جوزيف يتقدم الى السرير ، ها هو ينحني فوقها ، لقد دفع يديه لا أرى الى أين .. ها هو يتراجع ، ها ها ها يداه حمراوتان . عليهما دم .

وانتهى وصفها الشيق للحفلة ، ولم يترك أثراً في نفوس الجمـــاهير التي ظلت تستمع إلى صراخ اليزابيت يخفت قليلاً قليلاً ثم يتلاشى . وقالت مارتا :

— الآن اصغين جيداً .

وجاء من النافذة : واق .. واق .. فقالت مارتا :

— أنا سمعت .. أنا سمعت !

وعقدت الدهشة ألسنة الأطفال ، وسألتها إحداهن :

— كيف تعرفين لتقولي متى ؟

— أنا الكبرى ، وقد رضيت عني امي دائماً ، ولذلك علمتني كيف اصغي .

— وكيف أصغيتِ ؟

— أصغيت لصيحته ، فهم يضربون الطفل عادة بعد ولادته ليصيح . أنا التي ربحت وأطلب دمية من الشَعر جائزة لي .

وبعد قليل خرج جوزيف الى السدة، فتجمع اليه الأطفال ينظرون، وخاب أملهم في أن يجدوا يديه لا تزال حمراء . وبقي معهم برهة ثم عاد الى المنزل .

كانت راما تغسل المولود بينما تثبت اليس الدبابيس في قطعة الموسلين التي ستربط بها راما ردفي اليزابيت بعد أن أخرجت (الخلاص) . وقالت راما :

— ساعة واحدة وتنتهي آلامها فلا تتأثر .

وجلس جوزيف ينظر الى عيني اليزابيت يفعمها الألم ، وإلى الطفل بعد أن ألبسته أليس ثوباً يبلغ طوله ضعف طول المولود . وبعد أن انتهى الوضع رفع جوزيف اليزابيت في حضنه ، بينما سحبت راما اللبادة الملطخة ، وسوّت الفراش ثانية لترتاح عليه اليزابيت . وأخذت اليس الخرق الملوثة فحرقتها ، بينما شدّت راما حزام الردفين بكل ما استطاعت من قوة .

ورقدت اليزابيت في فراشها شديدة الشحوب ، ومدّت يدها الى جوزيف ليأخذها ، وقالت :

— لقد كنت أحلم . ها قد مضى يوم قضيته في الأحلام .

وربّت جوزيف على يدها وقال :

— هل تودّين أن آتيك بالطفل يا عزيزتي ؟

— ليس الآن ، فلا زلت أكره لشدة الآلام التي سبّبها لي . انتظر حتى أستريح قليلا .

وسرعان ما استغرقت في سبات عميق، فتركها جوزيف وذهب الى الاسطبل فوجده نظيفاً كعادته ، قد مُلىء كل مربط بالحشيش الجاف . ووجد ثوماس في مكانه المعهود قرب المذود ، وابتدره هذا قائلاً :

— إن أُنثى بنات آوى عندي تعاني من دمّلة في أذنها ، ما أعسر إزالتها من ذلك الموضع . قل لي يا جوزيف ، ما حظك ؟

— ولد ، وقد قطعت حبله السري بنفسي، علمتني راما ذلك ، فقطعته بمقص وربطت عقدة لففتها بضمادة طبية .

— وهل كانت الولادة عسيرة ؟

— نعم كانت عسيرة ، ومع هذا تقول راما إنها سهلة ، فالله وحده يعلم كيف تناضل الأشياء الصغيرة في سبيل الحياة .

وقرقر ثوماس ثم قال :

— لم يسبق لي أن رأيت ولادة طفل ، فراما لا تسمح بذلك . بينما ولّدت الكثير من البقرات حينما يعسر الواحدة منها أن تلد بنفسها .

ومشى جوزيف نحو نافذة مفتوحة في جدار الاسطبل ، وقال :

— كان اليوم حارّاً ، يا ثوماس ، لم يسبق لي ولا لك أن ذهبنا الى ساحل المحيط . دعنا نذهب عندما نجد متسعاً من الوقت .

— أما أنا فقد ذهبت وتجولت يا جوزيف ، وشاهدت غابات حمراء باسقة الأشجار أعلى من كل ما سبق لك أن رأيت ، وحشائش نامية غزيرة ، ويمكنك أن ترى لمسافة ألف ميل في المحيط ، فقد شاهدت سفينة هناك .

وسمع الشقيقان صوت راما تنادي :

— جوزيف ، أين أنت ؟ اليزابيت في حاجة اليك ، فاذهب لتجلس بقربها. أما أنت يا ثوماس فساعد عشاءك بعد قليل .

وجلس جوزيف على كرسي هزاز بجانب السرير عند زوجته وقال :

— أنتِ طلبتِني ؟

— نعم ، لم أنم كفايتي ، ولكنني أود التحدث اليك قبل أن أنام ثانية ، إذ ربما نسيت أنا ما أود أن أقوله الآن ، فتتذكره أنت حينئذ .

فرفع جوزيف يدها الى شفتيه وقبّلها وقال :

— تكلمي يا اليزابيت ، ماذا ؟

— لقد ذهبت الى غابة الصنوبر أثناء غيابك ، فوجدت أرضاً مكشوفة في وسطها صخرة .

فاعتدل جوزيف في جلسته بقلق وقال :

— لماذا ذهبت ؟

— لا أدري ، هكذا جرى ، وقد أعجبني تلك الصخرة الخضراء فعلمت بها . وأريد يا جوزيف عندما أستعيد قواي أن أذهب هناك مرة اخرى لأرى تلك الصخرة ، حتى لا أعود أحلم بها فيما بعد . فهل تتذكر هذا من أجلي ؟

— نعم ، إنني أعرف المكان ، وهو مكان غريب .

— ولن تنسى أن تأخذني اليه ؟

— لا ، لن أنسى . عليّ أن افكر فيما إذا كان يجب أن تذهبي أولاً .

— ابقَ عندي ، وسيغلبني سلطان النوم بعد لحظات .

- ١٩ -

استمر قيظ الصيف ، ولم تتناقص حرارة الشمس في شهور الخريف ، وعاد بيرتون مبتهجاً من مخيمه التبشيري ، فوصف شبه الجزيرة اللطيفة والخليج الأزرق الهادىء بكل حماس ، وحدّث عن المبشرين وما منحوه للناس من بركات وقال: « هل تدري يا جوزيف أنني سأذهب إلى هناك فأبتني بيتاً أستقر فيه على مدار السنة ، فهنالك بعض البيوت قد أقيمت من قبل ولا بد أن تنشأ مدينة جميلة في ذلك الموقع مع مرور الأيام » وسرّه خبر الغلام فقال : « إنه نسلنا » وافتخر أمام اليزابيت « هذه سلالتنا ، قوية نشيطة ، وقد ظلت مثل هذه العينين للذكور من أطفال السلالة طيلة المائتي عام الأخيرة » .

وأجابت اليزابيت :

— إن عينيه ليستا بعيدتي الشبه عن عيني في لونها ، مع أنه يجب أن لا ننسى أن عيون الأطفال تتغير ألوانها فيما بعد .

— إنني أقصد تعبير العيون لا لونها ، وذلك متوفر دائماً في أطفال عـــائلة واين . متى ستعمّدونه ؟

— لا أدري ، إذ ربما ذهبنا إلى سانت لويز كما أنه لا بد أن أزور مونتيري بعض الوقت ، وطبعاً آخذه معي .

كانت الشمس لا زالت شديدة الحرارة ، فلم يكن من المستحب أن يكون المرء خارج بيته وقت الظهيرة ، وكان جوزيف واليزابيت يجلسان تحت البلوطة

على كراسي تخرجها أليس ، حيث يسر جوزيف أن يراقب طفلا يصر تحت أمه ، وقال مرة :

— لا ينمو طفلنا بالسرعة التي أعتقد أنه يجب أن ينمو بها يا اليزابيث .

— إنك معتاد على سرعة نماء المحول ، إلا أن البقر لا تطول أعمارهن .

وتأمل جوزيف كلمات زوجته ففكر أنها قد زادت حكمة بمقدار ، فها هي تعرف أشياء كثيرة لم تكن تعرفها من قبل ، وسألها :

— أتشعرين بالفرق الهائل بينك وبين الفتاة التي قدمت إلى مدينة السيدة لتعلم التلاميذ فيها يا اليزابيث ؟

— هل يبدو علي شيء يخالفها يا جوزيف ؟

— نعم ، طبعاً .

— إذن ثمة فرق بيني وبينها !

وبدلت اليزابيث ثديها وأدارت الطفل إلى الركبة الاخرى ، فتعلق بالحلمة يمط ويشدها كالسمكة تندفع إلى الطعم . وقالت اليزابيث :

— لقد خلفت شخصيتي السابقة ، فقد كنت أفكر دائماً بالاشياء التي تعلمتها فأتصرف حسب تلك المعلومات ، أما الآن فإنني أتصرف كما يعنّ لي ودون النظر إلى شيء مما مضى ، وبالاحرى فإنني لا أفكر فيه مطلقاً في الوقت الحاضر .

قل لي يا جوزيف ماذا نسمي الطفل ؟

— جون ، فمن العادة أن يكون جون ابن جوزيف وجوزيف ابن جون ، هذا هو المتعارف عليه .

— حسناً فهو اسم جيد لن يدعه يرتبك من جراء شذوذه أو بعده عن المألوف . و (جون) لا معنى خاص فيها ، فهنالك ألوف ممن يحملون هذا الاسم أو حملوه سابقاً ، فكانوا رجالاً خيّرين عقلاء ، وآخرين شريرين خبثاء .

وانتهت الرضاعة فوارت اليزابيث ثديها وقالت :

— هل لاحظت يا جوزيف أن من يحملون هذا الاسم يكونون إما خيرين أو شريرين ولا وسط بينهما ؟ وإذا كان من يحمله عادياً ، غيّره فأصبح جاك ؟

وأخذت تداعب الطفل :

— اسمع . انت جون ، هل تعرف اسمك ، إنني آمل أن لا تصبح جاك ، وأفضل أن تكون شريراً على أن تكون جاك .

وابتسم جوزيف متسلياً على ما تقول ، وسألها :

— ألا تعتقدين أنه يجب أن يجلس في الشجرة ، فلم يسبق له أن فعل .

— ولكنه ربما وقع فأصابه مكروه .

— لا ، ليس من هذه الشجرة ، فلن تدعه يسقط .

— لا زلت تمارس لعبتك يا جوزيف ، ليس هذا لعباً .

— نعم ، لا زلت أمارسها ، اعطني الطفل ، وسأضعه بين ذراعين اثنين .

— يمكن أن يقع يا جوزيف ، لقد نسيت أنه لا يستطيع القعود بنفسه .

وانسلّ بيرتون من حوض الخضروات ووقف عندهما يمسح عرق جبينه بورقة (دفلة) وقال : «لقد نضج البطيخ ، والثعالب والنسانيس تغزو المقثاة في الليل ، فمن الخير أن ننصب فخاخاً » .

ومدّ جوزيف ذراعيه الى اليزابيت ليتسلم الطفل فاحتجت :

— أقول لك ربما وقع .

— سأمسكه ، ولن أدعه يفعل .

— ماذا تفعل بابنك يا جوزيف . قولي يا اليزابيت ، ماذا يريد أن يفعل بالغلام ؟

— يريد أن يجلسه في مجمع أفراع البلوطة يا بيرتون .

— لا تفعل يا جوزيف . يجب أن لا تفعل ذلك .

— سأمسكه يا بيرتون ، لن أدعه يسقط .

— أرجوك يا أخي ، لا تفعل ، أرجوك .

— لن أدعه يسقط أبداً ، سأمسكه .

— ليس هذا ما أخشاه يا جوزيف ، انت تعلم ما ارمي اليه ، اقسم على أن لا تفعل ذلك .

— لن أقسم على شيء ، لماذا اقسم ، انا لا ارى خطيئة في ما افعل .

— جوزيف ، انك لم تعد سماعي .. ارجو منك شيئاً ، فيجب الآن أن تقدّر شدة أهمية ذلك بالنسبة إليّ .

واغرورقت عينا بيرتون بالدموع وبانت على وجهه شدة التأثر ولاحظ ذلك جوزيف فقال :

— اذا كان الأمر يهمك الى هذا الحد ، فلن افعل .

— وتقسم على أن لا تفعل ذلك في المستقبل .

— لا ، لن أقسم أبداً ، ولن أتخلى عما عندي لما عندك ، ولماذا افعل ؟

— لأنك تسمح للشر أن يقدم ، فأنت تفتح له البـاب بعملك هذا ، ولن يمر ما تفعل دون عقاب .

فضحك جوزيف وقال :

— إذن دعني أواجه هذا العقاب .

— ألا ترى يا جوزيف أن العقاب لن يحلّ بك وحدك بل ينزل علينا جميعاً ؟

— إذن تحاول بمنعي أن تنجو بنفسك يا بيرتون ؟

— لا ، أحاول أن أحمي الجميع ، فأنا افكر في اليزابيت والطفل أيضاً .

كانت اليزابيت تنقل بصرها من جوزيف الى بيرتون وبالعكس ، وقالت :

— عمّ تتحدثان ، وفيمَ تتجادلان ؟! إنني لا أفقه شيئاً مما تقولان .

— هل اخبرها يا جوزيف ؟ انني اهدد بإطلاعها على الأمر !

— تخبرها ماذا ؟ هل هناك ما يحتاج الى أن تخبرها عنه ؟ حبلك على غاربك .

— إذن اسمعي يا اليزابيت . إن أخي جوزيف ينكر السيد المسيح ، ويتعبّد على طريقة الوثنيين ، فهو يفسد روحه ويسمح بذلك للشر أن يصيبنا .

— أنا لا أنكر المسيح يا حضرة ، وإنما أفعل شيئاً يجلب لي السرور .

— إذن مـــا معنى تعليق الضحايا على الشجرة ، وسفح الدم على عروقها ، وتقديم كل ما طاب اليها ؟ هل تعتقد هذا شيئاً تافهاً ؟ لقـــد رأيتك تنسلّ من البيت ليلاً وسمعتك تحدث هذه البلوطة ، فهل كان ذلك شيئاً تافهاً يا جوزيف ؟

— نعم ، شيء بسيط ، لا ضير فيه .
— وتقديم طفلك الأول الى الشجرة ، هل هذا بسيط أيضاً ؟
— نعم ، مجرد لعبة .
فاندار بيرتون غاضباً ، وانتحى الى حيث تلسع حرارة الشمس وقال :
— لقد حاولت أن اساعدك ، حاولت أكثر مما يأمر به الكتاب المقدس ، فهل لا زلت يا جوزيف مصرّاً على عدم القسم بألا تفعل ؟
— نعم ، فلن اقسم على شيء يضيّق حدود حريتي . لن أفعل .
— إذن أنبذك ، ولا أبقى ههنا لكي لا يكون لي خصاصة . لن أنغمس في شر تصرّ على التردّي فيه .
وسألت اليزابيت :
— أصحيح ما يقوله بيرتون ؟ هل فعلتَ ما صرّح به ؟
— لا أدري ، ولا أعتقد ذلك ، فما يقوله يبدو لي غريباً تماماً عما أفعل .
— لقد رأيته يا اليزابيت ، لا تصدقي زوجك ، راقبته يزور الشجرة كل ليلة . أما الآن وقد قمت بما يجب عليّ من نصيحته ، فسأرتحل عن هذا المكان .
— وإلى أين تذهب ؟
— مع زوجتي ثلاثة آلاف دولار ، وسننتقل الى ساحل المحيط فنبني بيتاً ، وأبيع حصتي من المزرعة ، وافتتح مخزناً صغيراً ، وستنمو تلك المدينة وتكبر .
وتقدّم جوزيف محاولاً أن يثني شقيقه عن عزمه فقال :
— يؤسفني أن أشعر بأنني السبب في ارتحالك عنا .
ولم يجب بيرتون بل نظر الى الطفل ثم الى اليزابيت وخاطبها :
— ليس الخطأ في جوزيف وحده ، بل في أبينا من قبل ، ولم يستأصل الفساد ولا اقتُلعت جذور الشر ، لقد نما في أبينا حتى ملك عليه نفسه ، وكانت كلماته الأخيرة قبل وفاته خير دليل على ما وصل اليه من ضلال ، وقد عرفت ذلك فيك يا جوزيف قبل انتقالك الى الغرب ، ولو أنك انتقلت إلى ما بين أهل التقوى لكان ما فيك من شر قد انهزم وصلُحت نفسك ، ولكنك جئت الى

هنا ، حيث الجبال عالية والناس متوحشون ، وجميعهم يحملون بذرة الضلال في أفئدتهم وأرواحهم ، فقد رأيت الفيستا وفهمت دلائلها ، أما الآن فليس باستطاعتي أكثر من أن أصلي للرب أن لا يرث ابنك هذه البذرة من الفساد » .

— سأقسم لك على شرط أن تبقى ، وأنني وإن كنت لا أدري كيف احتفظ بقسمي دون حنث فيه إلا أنني سأقسم لك ، فأنتي كما ترى ، أنسى أحياناً فأفكر على الطريقة القديمة والتقاليد السالفة .

— لا يا جوزيف ، فأنت تحب الارض كثيراً ، ولا تفكر في عواقب ذلك ، وقوة اليمين لا تربطك .

وتحرك بيرتون صوب بيته فنادى عليه جوزيف :

— لا ترحل يا بيرتون قبل أن نعاود الحديث على الاقل .

فلم يسمع جواباً ، ونظر جوزيف الى زوجته فكانت مبتسمة وقالت :

— أظن أنه يريد الذهاب .

— نعم ، هذا من جهة ، وهو يخشى مغبة خطاياي ، من جهة أخرى .

— وهل تقترف الخطايا يا جوزيف ؟

— لا . أنا لا أعصي ، لو كان بيرتون يفعل ما أفعل ، لكان عاصياً ذا خطايا أما أنا فإني أحب أن يعشق ولدي الشجرة لا أكثر .

ومد يديه فتناول الطفل من مقامطه وأقعده بين مجمع أفراع البلوطة وهو يمسكه خشية أن يقع ، ورأى بيرتون ذلك من نافذة منزله ، ولاحظ كيف انحنت الاغصان تحمي الطفل بحنان .

- ٢٠ -

لم يطل بقاء بيرتون في المزرعة بعد أن قرر الانتقال ، فلم يمض أسبوع واحد إلا وكانت حاجياته محزومة جاهزة ، وفي احدى الليالي ظل منهمكاً في تسمير الصناديق وعقد أربطة حزم الفراش ، وعند الفجر وجده جوزيف في الاسطبل يهسّ ظهور الأفراس التي سيأخذها معه ، وكان توماس قد سبق كلاً منهما الى مذوده المعهود وقال توماس :

— هذا الحصان صدّام سريع التعب ، فدعه يستريح يا بيرتون كل بضع ساعات . وهذه الخيل التي انتقيتها يا بيرتون لم يسبق لها أن عبرت الممر ، فيمكن أن تضطر أنت لسحبها هناك ، ولكن بما أن الماء ضحل فلا أعتقد أنها تخشاه .

وقال جوزيف :

— يؤسفني أشد الأسف يا بيرتون أن ترتحل من عندنا .

فتوقف بيرتون عن همسّ قفا الحصان وقال :

— ولكن هنالك أسباب كثيرة ومقنعة لذهابي ، فزوجتي ستكون أكثر سعادة في المدينة الصغيرة ، حيث تتسلى مع معارفها وتكوّن لنفسها صداقات جديدة ، فنحن شبه منقطعين عن العالم ههنا ، وخصوصاً هربيت ، فهي منعزلة تماماً تشعر بالوحشة .

— أعرف ذلك يا بيرتون ، ولكننا سنفتقدك ، كما أن حالك هذا سيضعف قوة عائلة وابن .

— لم أرد اطلاقاً أن أكون فلاحاً ، وحتى عندما كنا في الشرق كنت دائماً أفكر في أن أفتتح دكاناً صغيراً في المدينة .

ثم قال بتأثر يمازجه شبه أسف وان كان فيه تصميم أيضاً :

— لقد فعلت ما فعلت لأنه يبدو لي صحيحاً ، بعد أن حاولت هنا ولمدة طويلة أن أعيش حياة معقولة ، فهنالك في الوجود قانون واحد ، وقد حاولت أن أطبقه في حياتي ، وهو قانون السماء ، تذكر هذا يا جوزيف ، فأنا أريدك أن تظل تذكره .

فابتسم جوزيف ابتسامة الأخوة العطوفة وقال :

— لست أحاول أن أثنيك عن عزمك يا بيرتون ، فهذه بلاد شاسعة وحشية ، إذا لم يحبها الإنسان ، لم يبق لديه إلا أن يكرهها . وليس لك من كنيسة تتعبد فيها هنا ، لذلك فإني لا ألومك حين تفضل أن تعيش بين الناس في مجتمع يحمل الكثير من أفراده مثل أفكارك .

— على كلٍ ، ها هو الضوء قد أطل ، ويجب أن أبدأ مبكراً .

وتجمع الرعاة والعمال والعائلات ليودعوا بيرتون حين يتحرك ركابه مع الفجر .

وقالت هرييت وفي صوتها رنة حزن :

— ستزورونا طبعاً ، فالمكان لطيف ، ويجب أن تأتوا لزيارتنا .

وأمسك بيرتون باللجم ، وحرّكها ، فاندفعت الخيل وقال والعربة تسير :

— تذكر يا جوزيف أنني على حق في تصرفي ، ربما لن تتحقق منه الآن ، ولكنك ستفعل يوماً ما ، فتذكر حينئذ نصيحة بيرتون .

وتقدم جوزيف ، فأوقف بيرتون الكارّة ، وربت جوزيف على ظهر أخيه وقال :

— لقد عرضت عليك أن أقسم ، وكنت سأحاول الحفاظ على قسمي .

وقرقر بيرتون ، فتحركت الخيل ثانية ، ووقفت راما تلوح لهم بمنديل في

يدها ثم قالت لاليزابيت :

ـ انهم يبلون من النعال في تلك المنطقة أكثر مما يبلى بعد الطواف بالعالم على القدمين .

وظل القوم يرقبون الكارة المرتحلة حتى غابت عن أنظارهم خلف التـــلة ، وشعرت العائلتان بالقلق وبأنهما تفتقدان شيئاً بعـــد ارتحال بيرتون وأهله ، وقالت مارتا :

ـ ولدت كلبتنا جراء جميلة .

فتراكض الأطفال يبغون التفرج على الجراء ومداعبتها ، ولم يكن هنالك جراء ، ومشى جوزيف وثوماس مطرقين ، فقال جوزيف :

ـ أتدري أنني المسؤول عن ذهاب بيرتون ؟

ـ لا ، لست أنت مسؤولاً ، هو يريده .

ـ كان ذلك بسبب الشجرة ، فقد قال إنني أعبدها ! انظر اليها يا ثوماس .

ونظر ثوماس فقال :

ـ ما لها ، حسنة ، طيبة ، كعادتها .

ـ ظننت شيئاً سخيفاً ، فقد تخيّل لي أنني أجد فيها سوءاً ، وان شراً قـد حلّ بها . اسمع يا ثوماس . لم أكن اريد أن يرتحل عنا بيرتون .

ومرّت اليزابيت من خلفهم فقالت متهكمة :

ـ لا زلت تمارس لعبتك يا جوزيف ؟

فلم يجب وإنما خاطب ثوماس :

ـ على كل حال ، سنحاول معاً أن نسيّر العمل دون ثالث لنا ، وإذا لم نستطع استأجرنا احد المكسيكيين .

وعاد جوزيف إلى البيت فوقف متكاسلاً في غرفة الجلوس وخرجت اليه اليزابيت من غرفة النوم ترتب شعرها بأصابعها فقالت :

ـ أكاد لا أجـــد وقتاً للعناية بمظهري . هل أنت متأثر من سفر بيرتون يا عزيزي ؟

– أظن ذلك ، إذ أنني أشعر بقلق لا أدري له سبباً .
– لماذا لا تركب فرساً تتنزه عليها ؟
– لا ، فلدي اشجار فاكهة ستصل إلى مدينة السيدة .
– لماذا لا تذهب هناك إذن ؟
– لا أدري ، فأنا أخشى الذهاب ، لا بد أن في الأمر شيئاً .
– لا تتنفس في لعبتك يا جوزيف ، لا تسمح لها بأن تستحوذ عليك .
– هـــذا ما افكر فيه . لقد قلت لك سابقاً أن باستطاعتي أن أتنبأ عن الطقس بمجرد النظر الى الشجرة ، فهي نوع من الاتصال بيني وبين الأرض ، انظري اليها ، هل ترين بها شيئاً ، هل تبدو لك عادية تماماً ؟
– نعم ، الشجرة على ما يرام ، كعادتها ، اذهب فاجلب أشجار الفاكهة ، وإلا ضرّها البقاء جافة الجذور غير مغروسة .. ولا تتعمق في التفكير .
وكان على غير رضى منه أن أعدّ جوزيف الكارة ليذهب بها الى المدينة .
وساق جوزيف خيله حتى شجرات الجميز على طرف الخندق في أعلى الهضبة وكان يداهمه بين الفينة والاخرى نوع من الشك والقلق فيقول :
– هل يمكن أن يكون بيرتون مصيباً في ما ذهب اليه من أمري ، ربمـــا كنت أتصرف خطأ ودون علم مني . إذ يبدو لي أن شراً يخيّم على الأرض والمزرعة ، ليت المطر يهطل مبكراً هذا الشتاء فيفيض النهر .
كان جوزيف يشعر بالحزن عندما يرى نهراً جافاً او غديراً غاضت منه الحياة وفكر : هل جفّ نهير الغابة يا ترى ، سأمر عليه في أحد الأيام .
وساط خيله مراراً وهو في طريقه الى المزرعة وأشجار الفاكهة محمـــلة في الكارة ، ووجد ثوماس ينتظره ، فقال الأخير :
– كنت سريعاً جداً يا جوزيف ، فلم أكن أتوقع عودتك بعد ساعتين .
– فكّ الخيل من فضلك يا ثوماس .
وأخذ جوزيف حزمة من الأشجار الصغيرة فربط أرومتها وسارع الى البلوطة وحدث نفسه :

– هنالك خطأ في الأمر .

ولمس لحاء البلوطة وقال :

– لقد أصابها شر .. فلا حياة في القشر .

وأعاد ولمس الأوراق والغصون .

– لا .. لا .. عادية تماماً .

كان من عادة اليزابيت أن تعدّ عشاء زوجها حين يدخل البيت ، فقالت :

– يبدو عليك الارهاق يا جوزيف . نم واستريح .

– لي حديث مع ثوماس بعد العشاء .

وما أن انتهى جوزيف من تناول طعامه حتى غادر البيت الى الاصطبل ثم سفح التلة القريبة ، وكان يفرك كدر التراب بيديه ، فيجده حاراً جافاً لا رطوبة فيه ، ووصل أجمة من اشجار البلوط الصغيرة ففرك بعض الأوراق في يديه وشمها ، كان يستطلع كل ما يصادفه عن صحة الأرض ، هل كانت الأرض معتلّة ؟ ولم يتوصل من جميع تحرياته الى استنتاج مقنع . فقد كانت الأرض جافة ولكنه شعر بأنها حيّة لا تزال ، وعاد الى بلوطته فخاطبها :

– كنت خائفاً يا سيدي ، فقد أخافني شيء في الهواء .

وربت على جذعها فاذا به يقول فجأة :

– أواه هذه الشجرة ميتة . لا حياة في شجرتي الحبيبة .

ودوّخه شعوره بالخسارة العظيمة ، فترنح جسمه ، وانتابه الذعر مما يجد ، تماماً كما انتابه مثله حين أحسّ بفقدان والده وهو في الطريق الى المزرعة أول قدومه ، وأحاطت به الجبال وحدجته النجوم بنظراتها القاسية لا ودّ فيها ولا حنان ، وتزحزحت الأرض من تحت أقدامه ..

وبدا له كل شيء عدواً لدوداً ، وهو يقف وحيداً أعزل ، صامتاً ، ميت النفس . وجلس مستنداً على عرق بلوطته وتحسسه ، كان يخاصمه ككل شيء آخر ، قبيحاً أشوه كأنه رمة صديق ، وفكر جوزيف :

– والآن ، ما العمل ؟ إلى أين أندار ؟

وخر نيزك على الأرض فهبش شعاعه ، وفكر جوزيف :

— ربما كنت مخطئاً ، وبيرتون مصيباً !

وعاد إلى البيت ينهشه القلق . ويحس وطأة العزلة القاتلة ، وضاجع اليزابيت وشدها بعنف بين ذراعيه كالوحش يريد أن يفترسها ، ولم تتحمل وحشيته فصرخت من شدة الألم ، وتلذذ بذلك الألم أيضاً وانتهى ، فقالت :

— لماذا تقتلك العزلة يا عزيزي ؟ لقد آلمتني كثيراً الليلة يا جوزيف .

— لم أكن أدري أنني أسبب لك ألماً ، أنا آسف جداً يا اليزابيت . يبدو أن شجرتي قد ماتت .

— تعني يبست ؟

— لا ، ماتت .

— كيف يمكن أن تموت ، فالأشجار لا تموت بسرعة .

— لا أدري ، وإنما ماتت .

وتظاهرت أليزابيت بالنوم ، وهي تعلم أنه قلق لا ينام ، وأحست به عند الفجر ينسل كعادته إلى الشجرة .

كانت أوراق البلوطة قد ذهب رواؤها ، وانكمش ماء الحياة من أغصانها وبدت حقاً كمن يحتضر ، أو من فارقته الحياة قبل لحظات بانتظار أن يوارى التراب .

وهناك وجد جوزيف أخاه توماس ، وتحسس لحاء الشجرة وقال :

— وحق القديس جورج إن في البلوطة سراً ، لقد مسّها أذى .

— ليس هنالك ما يؤذيها في هذه الأرض الطيبة .

وتناول توماس فأساً وضرب به الأرض حول عرق البلوطة ، مرتين اثنتين فقط . ثم تراجع مذهولاً وقال :

— أواه .. ها هو يا جوزيف ، انه هنا .

— ما هو ؟ .

— أنظر ، لقد عرقب بيرتون شجرتك ، ها هو قد حفر على عرقها من كل

ناحية وقطع كبار جذوعها أيضاً .

وتحرك جوزيف كمن به مس وقال في لهجة الملهوف :

ـ ألا يمكن أن نصلح ما أفسده بيرتون يا توماس ؟

ـ لن نستطيع ، فقد قطّع بيرتون عن الشجرة جميع شرايين الحياة .

وجلس جوزيف مغلوباً على أمره وقال :

ـ إذن هذا ما كان يعنيه بيرتون حين يقول انه على صواب ؟

ـ هذا ما أعتقده ويسرني أن أقتلع الجحيم من نفسه .

ـ لم يكن بيرتون متأكداً من أنه على صواب ، وانظر ماذا فعل يا توماس .

ـ يذهلني أمره ، فلم يكن من طبيعته أن يلتجىء الى مثل مـــا فعل من أساليب ، ألن تعاقبه ؟

ـ كلا ، سأتركه لعقاب ضميره .

ورشق جوزيف شجرته بنظرة فاحصة ثم قال في نفسه :

ـ أنا في حاجة الى الراحة والهدوء ، الى الروح التي تغمر ذلك المكان ، سأذهب حالاً الى غابة الصنوبر وأفكر في الأمر قريباً من الصخرة والينبوع .

٢١

حلّ البرد في أواخر الخريف ، وارتفعت السحب سوداء داكنة في كبد السماء ، وشعرت اليزابيت بالوحشة التي يشعر بها المرء في مقتبل الشتاء ، وكثيراً ما كانت تجلس على (المصطبة) وتنظر الى شجرة البلوط فترى أوراقها الصفراء تنتظر أول زخة من المطر لتتساقط ميتة على الأرض. أما جوزيف فلم يعد ينظر الى شجرته ، فقد زالت كل عاطفة لها في قلبه منذ أن تحقق يبسها ، وكان كثيراً ما يخرج عاري الرأس يرتدي بنطالاً خشناً وصديرية من الجلد ، يخرج الى سفوح التلال يستكشف الطقس فلا يجد ما تطمئن اليه نفسه .

وقال لثوماس مرة :

— لا مطر في هذه الغيوم يا ثوماس ، إنها مجرد ضباب من المحيط .

— لم يحن وقت المطر بعد ، فأنا أعلم ان المطر لا يسقط مبكراً في هـــذه المنطقة ، وليس من العادة أن يسقط قبل حلول عيد الميلاد ، ولا يهم إذا كان قد حدث ذلك في العام الفائت .

وأخذ جوزيف حفنة من التراب الجاف في يده ففركها وقال :

— ستحتاج مطراً غزيراً قبل أن تستفيد الارض ، فقـد امتص الصيف ماء الشتاء الماضي ، هل لاحظت انخفاض مستوى البئر يا ثوماس ؟

— نعم ، شممت رائحة الأسماك وحيات البحر الميتـــة في البرك . انظر ،

سأبقي هذه القبعة من الجلد فوق رأس هذا الصقر ليظل أعمى حتى اطلقه للصيد، فيأتيني بالبط ، أوليس هذا خيراً من أن أطلق عليها النار ؟

— نعم .. نعم .

وانقضى تشرين الثـــاني دون أن تنبلّ ورقة شجر ، وأقلق ذلك جوزيف أشد القلق ، فكان يركب الى الغدران وعيون الماء فيجدها جافة عطشى ، ويغرس مجسّه عميقاً في التراب ثم يخرجه ولا أثر للرطوبة عليه . وأخـــذ لون التلال يسودّ بعد أن زال ما كان يكسوها من حشيش، والصوان الأبيض يتلامع، وربما طار منه الشرر ..

وانتصف كانون أول ، وتبعثرت السحب ولم تقع على الأرض نقطة مطر ، وظلت حرارة الشمس قاسية لم تخفّ ، وبدا ان صيفاً جديداً أخذ يقترب .

لاحظت اليزابيت كيف كان القلق يفترس زوجها فينحل بدنه وتزوغ عيناه وتغوران في محجريها ، بياضها ضارب الى الصفرة البائسة ، عروق جبهته نافرة، ويداه معروقتان ، طاوي البطن ، شبه مقوس الظهر ، وعضلات ساقيه مشدودة متوترة . ومجمل القول ، شاخ جوزيف وطعن في السن خلال اسبوعين .

وحاولت اليزابيت أن تشغله فيتسلى ويسلو ولكن دون جدوى ، فطلبت اليه كرسياً تساعد الطفل على الوقوف ، وملابس جديدة ، وخزانة في المطبخ ، فكان يأتيها بما تطلب قبل أن تتذكر حاجة اخرى . وأرسلته مرة الى المدينـة فعاد وتحته حصان يرشح عرقاً . وسألته :

— لماذا عدت بمثل هذه السرعة فكدت تقتل الحصان ؟

— لا أدري .

وكان يتضخم في رأسه شعور غريب ، شعور مقلق ، شعور بأن سنيّ القحط قد ذرّت قرنها ، وانحباس المطر أول بشائرها. فها هو التراب يتحول الى غبار، ولا تتغير الحرارة في الشتاء عنها في القيظ ، والتلال جرداء ، وقـــد أخذت الأبقار يصيبها الهزال ، وحتى اليزابيت التي ظلت دائماً في خير صحة ونشاط ، هاجمها سعال عنيف .

لاحظ جوزيف كل ذلك دفعة واحدة ، فأصابه الغم والهم ، واستولت عليه الحيرة ، وداهمه القلق ، فكان يحرك يديه دائماً ليسعد أفكاره ، مرة بتقصيف الأصابع ، وأخرى بمشق الأغصان بالموسى ، وثالثة بعجرة فرقعة أصابعه . وكان ينظر الى أرضه تموت ، يجف منها ماء الحياة ، وتصبح غباراً يتطاير في أعالي الجو ، فتضاربه الدهشة وينتابه الصداع ، وينظر الى التلال ، فلا يرى فيها حياة إلا غابة الصنوبر ، تتايل أشجارها هازئة به وبأفكاره وبالحياة .

أما اليزابيت فكانت منهمكة في المطبخ أكثر الوقت ، بعد أن ذهبت اليس الى مدينة السيدة حيث تظل عند أهلها حتى يعود زوجها الغائب . فهي تعتني بـ (جون) وتعد طعام جوزيف وتقوم بخدمة البيت ، وكانت لا تألو جهداً وهي تحاول إدخال السرور الى قلب زوجها ، وإعادة الالفة بينهما كما كانت قبل ولادة الطفل . فتحدث جوزيف عن أيام طفولتها في مونتيري وصباها في مدينة السيدة ، ومشاعرها حين تقدم يخطبها ، وغير ذلك . ولكن الرجل يظل ساهماً غائب الفكر حاضر الجسد . وقالت له مرة :

— كان لي كلب اسمه كاميل ، وكنت أعتقد أن هذا الاسم أحب الأسماء الى قلبي ، فقد كانت لي صديقة تحمل الاسم عينه ، وكان جلدها ناعماً كأنه زهرات الكاميليا ، فأطلقت اسمها على كلبي ، ولكنها غضبت جداً واعتبرت ذلك مني إهانة لها .

وحدثته عن رجل اسمه تابري قتل كركياً ثم علقه كالمشنوق ، وعن عجوز شمطاء تحرس الفنار في ميناء جو .

وكان جوزيف يلذ له أن يسمع صوتها ، ولكنه لا يصغي لما تقول ، ويأخذ يدها فيربّت عليها مستحسناً . وكانت اليزابيت تحاول أن تناقشه وتجادله أحياناً لتبعد عنه الخوف الذي يستولي عليه فتقول :

— لا يصيبك الهم من أجل احتباس المطر يا جوزيف فأنا أدرى بهذه المنطقة منك ، لقد ولدت فيها ، وحتى إذا لم يسقط المطر غزيراً هذا العام فإنه سيفعل في الشتاء القادم ، لا تقلق .

– ولكن الأرض تحتاج مطراً غزيراً حتى ترتوي ، فإذا لم يبـــدأ سقوطه مبكراً ، فلا فائدة منه اذا تأخر .

وقالت له ذات مساء :

– أود أن أركب فرساً يا جوزيف ، وراما تقول إنه لم يعد عليّ من خطر لو فعلت فهل ترافقني ؟

– طبعاً . اركبي مسافة قصيرة أول الأمر ، ولن يصيبك أذى فيما بعد .

– أود ان أركب الى غابة الصنوبر ، فرائحة الأشجار هناك حلوة مفيدة .

– وأنا أيضاً فكرت في زيارة الغابة لأرى هل غاض ماء الينبوع كغيره .

واستعاد جوزيف في مخيّلته صورة الينبوع والصخرة العاتية ، والطحلب الكثيف الأخضر وقال :

– لا أظن ذلك ، فالينبوع عميق غزير الماء ، ولا أدري أنه من الممكن أن يفوز .

– أوه ، لدي أسباب أقوى من ذلك تدفعني أن أذهب ، فأنت تذكر أنني سبق وحدثتك بالأمر . لقد غافلت توماس مرة وذهبت الى الغابة وأنا حبلى ، ورأيت الصخرة ونفحت بعض ماء الينبوع .

وقطبت اليزابيت حاجبيها محـــاولة أن تتذكر حقيقة مشاعرها في تلك اللحظة وقالت :

– طبعاً .. كانت حالتي النفسية هي المسؤولة عما حدث ، فقد كنت ، على درجة عظيمة من الحساسية لا أدري سببها .

– نعم ، اكملي ، أخبريني ماذا حدث .

– حسناً ، كانت الأشياء الصغيرة تبـدو ضخمة في عينيّ وأنا حامل ، ولم أعثر على الممر المؤدي الى الساحة فنفذت من بين الشجيرات حتى وصلت الحلقة المستديرة ، فكانت هادئـة ساكنة ، أعظم هدوءاً من كل شيء في الوجود ، وجلست مقابل الصخرة ، وبدا لي أنها تمنح شيئاً أنا في حاجة اليه .

واستعادت اليزابيت شعورها السابق ، فغارت عيناها وأكملت .

– لقد أحببت الصخرة أكثر من حبي لك وللطفل وحتى لنفسي ، وأعجز الآن عن مقدار حبي لها ، ويزداد لي أنني دخلت في جوف الصخرة وكان الشر يذبح مني أنا ، فقد كنت الصخرة ذاتها ، وكانت الصخرة .. لا أدري كيف أقولها .. كانت أعز شيء في الوجود على قلبي » .

ونظرت اليزابيت بعصبية في الحجرة ، فقد فرض ما كانت تود أن تقوله لتسلية نفسه عليها ، ولاحظ جوزيف عصبيتها فأخذ يدها وربّت عليها وقال :

– اكملي ، حدثيني .

– حسناً ، لا بد أنني ظللت هنالك مدة طويلة ، لأن الشمس مالت للمغيب ، مع أن كل ذلك ظهر لي كلحظة واحدة .

وتغيّر صوتها بما ينم عن الرعب ، وقالت :

– ثم تغير الجو ، وخيّم الشر على الحلقـــة ، وبدا لي أن الصخرة تود أن تفترسني ، تمزقني بأنيابها كالوحش الكاسر .

فتراجعت وأنا مرتاعة ، أخشى أن تنقض عليّ تلك الصخرة اللعينة ، وخرجت من حدود الغابة فحمدت الرب على نجـــاتي من شرها وصلّيت ثناءً وشكراً .

– إذن لماذا تودين العودة اليها يا اليزابيت ؟

– ألا ترى ؟ لقد كان الأمر كله ناتجاً عن حالتي النفسية حينذاك ، وقـــد أزعجني الاحلام بخصوصها ، والآن ، وما دمت قد استعدت صحتي فإنني أبغي العودة لأرى أنها ليست أكثر من صخرة يغطيها الطحلب ، فلا أعود أحلم بهـــا ثانية ، ولا تعود هي تهدّد راحتي . أود أن أتحسسها وأن أبدي احتقاري لهـــا حتى لا تعود تخيفني بعد الآن .

وسحبت اليزابيت يدها من يد جوزيف وقالت :

– لقد آذيت أصابعي يا جوزيف ، ما لك ، هل أنت خائف من الصخرة أيضاً ؟

– لا ، لست خائفاً ، سآخذك هناك .

واحتار جوزيف في تفكيره ، هل يخبرها بحديث جوانيتو له عن حبالى

الهنود وسكان الغابات القدامى ، أم أن ذلك يفزعها ، ومن الخير أن تتخلص من رهبتها من المكان،وأخذ حفنة من قشور الخشب فألقى بها في الموقد، وقال:

— متى ترغبين الذهاب ؟

— في أي وقت، إذا جاء النهار مشمساً غداً ، أعددت غداء نأخذه . وراما تعتني بالطفل . تذكرُ يا جوزيف أننا لم نقم بنزهة معاً منذ أن قدمت الى المزرعة بعد الزواج ، مع انني احب النزهات كثيراً ، فقد كان من عادتي أن أرافق امي الى هضبة (هيكل بري) ، حيث نقضي سحابة يومنا ثم نجمع سلالا من ثمار العليق قبل عودتنا الى البيت في مونتيري .

— اذن نذهب غداً ، وسأهبط للاطمئنان على الخيل الآن يا عزيزتي .

ولدى مغادرته الحجرة ، أحست اليزابيت بأنه يخفي في دخيلة نفسه عنها شيئاً غامضاً قدّرت أنه القلق من جراء احتباس المطر ، ونظرت بفعل العادة الى وجه البارومتر فوجدت الابرة تؤشر الى أعلى ، أي أنه لا مطر .

مرّ جوزيف ببلوطته وفكر :

— آه لو كانت حيّة لكنت الآن على بيّنة من أمري ، أما الآن وقد يبست فأنا في حيرة لا رأي لي فيها .

وتابع طريقه الى الاصطبل وهو يتوقع أن يجد ثوماس متكئاً بجوار مذوده ، ولكن الاصطبل كان مظلماً لا أحد فيه . ودخل جوزيف فنخرت الخيل وقال :

— لقد خزنّا من البرسيم ما فيه الكفاية .

وعند فجر اليوم التالي هبط جوزيف من غرفة النوم ومر ببلوطته فلم يلتفت لها وسار نحو الاصطبل ، فأخذ يهس زوجاً من الخيل ويجدّل معارفها ثم طلى حوافرها ولمّع السرجين بالزيت ، ودخل توماس عليه وهو منهمك في عمله فقال :

— أذاهب الى المدينة ؟

— لا وإذا استطعت اليزابيت في نزهة قصيرة ، فقد اشتاقت الركوب طويلا عهدها به .

— ليتني أستطيع مرافقتكما ، ولكن لدي عمل لا بد من انجازه ، سآخذ الرجال معي لنحفر نفراً في الأرض ، إذ ربما أتعبنا توفير الماء للقطيع بعد مدة قصيرة .

— اعرف ذلك . احفروا في مجرى النهر ، اذ لا بد أن ينبجس الماء هناك على عمق بضعة أقدام .

— سنمطر عما قريب يا جوزيف ، فأنا أشعر بذلك ، كما أشعر الآن بجفاف حلقي من أثر الغبار الثائر .

أسرج جوزيف الحصانين وسحبهما إلى باحة البيت ونزلت اليزابيت وفي قدميها حذاء الركوب ذو الكعب العالي وفي يدها حقيبة متوسطة الحجم ، فساعدها جوزيف على الركوب وشرعا مسيرتهما ، وقال جوزيف :

— كان من الأفضل لو جلبت معك دثاراً يا اليزابيت يقيك الحر .

— لا أظن انني سأحتاجه ، فالفصل شتاء وقد ضعفت حرارة الشمس .

وساعدها جوزيف على امتطاء صهوة جوادها ، وداخلها السرور عندما لامس جسدها السرج ، وربتت عرف الحصان بحنان وقالت :

— إني أشعر بالغبطة لتمكني من الركوب ثانية . .

— أين تودين الذهاب أولاً ؟

— حسب ما ترى .

— لنصعد ذلك التل ، فمن أعلاه تظهر مياه المحيط وأعالي أشجار الغابة معاً .

— حسناً .

وسارت الخيل ترفس الحصى بنعال حوافرها ، واليزابيت جذلى لأنها عادت تمارس الركوب ثانية . وقالت :

— هل تذكر يا جوزيف كيف كانت أخاديد الأرض مترعة بالماء في العام الماضي ؟

— نعم .

ولاحظت الاغتمام في جوابه فتداركت قولها :

— وستترع به عما قريب يا جوزيف .

ومرا ببقرة عجفاء ميتة على قارعة الطريق ، ينغل كرشها بالدود والحشرات والبزاة تنهشها من كل جانب . فقالت اليزابيت :

— أرجو أن لا نمر بهب رائحتها يا جوزيف .

— انظري الى هذه البزاة ، انها لا تدع اللحم ينحل ، بل تلتهمه قبل ذلك ، وهي تحيط بالحيوان المائت وهو لا يزال يحتضر ، فتنقض عليه لحظة أن يموت كأنها تعرف تلك اللحظة .

وزاد انحدار التل ، ووصلا الى شجيرات المريمية ، وقد تساقطت أوراقها الجافة ، ووقفت أغصانها جرداء يشعة . وارتفعا الى قمة التل فظهر المحيط أزرق فيه اسوداد ، كأن مياهه صفائح الفولاذ ، وقالت اليزابيت :

— اربط الخيل يا جوزيف . دعنا نستريح قليلا ، فأحياناً أسمع هدير أمواج المحيط وأنا نائمة ، وأرى بصيص نور الفنار ، وأحياناً اخرى أسمع دقات أجراس العوّامة القريبة من الشاطىء هناك . لا بد ان دقات تلك الأجراس عميقة الأثر في نفسي ، فهل تدري ماذا يعني ذلك ؟

— لا ، لم يسبق لي ان عانيت مثل هذا كي افهم تفسيره .

— عندما اسمع مـــا وصفت لك ، اشعر بالحنين الى مونتيري يا جوزيف ، ولكني اشعر ايضاً بأن هذا الوادي قد اصطادني فلن يسمح لي بالخلاص منه .

— زوري مونتيري يا اليزابيت ، سآخذك حينما تشائين .

— لن أجد البلدة كما عهدتها يا جوزيف ، فأنا الآن إنسانة اخرى .

وشمّ جوزيف باطن يده وقال :

— أشم رائحة الملح ، ما كان لي ان آتي بك الى هـــذا المكان فأجلب لك كآبة الحنين .

— إنه حزين لذيذ يا جوزيف ، حزين يسرني ، وإن كان مـــا أقوله غريباً . هل نتناول غداءنا هنا ؟

— أتشعرين بالجوع ؟

— نعم ، من عادتي ان اشعر بالجوع في نزهاتي ، هكذا كنت في مونتيري .

— إذن كما ترين .

ومشى جوزيف الى احد الحصانين ففكّ الحقيبـــة من سرجه وأحضرها ، وفتحتها اليزابيت فأخرجت شطائر تناولت قسماً منها الى جوزيف وأخـــذت تلتهم واحدة منها ، ونظرت الى الضباب فوق الشاطىء وقالت :

— ربما أمطرت السماء هنا الليلة .

— إن ما ترين مجرد ضباب لا خير فيه .

— أتذكّر أشياء كثيرة يا جوزيف ، تدق في رأسي كأنها الطبول احياناً ، وتقرقر كأنها ديكة البط اخرى ، ولذا اذكر كيف ان الايطاليين يخرجون الى صخور الشاطىء ومعهم الخبز ، فيلتقطون قنـافذ البحر ويفردونها على ارغفتهم ويأكلونها ، اما ذكور القنـافذ فهي حلوة لذيذة الطعم ، اما الإناث فحامضة — اعني إناث القنافذ — لا الايطاليات .

وضحك جوزيف من النكتة وقال :

— أظن من الأفضل ان نركب الآن يا عزيزتي ، وإلا طال بنا الغياب . هل لا زلت تودين الذهاب الى غابة الصنوبر ؟

— طبعاً ، وإلا ما الغرض من مجيئنا ؟ يجب ان (اخرمش) الصخرة .

وشاهد صقراً يهوي فيرتطم بالأرض ثم يرتفـع وفي مخالبه أرنب يصرخ من الألم ، وكان الصراخ حاداً نفّاذاً لم تتمالك اليزابيت عند سماعه أن تفلت اللجام وتسد اذنيها بأصابعها حتى يزول أثره ، وقالت :

— انني أعلم ان لا فائدة من ذلك ولكنني اكره سماع صراخ الألم .

— لقد أخطأ الصقر هدفه ، وكان يجب ان يكسر عنقه في (النقرة الاولى) حتى لا يصرخ .

وركبا حتى وصلا الى الصف الخلفي من اشجار الغابة فترجلا وقال جوزيف:

— يجب ان نربط الخيل فليس المكان بعيداً .

واخترقا الغابة حتى الينبوع ، ورآه جوزيف ، فسرّه وجود الماء وقال :

— لم يجف بعد ، وإنما انخفض مستوى الماء فيه قليلا .

— هل يسرك هذا ؟

— نعم ، فهو أول غدير لا أراه جافاً منذ شهور ، وما دام المـــاء فيه فان الأرض ليست ميتة بعد لأنه كالشريان يضخ الدم الى جسدها .

— لا تفكر هكذا يا جوزيف . ألا ترى السماء داكنة سوداء ، لن يدهشني ان تهطل بالمطر بعد دقائق معدودات .

— مجرد ضباب لا تنخدعي .

وظلا سائرين باتجاه الصخرة ، وقالت :

— لا بد انه ينبوع غزير وعميق حتى يظل يجري بينما جفت امثاله .

— ولا بد ان الصخرة مسامية حتى تمتص الماء ليرتوي الطحلب .

وأقعت اليزابيت ونظرت في داخل الكهف الذي يخرج منه الينبوع وقالت:

— لا شيء ، مجرد نقر عميق في الصخرة ورائحة الارض المبتلة .

ووقفت فربتت الطحلب الناعم وقالت :

— طحالب جميلة ، انظر ما أطولها يا جوزيف .

واقتلعت ملء يديها من الجذور ومدته تُري جوزيف ، ثم قالت :

— لن احلم بك ايتها الصخرة بعد الآن .

كانت السماء داكنة والشمس قد شارفت المغيب ، وارتجف جوزيف وقال بلهجة الخائف :

— دعينا نعد الى البيت يا اليزابيت ، فالبرد قد حلّ .

— سأرتقي الصخرة اولاً ، فأذلها .

وغرزت لقدمها موطئاً في الطحلب ، وأمسكت بيدها طحالب اخرى من على ظهر الصخرة وهمّت تودّ الصعود .. خطوة اولى، وثانية ، وصاح جوزيف:

— اسفري ان قرلق قدماك .

وانخلع الطحلب من مكانه ، ورأى جوزيف رأسها ترسم قوساً في الفضاء ثم تصطدم بالأرض وتستقر عليها بلا حراك .

فركض نحوها ، وانداربت بحيث رقدت على جانبها ، وانتزع جسدها بعنف شديد لحظة واحدة ثم ارتخى وسكن الى الأبد .

ووقف جوزيف أمامها لبرهة مشدوهاً قبل أن يجري الى الينبوع ويغترف منه ملء راحتيه ، ولكنه فيما هو عائد ترك الماء يتسرب من بين أصابعه .. لقد صدمه الرضع الذي أخذه عنقها والصفرة التي غشيت وجنتيها .

جلس جوزيف شارد اللب الى جانبها ، ثم أخذ يدهـا بحركة ميكانيكية وفتح أصابعها المنقبضة فوجد اليد ملأى بأوراق الصنوبر الابرية ، وتحسس نبض معصمها ولم يكن من نبض ، فمدّ يدهـا على طولها ، وكأنه يخشى أن يوقظ من كانت زوجته من غفوتها وقال :

— لست أدري سرّ هذا .

كانت برودة الموت قد أخذت تنتقل اليه فقال :

— يجب أن أقلبها على وجهها .. يجب أن آخذها الى من كانت أمه .. يجب أن تراها من كانت لها سلفة .

ونظر جوزيف الى الآثار التي تركتها أقدام اليزابيت على طحلب الصخرة ، وقال :

— لقد حدث ذلك ، ببساطة ، وسهولة ، وسرعة !..

وكان يدرك أن عقـله عاجز عن تصور وقوع ما وقع . وحاول أن يستعيد في ذاكرته قدومها ، ولكن كل مظاهر الحياة لديه ، توقفت عن نشاطها في لحظة واحدة ، فلم تتوارد الى رأسه الآراء ولا القدرة على الإحساس ، وشُلّ فيه كل شيء وألجمه هدوء تام عن الحركة والتفكير ، فوقف جـامداً ، ولم يشعر بالحزن ولا الأسى لأنه عاجز عن أن يشعر . كان في حـالته تلك إنساناً ليس كبني

الانسان ، كان كورة تراب او حجراً في مقلع ، نعم إن له جسم إنسان ، ولكن مشاعره معدومة ، كان كالأرض حقاً .

وتساقطت بعض القطرات على جبهته ، ورفع رأسه فوجد رذاذاً خفيفاً وقع بعض نقاطه على وجنتي اليزابيت وتلامع بين خصلات شعرها ، فقال :

— وداعاً يا اليزابيت ، وداعاً الى الأبد ...

وما كادت الكلمة الأخيرة تنسل من شفتيه حتى عاد جوزيف الى شبه غيبوبته عن الشعور ، فلقد تأثر قليلاً لأن المطر أنطفه . وكانت تلك اللحظة هي الوحيدة التي يمكنه أن يتصل بروحها فيها ففعل ! أما وقد زالت تلك اللحظة فقد عاد الى حاله .

ظل الرذاذ يتساقط فيثير دوائر صغيرة من الغبار . وسمع جوزيف الينبوع حين تقع على سطح مائه نقـــاط الرذاذ ، قبل أن يتوارى في الأدغال ! وظل جالساً الى جانب جثة زوجته لا رغبة له في القيـام وقد لفّه سكون شامل في الجو وسلام سالب في رأسه .

وأخيراً نهض فربّت على الصخرة وقال :

— الآن ، أنتما اثنين ههنا ، وسأعرف أين يجب أن أزور .

ويعني بذلك ان روح والده وزوجته قد انتقلتا إلى الصخرة ، فعليه أن يزورها ينشد السلوان او يشاركها مقرهما الأخير .

وابتلّت لحية جوزيف ، وسال المطر داخل قميصه ، فحمل اليزابيت وأسند رأسها المتدلي الى كتفه ، وغـادر المكان بحمله حتى وصل حيث تقف الخيل في الأرض المكشوفة ، ورأى قوس قزح بدا له سمحاً في الشرق ، وقـــد ارتكز طرفاه على سفوح التلال . وفكّ جوزيف رباط حصان اليزابيت وأطلقه كي يتبع حصانه ، ثم ركب حصانه وهو يحمل الجثة وسار باتجاه المزرعة .

كان المطر قـــد توقف ، فتلامعت ألواح زجاج نوافذ البيوت في المزرعة ، وانقشعت الغيوم منسحبةً الى المحيط ، وتذكر جوزيف الايطاليين بأرغفتهم على

الصغير يلتهمون تتافه البحر ، ثم انتقل الى شيء آخر قاله اليزابيت من أن هوبترس قد عاش قبل المسيح بحوالي تسعة قرون ، كرر « قبل المسيح ، قبل المسيح » ثم قال: أيتها الأرض الطيبة ، والمروءة الخصبة ، ستشعر راما بالأسف العظيم ، لأنها عاجزة عن ان تعرف ، ان القرى تتجمع وتتركز فتتعدد في قوة واحدة هائلة ، وظلت أفكاره تتنقل فيما يشبه الهذيان من هول مُصابه ، وأرهقه حمله وأطبق جفنيه نصف إطباقة وقال :

— نعم ستأسف راما ، ولكنها ستساعدني في العناية بالطفل .

وجاء ثوماس يستقبل جوزيف ، وكان على وشك ان يسأله لولا ما رأى على وجهه من تجهم وعبوس . فاكتفى بأن تلقّى بيديه جثة اليزابيت وظل صامتاً ، وترجّل جوزيف فربط حصانه وحصانها الذي كان يتبعه ، ثم قال :

— زلقت قدمها فسقطت .

ولاحظ أن ذلك لم يشبع فضول ثوماس فأضاف :

— كانت سقطة بسيطة ، وأعتقد أن عظم رقبتها قد انكسر .

وجف حلقه فتوقف ، ثم قال :

— لقد جربتُ ان تتسلق الصخرة في غابة الصنوبر ...

وتقطعت انفاسه ، واستعادها :

— وانخلع الطحلب .

وغصّ ، ثم تابع :

— مجرد سقطة بسيطة ، لا يمكن تصديقها ، ظننت اول الأمر أنها مغمى عليها ، فجئت بالماء من الينبوع قبل أن أرى ...

— لا تتحدث هكذا يا جوزيف ، هدّىء أعصابك . اذهب حيث تريد ولا تبقى ههنا ، فسأعتني بكل شيء ، اركب الى مدينة السيدة واسكر .

وتقبل جوزيف هذه الأوامر فقال :

— سأمشي بمحاذاة النهر ، هل وجدتم ماءً في حُفركم اليوم ؟

— لا ، يا جوزيف .

واندار ثوماس يحمل الجثة نحو بيته ، وأخـذ يصرخ ، لأول مرة في حياته كما يذكر .

ورآه جوزيف يفعل ذلك فأسرع الى مسيل النهر مبتعداً ، وتطلع الى السماء أثناء سيره فرأى الغيوم التي أمطرت قبل قليل قـــد زال كل أثر لها وأحسّ بالشمس حارقة تلهب قيعان الأودية وتلسع سفوح التلال ، وتذكر أن هنالك بركة على جانب المسيل فقال يحدّث نفسه :

— لا يمكن أن تكون تلك البركة قد جفّت ، لأرى .

وظل يسير ، صاعداً في الوادي حوالي ميل حتى قـــدم البركة فوجد فيها بعض الماء الآسن وكان قليلاً نتن الرائحة ،وعلى جانبه مجموعات من عظام الحيوانات البرية وكثير من سلاحفها .

كانت تحيط بالبركة صخور عالية من احد جوانبها فتسلق جوزيف احداها وتربع ممسكاً بيديه ، وأخذ ينظر الى حيات الماء سمراء تسبح في المستنقع تحاول اصطياد شيء تلتهمه . وعنّ له أن يتذكر احداث يومه فأخذ يستعيدها ، كيف خرج مع اليزابيت للنزهة ، وكيف تناولا غداءهما على قمة التلة بجانب الاخدود ثم هبطا عن السفح الى غابة الصنوبر ، وكيف وصلا الحلقة المكشوفة وتقدما الى الصخرة فحذّرها منها ، وحاولت ان تتسلقها فنبهها الى امكانية الزلق وأخيراً كيف ركض الى الينبوع يغترف المـاء وسكبه على الأرض عندما لاحظ احتقان الدم في وجهها ووضع انثناء رقبتها .

تذكر جوزيف كل ذلك ، ورنّ في سمعه كلمات جديدة ، تذكّرها تقول :

— هذه هي العاصفة يا جوزيف .

ففكر ..

— نعم هـذه بداية شيء اعرفه ، فهنالك قحط دوري هنا ، ينيخ بكلكله كل فترة ثابتة لا تتغير ، تنقضي سريعة كالعجلة الدائرة .

وسمع جوزيف شخيراً ، فتقدم الى حافـــة الصخرة ، حيث رأى خمسة خنانيص هزيلة ، يسوقها خنزير كبير قـــد تقوّست ناباه الضخمتان ، وكانت

الخنانيص تقترب من البركة الآسنة لتتخطاه حيات الماء قتأكلها ، وتراوغ الحيات وتنزلق بساعدها في ذلك ليونة جسمها ولزوجة تغطي بها جلدها ، ولكن الجوع يشحذ أنياب الخنانيص ، فقد أمسك اثنان منها بحية واحدة وشدها كلٌ الى جهة فانشقت بينهما وأخذ الواحد منها يزدرد حصته ، وأطلّ على الرهط أسد عجوز هزيل ، ضمرت خاصرتاه بعد أن أضرّ به الجوع ، وكانت لبدته الصفراء قصيرة الشعر تتاوح ، ووثب الأسد على احد الخنانيص فأمسك به ، وأخذت الفريسة تصيح بما يمزق نياط القلوب ولكن الأسد معتاد على ذلك أولا ، والجوع لا يرحم أمعاءه ثانياً ، ولم يكن الخنزير الكبير كفؤاً للأسد ، فشخر منهياً خنانيصه وانسل منها أربعة فقط وراءه الى الأدغال .

وفكر جوزيف :

— لو كان معي بندقية لأريتك أيها المعتدي جزاء عدوانك ، ولكان في ذلك نهايتك وبداية الحياة لغيرك ، ولكن لا بندقية معي فانعم بوليمتك .

وقام جوزيف فهبط عن الصخرة وسار بين الأشجار وفكر :

— عندما تجف البركة ، ستكون هذه الوحوش أمام طريقين ، إما الموت عطشاً أو الانتقال إلى ساحل المحيط ، ولكن كيف الحال مع قطيعنا بعد أن يجف الماء !

واتجه جوزيف صوب المزرعة ، وشعر بأنه يخشى الليل بعد أن كان الليل في السابق حبيبه ، كما أحس باتصاله الوثيق بالأرض في تلك اللحظة ، إذ كان اتجاهه الى المزرعة أتوماتيكياً لا ذرّة لإرادته فيه .

ولاح له ضوء فانوس ، وسمع وقع مطرقة ، فأتى الى البايكة حيث وجد توماس يعدّ تابوتاً ، فقال :

— أليسَ صغيراً ؟

— لا ، فقد . كِلتْتُه .

— رأيت أسداً يقتل خنوصاً يا توماس ، خذ الكلاب واقتله وإلا نهب منا العجول .

— سأفعل .

— هل تذكر يا توماس حديثنا يوم بنجي ، لقد قلنا ، يحتاج المرء قبوراً في أرضه كي يشعر بأنها له ، ألا ترى ما أعظم صدق ما قلنا . حقاً . حقاً . .

— صحيح ، سيحفر جو وعمانويل القبر غداً ، فأنا أكره أن أحفر قبورنا

— هل أنت متأكد من أن التابوت يسعها ؟

— نعم ، فقد قسته .

— أرجو يا توماس أن لا تسوّر القبر ، فأنا أريده أن يندثر بأسرع ما يمكن .

وعبر جوزيف باحة المنزل حيث سمع الأطفال يقولون (ها هو) فتردد عليهم مارثا : لا تخاطبوه أبداً ، لا تقولوا له كلمة واحدة .

وصعد جوزيف إلى حجرة الجلوس في بيته المقفر فأشعل الفوانيس وشبّ نار المدفئة وجلس وحيداً بلا اليزابيت تملأ بيته بهجة وحبوراً ، ولكنه لم يشعر بذلك فهو عاجز عن الشعور بالحزن أو السرور على السواء .

وكانت ساعة الحائط التي عبأتها اليزابيت لا يزال رقاصها يتحرك وهي تبعث (تك . تك) مذكرةً إياه أن قوة ذراع اليزابيت هي التي تتحرك ، كما كانت أقمطة الطفل المبتلة لا تزال معلقة فوق المدفئة ، تلك الأقمطة التي علقتها اليزابيت لتجفّ ولم تجف بعد ، مع أن الحياة قد جفت من عروق مَن علّقتها .

وفكر جوزيف :

— لا زال لها أثر ، ولا يموت الإنسان مـا دام له أثر لم يمت ، وها هي آثار اليزابيت لا تزال كما هي ، إذن فاليزابيت لم تمت بعد فالموت عملية بطيئة يمر بها الانسان ، فالبقرة تموت بمجرد أن يؤكل لحمها ، أما الانسان فيموت كحركة الماء في بركة يلقى فيها بحجر ، أمواج صغيرة ، تكبر وتكبر وقوة اندفاع تتلاشى وتتلاشى حتى تزول على حافة الحياة .

وخفض فتيل الفانوس ، حتى كاد يغمر البيت الظلام لولا شعاع أزرق ضئيل ، وجلس جوزيف على كرسي كبير أمام المدفأة يحاول تنسيق أفكاره ولكنه لم يفلح ، فقد تشعبت تلك الأفكار متشابكة الصور مبعثرة الأخايل .

ونظر الى ساقيه وذراعيه ، فإذا هما قد تقشرتا . لم يعد يستطيع تمييز أحجام الأشياء .

. . بدت له ذراعه سلسلة جبلية عاتية ، تنحدر الى كفه لتتفرع الى خمس سلاسل اخرى صغيرة ولكن فيها خشونة الصخور ، تلك عظام أصابعه ، وتشقها وديان عميقة جافة ، تلك فتحات ما بين أصابعه ، وتجمعها كلها طبقات صخرية صلبة ، تلك هي المرفق .

وفي راحته ، رأى حقولاً ومروجاً مبسوطة ، قامت فيها بيوت صغيرة على نسق بيوت مزرعته .

وبدا له جسمه كالأرض بما عليها ، ثابت راسخ في القدم ، منذ ملايين السنين ، فيه قوة تدك المدن وتحرق الغابات وتميت الحياة بأن تحوّلها ، هذا والعقل الأبدي مستكين لا يتحرك ، مطلق للأرض عنانها تتصرف كيف تشاء ، فالأرض هي الحياة ، وجسده هو الأرض إذن .

كان جوزيف في حاله تلك يتعبد ، يعبد الأرض ، وقد انصهر فيها فأصبح يعبد نفسه .

وأفاق من شطحاته على واقع مرير ، إنه في بيت حيث لا يجد البزابيت ، فقال :

— سأتحمل الألم ، وأبقي ترتيب المنزل كما هو ، ولن أكون ناكراً إياها فأدمر ترتيباً عزيزاً عليها قضيت في الحصول عليه ساعات طوال .

وعاد جوزيف ثانية الى أفكاره .

رأى الأرض التي هي هو ، تتململ فتنهار البيوت ، عاليها سافلها ، وتزحف الجبال فتطبق على الأودية تزهق أنفاسها ، وتتقصف جذوع الغابات الضخمة كالقشة الجافة ، ويندثر ما كان من آثار كدح ملايين السنين ، ويتغير الحجم ويتغير الزمن .

إذن ستندثر الأرض ، ولكن بعد طول عذاب ، ومن هي الأرض ! إنها جوزيف والمزرعة ، فعليه أن ينتظر العذاب الطويل .

وأفاق جوزيف ثانية من أخايله المرعبة، وسمع وقع أقدام على المصطبة أمام منزله ، وانفتح الباب وأطلّ شبح . كانت راما ، وفي عينيها كل معاني الأسى. وقالت :

ـ تجلس وحيداً في الظلام يا جوزيف ؟

ـ كاد مصباحي ينطفىء يا راما .

قال (مصباحي) ولم يعتد ذلك من قبل ، فارتاع من كلمته ، وارتاعت راما التي سمعته .

وتقدمت فرفعت الفتيل وقالت :

ـ وددت أن أرى كيف تبدو في هذا الظرف العصيب .

واقتربت ، ثم قالت :

ـ انت على حالك لم تتغير ، وهذا يبعث فيّ شيئاً من القوة . هل تفكر في اليزابيت ؟

ـ نعم ، الى حد ما .

وكان جوزيف على وشك أن يشرح لها حقيقة ما كان يفكر فيه ، ومع أنه لم يكن يفكر باليزابيت ، إلا أنه قال :

ـ أفكر في اليزابيت وفي كل شيء آخر يموت، إذ يبدو لي أن كل شيء يسير على نسق منتظم ووتيرة لا تخطىء ، فهنالك ولادة واحدة وموت واحد فقط ، ولا حقيقة في الوجود غير تلك .

وجلست راما الى جانبه وقالت :

ـ هل كنت تحب اليزابيث ؟

ـ نعم . كنت أحبها .

ـ ولكنك لم تكن تفهم شخصيتها ، كما لا تفهم أحد من الناس ، إذ ليست فيك تلك الخصلة ، هل عندك ما تأكله ؟

ـ لا أريد أن آكل .

ـ أقدر ذلك ، والطفل عندي ، فهل تريدني أن أحتفظ به فأربيه ؟

ـ سأحضر من يعتني به عندما أستطيع .

ووقفت سائبة المغروج وقالت :

ـ أنت متعب يا جوزيف ، خذ قسطاً من النوم ، وإذا لم تستطع أن تنام فاستلق في فراشك على الأقل ، وستشعر بالجوع في الصباح فتعال لتناول الفطور .

ـ نعم ، سأكون جائعاً في الصباح .

ـ وقتام الآن ؟

ـ نعم ، سأذهب للنوم .

وأغلقت راما الباب منصرفة ، ونفذ جوزيف أوامرها بشكل آلي ، فخلع ملابسه ووقف أمام المدفئة ينظر إلى معدته الخاوية وساقيه اللتين بارحتهما سابق قوتهما وجعل يردّد ، « خذ قسطاً من النوم للرتاح » ودخل غرفة نومه واستلقى في فراشه لينام .

كانت حواس جوزيف قد تعطلت من حيث اهتمامه بالطقس وظواهر الطبيعة منذ دخل بيته ، أما الآن ، وقد استلقى فارتخى توتر جسمه فقد أصبح بإمكانه أن يسمع همس الريح وتساقط أوراق البلوط المتينة من على شجرته التي نحرها بيرتون .

وسمع أقداماً تقترب على المصطبة ، والباب الخارجي يفتح ، ثم صوت خفيف في غرفة الجلوس . وأخيراً ، ها هي الأقدام تتجه الى غرفة النوم وعندما فُتح الباب استدار جوزيف لينظر راما تقف بالباب عارية تماماً ، ووقع عليها نور الفانوس فرأى جوزيف ثدييها الممتلئين بالحيـــاة ، ينتهيان بحلمتين سوداوين منتصبتين ، وبطنها العريض ، وساقيها المكتنزتين كما رأى مثلث الشعر الأسود القصير فوقهما .

وتقدمت رامـــا تلهث كأنها في نهاية شوط طويل وقالت بلهجة امرأة تحرقها الشهوة :

ـ فيّ جوع .

وشعر جوزيف بقوة تسحق عظام صدره ، ثم تهبط إلى ساقية وجف حلقه وفارقته كل ارادة .

وأطفأت راما الفانوس وألقت بنفسها على الفراش ، فارتطم جسداهما بعنف وتشابكت أرجلها تتدافع وتتراقص ، وتغلّبت راما فشدّت عليه بفخذيها حتى كادت تزهق روحه . . كانت أقوى منه ، وتقطعت أنفاسها في حلقيها من اللهاث وأحس جوزيف بالحلمتين صلبتين كالحجر تضغطان على صدره ، وأنّت راما بصوت مبحوح ، وجعل ردفاها العريضان يلطمان فخذيه وجسدها يرتعش وينتفض حتى كاد ضغط ذراعيها العظيم يستل النفس من صدره ، وتمكنت أعضاؤها الجائعة بنهم من أن تسل بذرته من صُلبه .

وأفلتته راما ، واستلقت تلهث إلى جانبه وقالت :

— كان بك حاجة الي ، وفي قرارة نفسي جوع اليك ، وها أنا قد امتصصت من أعماقك نهر الحزن الذي يهدر في دمك ، فأرحتك منه ، هل تعتقد ذلك يا جوزيف ؟

— نعم . كانت فيّ حاجة .

وتكلمت راما بصوت النائم فقالت :

— مرة واحدة في حياتي ، مرة واحدة فقط . لقد قضيت حياتي اقترب من تلك اللحظة ، وسأقضي طيلة حياتي بعدها جوعى . . كان يبدو أن جوعي لم يكن اليك يا جوزيف ، ولكنه ثبت لي الآن أنه كذلك ، وأخشى أن يكون ذلك الجوع شجرة تنمو فتتفرع منها شهوات كثيرة ، تنمو كل شهوة منها فتغدو أكبر من أمها .

وجلست راما فقبلت جبهته ، وتدلى شعرها على وجهه بضع لحظات ثم قالت :

— أعندك شمعة ؟

— نعم على الطاولة ، والكبريت بجانبها .

ونهضت المرأة فأشعلت الشمعة وجعلت تتحسس صدرها فوجدت بقعة سوداء من أثر الرصّ ، وقالت :

ـ طالما فكرت في هذا ، وأعتقد أننا ظلنا منفصلين مدة طويلة بعد اتحاد أعضائنا يا جوزيف ، فسألتك كثيراً من الأسئلة ، هذا ما كنت أريد أن أقضي من قبل ، وهو ما قد تمّ فعلاً .

وأبصرت راما ضوء الشمعة الثلاثي يقع على جسدها ، كأن موجة من الحياء قد حطت رحالها في صدرها الآن ثم قالت :

ـ على كل لقد سألتك ما أردت ، وقد أجبتني .

ونهض جوزيف قليلاً واتكأ على مرفقه ثم قال :

ـ راما ، ماذا تريدين مني ؟

ـ لا أريد شيئاً ، فقد عدت الى نفسك الآن ، كنت أود أن أصير جزءاً منك وقد تمّ لي ذلك .

ثم الآن ، وتعال صباح الغد لتناول طعام الفطور .

وأغلقت الباب ، وسرعان ما راح جوزيف في سبات عميق .

- ٢٢ -

حلّ كانون الثاني من العام الجديد وقدم معه البرد القارس آناء الليل وأطراف النهار، وانتشرت الأبقار على سفوح التلال تلتقط ما كانت قد أهملته من العشب في الربيع والصيف، ثم تعود الى الحظيرة. تنتظر البرسيم والحشيش من البايكة، وكان ثوماس وجوزيف يتصبب العرق من جسديهما يومياً وطول النهار وهما يدفعان بالمذراة محملة بالبرسيم الى البقر، فتلتهمه في لحظات ثم تعود تخور تطلب المزيد، كانت معدها جهنم لا تكتفي بما يُلقى فيها، والطعام يطلب الماء، فينهدّ حيل الرجلين وهما ينقلان اليها الماء، وما أوسع كروش الأبقار.

أما الخيل فهي لا يقيمها الحشيش الجاف، وإنما تطلب صنفاً أكثر رقياً من العلف، إذن فعليها بـ (خوبي) الشعير يهيلانه لتغيّبه بطونها.

وأنهكهما العمل، كانا رجلين يصارعان قسوة الطبيعة وغريزة الحياة، فالكروش يجب أن تمتلىء وإلا امتلأت كروش الوحوش من لحم القطيع، والعربة والكارّة يجب أن تُجرّ وإلا جُرّت قوائم الأحصنة بعد نفاقها على قارعة الطريق.

وسقط بعض المطر في أواخر شباط، فوجدت الأبقار ما يخفف عن كاهل الرجلين بعض عبئها الى أيام محدودة، ووجد جوزيف من وقته بعض الفراغ فتمشى ضحى يوم الى منزله، وفي الطريق قابله الاطفال يلعبون، أي لعبة! لعبة جنازة الخالة اليزابيت، فقد ظلوا طيلة بضع أسابيع يدفنون صندوقاً من

الكبرى على أنه قابوت الزابيت ، بعد أن تهدم سارتا فوق رأسها ، وبقيت الأطفال سليمين .

كانوا يلعبون في باحة الدار ، مع ان من عادتهم أن يلعبوا على الحشيش في الحقول ، ولكن أين الحشيش ؟

واعتنت راما بطفل جوزيف والزابيت أكثر من عنايتها بأطفالها ، فلم يمرض ، ولم تنزل به ملمة ، وشغلها ذلك عن التفكير بالطقس ومستقبل المزرعة والشعور بالفزع من القحط الذي يدق الأبواب ، بخلاف زوجها ثوماس الذي لم يكن ينام قلقاً وفزعاً من أفكاره السود عن موت القطيع جوعاً وعطشاً ونفاق الحيل لانعدام ما تأكله ، وجاء ثوماس الى جوزيف ذات يوم وقال :

— ماذا ستفعل بعد أن ينفذ البرسيم ؟

— لا أدري ، سأفكر في ذلك .

— لكننا لن نستطيع شراء البرسيم ، إذا أننا نحتاج كمية كبيرة منه والسعر مرتفع الآن ؟

— لا أدري ، عليّ أن أدبر الأمر .

وتساقطت بعض زخات المطر في آذار فانتعشت الأرض ، ونبتت بعض الحشائش ، ونشطت الأبقـــار فكشطت الأرض من تحت كل عرق من الحشيش تأكله . وانقضى آذار ، ولم تسقط أمطار غزيرة ، وبذلك تبخر كل أمل في الغيث ذلك العام ، وبقيت الأبقار هزيلة عجفاء بارزة أضلاعها ، قد حلى شعرها فبقيت جلودها جرداء سوداء محروقة ، وأصيب بعضها بداء (التشقيق) وأخـــذ الصديد ينزّ من بين أظلافها ، وأصابت البعض الآخر (كحة) مؤلمة ينخض كرش البقرة وجسمها بعد كل مرة . وبجمل القول ، كانت الأبقار مهددة بالنفاق .

لم تعد السناجيب ترزق في الأدغال ، ولا الأرانب تنط بين شجيرات المريمية والسرّبيس ، فقد هاجرت حيوانات الصيد ، نعم ، هاجرت الى حيث لا يدري

توماس ، كأنها تعلم بغريزتها أن سنيّ الخير قد ولّت عن هذا المكان فلم يبق إلا أن تدير ظهورها له .

وقال توماس يوماً :

— اسمع يا جوزيف ، في الأمر شذوذ ، فأنا لا أري حيوانات في التلال ، لقد هاجرت من هناك ، فإلى أين يا ترى ؟

— لا أدري .

— أعتقد انها ارتحلت الى منطقة ساحل المحيط ، ولذلك يجب ان نذهب الى هناك .

— سنرى .

وفي أواسط شهر مـايو ، هبّت رياح المحيط محملة بالرطوبة ، فهطلت أمطار غزيرة على الوادي طيلة ثلاثة أيام ، ولكن ما نفع الماء آنئذٍ ؟

وعلى كلٍ ، فقد نما العشب ثانية وكسا سفوح التلال ، فاكتست أضلاع بقرات القطيع شيئاً قليلاً . ولكن الشمس لم تمهل جوزيف أن يفكر ولا توماس أن يطمئن بضعة أيام ، فقـد اشتدت الحرارة فجأة ذات يوم ، وكان ما كان .. كانت (ضربة شمس) أحرقت الأخضر واليابس في ساعات .

وجُنّ توماس ، ولم يتحمل جوزيف البقـاء في المزرعة فركب الى مدينة السيدة حيث قابل روماس فسأله :

— هل هذه بداية سنيّ القحط ؟

— هكذا يبدو يا مستر واين .

— أي ان هذه كالسنين التي تحدثت عنها مع جوانيتو ووليم ؟

— يلوح لي ذلك ، فهذه السنة من أردأ ما رأيت ، فإذا تبعتها اخرى مثلها توجّب علينا ان نجابه مشاكل عديدة لا أول لها ولا آخر .

وفكر جوزيف طويلاً ثم قال :

— لديّ مخزن واحد للبرسيم ، فإذا نفد ، فما العمل ؟

وجفف عرقه بمنديل في يده ، وساط روماس فخذه ثم قال :

— إذا استطعت ان تطعم قطيعك حتى يحلّ الشتاء القـــادم ، فإنك تنقذه وتكسبه. أما إذا كنت تعجز عن ذلك فانتقل من هنا وإلا نفقت، لأن الحرارة هذه لن تبقي على الأرض عرقاً أخضر ولا نقطة ماء في غدير .

— ألا أستطيع شراء الحشيش المجفف ؟

— ها .. ها .. ها .. يا مستر واين ، سيكون ثمن بالة الحشيش الجاف أعلى من ثمن البقرة خلال ثلاثة أشهر فقط من الآن .

— إلى أين يسوق الناس قطعانهم ؟

— هذا ما أنا خبير به ، اسمع يا مستر واين ، لا تظنن أن القحط قد أصاب هذا الوادي وحده ، لا ، لن تجد عشباً في كل حوض نهر سان جواكين .

— إن هذا الوادي على بعد ١٠٠ ميل تقريباً ؟.

— نعم ١٠٠ ميل، ولذلك أرى أن تبدأ السواقة منذ الآن، وقبل أن تصبح الأبقار عاجزة عن الوصول .

ونهض جوزيف ومشى الى حصانه ، فمشى روماس نحاذياً له وقال :

— إنني أذكر يوم قدومك الى هـذا الوادي يا مستر واين ، ويوم نقلتُ لك الخشب وطلبت إليّ أن أفرغه تحت البلوطة ، وقلت لي حينئذ ، لن تعود سنين القحط أبداً ، بينما نحن الذين ولدنا وتررعنا هنا نعلم حق العلم أنها كانت ستزورنا ثانية .

— واذا فرضنا أنني بعت جميع ما عندي ، وانتظرت الى أعوام الخصب ؟

وضحك روماس من ذلك ثم قال :

— إنك غير عالم ، على ما يبدو ، بحال بقراتك أيها الرجل .

— بلى ، أعرف أن القطيع هزيل .

— لن تستطيع بيع أبقار هذه المنطقة يا مستر واين ، فلحم الأبقار السمينة من المناطق الاخرى متوفر في الأسواق ، وبأسعار رخيصة ، ولن تجـــد من يشترى لحم الأبقار الهزيلة كبقرات قطيعك .

— إذن عليّ إما أن أسوق القطيع الى مكان آخر او أفقده ؟

— نعم .

— وإذا سقت القطيع ، لم أفقد سيدي ؟

— أحياناً نصفه وأحياناً ثلثيه ، وربما كله .

وتقلصت عضلات جوزيف كأن أحداً لطمه على خده ، وكان قد وصل مربط حصانه فامتطاه ولكزه بالمهاز ، وتكلم روماس فشدّ جوزيف اللجام .

— هل تذكر والدي وليم يا مستر واين ، وليم الذي نقل معنا الخشب اليك ؟

— نعم كيف حاله ؟ سلم عليه .

— لقد مات .. شنق نفسه .

— لماذا ؟ لم أسمع بذلك ؟ ما الذي دفعه الى أن يفعل هكذا ؟

— لا أدري يا مستر واين ، فلم يكن عقله طبيعياً .

وابتسم روماس ثم قال :

— إنه من العيب على والد أن يقول مثل هذا عن ولده . ولكنه الحقيقة .

— أنا آسف من أجلك يا روماس ، وربما احتجت اليك لنسوق القطيع .

وأرخى جوزيف لجام الحصان فمدا الحيوان بسيده سريعاً صوب المزرعة . ومر جوزيف بالأشجار تكاد تكون عارية بعد أن تساقط أكثر ورقها من ضربة الشمس وشدة الجفاف لاحتباس المطر ، وتذكّر كيف مرّ بهذه الأشجار من قبل حيث كانت خضراء كالزمردة ، وكيف ألقى بقبعته في الجو فرحان جذلاً ، حين كانت التلال تنوء بحملها من الأعشاب والخضرة . وغاظته الذكرى ، ولكن لات حين مناص ، فالواقع واقع . وأخذ الحصان يلهث من التعب والعرق يرشح من أعطافه فقد كانت الشقة بعيدة ، وليس من غدير في الطريق . ورثى جوزيف لحال حصانه ، وشكا اليه فرسه بعبرة وتحمحم ، ولكن أنّى لفارسه الماء !

ظل جوزيف يضرب في الأرض حتى شارف حدود المزرعة ، وكان يشعر بضميره يعذّبه على نقل الأخبار السيئة التي يجب أن يصرّح بها الى توماس . ومرّ برمة بقرة قد انتفخ كرشها وانتشرت رائحتها النتنة في الجو فجذب قبعته الى أسفل يتقي بها الرائحة ، وأخذ يتنفس من فمه ، ولكن هل زالت البقرة ؟ كلا ..

ووصل عصر ذلك اليوم حيث وجد توماس ينتظره بلهفة وقال :

– وجدت عشر بقرات ميتة يا جوزيف ، ولا أدري لماذا ماتت ، ورأيت الشواهين في وليمتها على جثث بقراتنا العشر ، ولن يبقى منها إلا كومات من العظام في صباح الغد .

وفكر جوزيف قبل أن يجيب : « أنا عاجز عن حماية الأرض، ولن أستطيع أن أمنح مزرعتي الحياة ثانية ، إن هذا الشيء مخز » ثم قال :

– لقد ركبت الى المدينة اليوم أستطلع الخبر يا توماس .

– لا أخبار يا أخي ، فالماء في البئر قد انخفض مستواه .

– نعم ، لا أخبار إلا مثل هذه ، فعلينا أن نسوق القطيع الى مكان آخر.. علينا أن نهجر هذه المنطقة .

– يا للمسيح ! إذن فلنبدأ الآن ، لنهجر هذا الوادي اللعين، ولن أعود اليه أبداً ، فلم يبق لي بعد الآن ثقة فيه . ألا لعنة الله عليه .

– سأظل آمل أن يحدث شيء ، ولكن يبدو أن لا نفع من ذلك . وحتى لو سقطت أمطار غزيرة بعد الآن ، فلا خير منها يرتجى ، سنسوق القطيع في الاسبوع القادم .

– ولماذا التأخير ؟ لنبدأ غداً ..!

– الحرارة شديدة هذا الاسبوع ، ولربما خفت الوطأة في الاسبوع القادم ، كما أن علينا أن نطعم القطيع جيداً قبل مباشرة الانتقال، حتى تستطيع البقرات أن تصمد على طول الطريق . مُر الرجال أن يزيدوا لها البرسيم ..

– سنذهب الى الساحل يا جوزيف ، فنعبر سلسلة الجبال ونفتش عن ماء نستقر عنده ، بينما يباشر الرجال إطعام الأبقار هذا الاسبوع ، أنا وإياك ، هل توافق ؟

– نعم ، أرافقك .. غداً .

شرع جوزيف وتوماس مسيرتهما قبل الفجر، وأخذا في السير باتجاه الغرب . كانت الأرض لا تزال حارة من آثار فورانها في النهار السابق، وحوافر جواديهما

فطلق وتقرقع على الحصى . وتوقفا قليلا . . لقد سمع توماس صوتا ، فشد اللجام ووقف حصان مهزوز بالغريزة ، وقال توماس :

— هل سمعت ؟

— ماذا ؟

— رنة جرس .

— نعم ، بقرة من أحد القطعان .

— لا ، إنه جرس نصبة .

وطلعت الشمس وتوائبت الجنادب ، وفاحت رائحة الطيون زكية في الهواء ، وأخذت تزداد وعورة الطريق وينقلب صخريا قاسيا تحت حوافر الخيل ، وبدت الصخور منخربة مشظاة كأنها عظام الأرض تشكو من ظلم حرارة الشمس . وتوقف الحصانان فجأة . كان هنالك صوت شيء يزحف ، خشخشة بين الحشائش الجافة ، تتجه نحو الطريق . ونظر توماس الى حيث يخرج الصوت فرأى حية ضخمة ذات قرون تعبر الطريق متباطئة تتململ ، وبطنها عظيم الانتفاخ . لقد افترست شيئاً . فتناول بندقيته وسدد جيداً . . فتلوت الحية وهي تقع في خبطات عنيفة على الطريق الصخري . وترجل توماس فأزاح جثتها الضخمة من الطريق ، واجتازت الخيل . ورن الجرس ثانية ، فقال توماس :

— دعنا نرى من أين هذا الجرس .

وأدار الرجلان رؤوس خيلهما الى التل صعداً ، وقال توماس :

— أظن أن الصوت قادم من اليمين ، وبالقرب من ذلك البيت .

— كنت أظن ما سمعته في المرة الاولى حلماً ، أما الآن وقد سمعته ثانية فلا بد أن هنالك جرساً . نحن قريبان من قمة التل الآن .

— ليكن .

واجتازا شبه نفق من صخور الغرانيت الصلبة ، ليطلا على ما لم يحلما به من قبل .

غابات ضخمة حمر الجذوع من الأشجار ، وآجام كثة ملتفة من العليق ،

والدوالي المتسلقة ، والسّريس الشديد الاخضرار ، وغدران كثيرة ثرّة المياه .. الحياة .. الحياة ، الخصب ، النماء .. النماء ...

لم يصدّق جوزيف عينيه ، فالفنـــاء هو الأصل لديه ، والجفاف ، وحُرقة الأرض ! فماذا يرى .! ليقترب .

وتقدم قليلاً يستبين الحقيقة ، فرأى تلالاً تزخر بما تعوزه أرض مزرعته .. تزخر بالعشب طويلاً نامياً يتماوج ،وتتماوج معه الحياة ،وشاهد الأرانب تتواثب من هنا وهناك نشيطة ملساء الفراء لأنهـا سمينة تعيش في بحبوحة من كرم الأرض وجود السماء . وقفز أمامه غزال بخفة ورشاقة ، وكان بإمكانه أن يقتله ، ولكن جوزيف كان مشدوهاً . لقد أذهله ما رأى ، والقتل شر ، ونفسيته الآن لا تقبل الشر . وحتى ثوماس ذلك الرجل القاسي القلب ، لم يتحرك ليطلق النـــار على الصيد الثمين ، واكتفى بأن قال :

— انظر يا جوزيف ، لقد جاءت إلى هنا كل حيوانات الصيد التي انتقلت من طرفنا . ليتنا نستطيع أن نسوق القطيع الى هذا المكان .. لكنه يبدو أن ليس هنا منبسط من الأرض تستطيع البقرة أن تقف فيه . ألا تريد أن تتمدد في ظل شجيرة هناك لترقد وتقيل من هذا الحر يا جوزيف ؟

— لا أدري من أين تأتي الرطوبة الى هذا المكان .

وأشار ثوماس الى الشاطىء الصخري للمحيط وقال :

— لا عشب هنـــاك ، لكنه نامٍ طويل ههنا كأنه في غابة قريبة من خط الاستواء .

إذن لا بد أن ضباب المحيط يبيت على رؤوس هذه الجبال وبين صخورها كل ليلة حيث يترك هنالك رطوبته وغناه ، ثم يعود الى المحيط في النهار .

— أرضنا جافة محروقة يا ثوماس ، أما هنا فانظر .

— هل ترافقني الى الشاطىء ؟ أود أن أغطس في الماء ، هيا بنا .

وانحدرا من قمة الجبل باتجاه البحر ، وكان المنحدر يكاد يكون عمودياً تسدّه شجيرات العليق والعرفج ذات الأشواك القصيرة القوية الحادة . ولاحظا

يعلوه شبه مرتفع متوسط من الصخر في منتصف طريقها كما رأيا شيخاً ملتحياً يجلس في عرض الطريق أمامهما ، قد وضع قبعته في حجره ، وبدت عليه مظاهر البلاهة .

كان كث اللحية ، أشيب الرأس واللحية معاً ، نافذ العينين ، يرتدي ملابس رثة مرقعة ، تبين من سروال ركبته اليمنى ، إذ انفرط خيطا الرقعة هناك ، أما قامته فمعتدلة وبنيته عادية ، إلا أن أثر السنين قد قوّس ظهره فاحدودب .

وابتدرهما الشيخ بالحديث وقال :

— رأيتكما ...

وخط بأنفه ثم مسحه بطرف كمه وتابع :

— سمعتكما قادمين من بعيد .

وضحك كالمجنون ، وأكمل .

— لا بد أنكما سمعتما جرس الدليل . إنه من الفضة ، أعلقه تارة في رقبة هذا البغل وتارة في رقبة الآخر .

ووضع قبعته على رأسه بحركة رزينة ثم قال :

— أين تقصدان ؟ الى حضيض الجبل ؟

ولم يجب ثوماس ، بل شعر بالمقت نحو ذلك الرجل ، أما جوزيف فوقع الرجل من نفسه موقعاً وأجاب :

— نعم ، حيث نخيّم قريباً من الشاطىء .

وفسّر ثوماس ذلك حسب رأيه الى الرجل فقال :

— نصطاد السمك ، ونسبح إذا كان البحر هادئاً .

ولم يجب الرجل كما لم يسأل ، فقال جوزيف :

— سمعنا رنة الجرس ونحن بعيدان من هنا .

— تلك رنة جرس الدليل .

— لقد رأيتك من قبل أيها الرجل .

ـ أعيش في كوخ الى اليمين من هنا ، يرتفع حوالي ٥٠٠ قدم عن الشاطىء، طبعاً ستأتيان فتمكثان معي بعض الوقت .

ونظر الشيخ الى وجه كل منهما ثم قال :

ـ يمكنني الإجابة على كل ما يدور بخلديكما ، فأنتما تسألان لماذا أعيش هنا ؟ سأقول لكما مع أن هذا سر لم أبح به إلا لنفر من الزوار .

ووقف كأنه يستعد أن يلقي عليهما خطاباً هو سره المكتوم وقال :

ـ أنا آخر انسان يرى الشمس ، وبعد أن تكون قد غابت عن كل فرد في الوجود أظل أنا أراها للحظات ، وقد راقبت حلول تلك اللحظات يومياً طيلة العشرين سنة الأخيرة ، ورأيت مغيب الشمس دائماً إلا عندما يحجبها المطر أو الضباب . وتابع كلامه :

ـ نعم اني أذهب الى المدينة أحياناً لأشتري الملح والفلفل والزعتر والدخان ولكني عادة أعود قبل الغروب لأرقب مغيبها .

ونظر الشيخ الى الأفق بقلق وصمت بضع لحظات كمن يقدّر الوقت ثم قال :

ـ اتبعاني فقد حل موعـــد عودتي الى الكوخ ، سأذبح خنوصاً ، نشويه لعشائنا ، اتبعاني .

وهرول الشيخ وهرول وبغلاه خلفه . وقال جوزيف :

ـ هيا يا ثوماس ، لنتبعه .

ـ الرجل مجنون ، دعه ينصرف وحده .

ـ أبداً ، ليس الرجل مجنوناً ، أود أن ألحق به .

ـ حتى لو ذهبنا معه ، فلن أنام عنده ، بل انتحي الى عرق شجرة والتف ببطانياتي هناك .

ـ هيا وإلا ضاع منا أثره في الظلام .

وسحبا حصانيهما في المنحدر ، وفي طريق متعرج بين الشجيرات الملتفة تكاد تسد المسرب حتى لوّح لهما الرجل بيده من بعيد ، فرأياه يقف في ردهة كوخ تحيط به شجيرات المريمية من كل جانب حتى لا يكاد يبين من فيه . لقـد أقيم

ذلك الكوخ على سفح الجبل بحيث يصعب التسلق اليه إلا من طريق واحد، وكانت الجبال تبين أمام جوزيف وتوماس غارزة صخورها في المحيط ، وعلى رؤوس صخورها الناتئة قد انعكست بقايا أشعة الشمس صفراء ذهبية فيها فتور .

ووصلا، فوجدا بالقرب من الكوخ كنّاً للحمام وعريشة صغيرة خلفها مغارة صغيرة أيضاً قد اتخذها الرجل زريبة لحيواناته ، وحديقة ضيقة استنبت فيها الشيخ بعض الخضروات بعد أن نقل اليهـــا التراب ثم فرده فوق الصخور . واستقبلها الرجل قائلاً :

ـ هذا هو بيتي .

ثم نظر الى الشمس الغاربة وقال :

ـ بقي ساعة واحدة حتى تغيب .

وأشار بيده الى قمة مجاورة ليقول :

ـ هذا الجبل من نحاس .

ثم أخذ يفك حبـــال الصناديق عن ظهر بغليه ، فعرّى كل من جوزيف وتوماس حصانه ، وأطلقه .

وقادهما الرجل الى الزريبة حيث وجدا ما يقرب من الاثني عشر خنوصاً برياً تنظر اليهما بعيون ملؤها الشك والريبة . وقال الرجل :

ـ أنا أصطاد هذه الخنانيص ، فقد نثرت مصايدي في كل جانب ومن السهل أن تقع الخنانيص فيها .

ومشى قدامهما ثم قال :

ـ اتبعاني أريكما هـذه الأقفاص ، لقد صنعتها من أغصان الصفصاف كما ترياق لأحبس فيهـا الأرانب والسناجيب وبعض الدجاج البري ، حيث أذبحها عند الحاجة .

واندار ثوماس ليقول :

ـ أنا ذاهب الى الشاطىء .

ورشقة الشيخ بنظرة غريبة وهو يخطو باتجاه الباب نحو المنحدر ثم سأل جوزيف :

— لماذا يكرهني هذا الرجل ؟ لماذا يخاف مني ؟

— إن له حياته الخاصة ، كما أن لك حياتك الخاصة ولي حياتي الخاصة أيضاً، وهو يكره حبس الحيوانات في الأقفاص ، إذ يقدّر نفسه في موضعها ويعرف مقدار شعورها بالخوف من الحبس ، ولذلك تجده يكره الخوف ، فيخاف هو بدوره .. وعلى كل دعه وشأنه أيها الشيخ ، فسيعود بعد قليل .

— كان يجب أن أقول له إنني لطيف جـداً في معاملتي لهذه الحيوانات ، فلا أخيفها .. وحتى حين أقتلها لا أدعها تشعر بذلك ، وسترى أنت .

وطاف جوزيف في البيت من جوانبه الأربعة ، وأشار جوزيف إلى أربعة صلبان بارزة هناك ، وسأل :

— ما هذه ؟ أراها في غير محيطها .

— أتحب هذه الصلبان ؟ هل تعرفها ؟ سأروي لك حكايتها ..

هاج البحر مرة فحطم قارباً يُقلُّ أربعة بحارة .. وقذف الموج جثثهم الى الساحل فانتشلتها. ووجدت احداها تحمل مدالية عليها صورة فتاة جميلة،وقلت من الخير أن أحفر لهـذه الجثث حفراً وأواريها التراب وهكذا فعلت ، ودققت فوق الحفر هذه الصلبان الأربعة التي تراها ، هل تحب الصلبان يا رجل ؟

— نعم ، كان ما فعلت حسناً يا شيخ .

— اذن ، تعال لترى مرقبي ، وتشاهد لحظة غروب الشمس ، ولا شك أنك ستحب ذلك .

وقاده الى شبه درابزين من الخشب ، حيث وقفا يتطلعان الى البحر تحتهما ، أزرق ، هادئاً ، بعيداً ، تبدو أمواجه صغيرة تتدحرج ، ويُسمع صوت ارتطام مائه على صخور الشاطىء رتيباً لذيذاً كنقرات الطبل ، وقال الشيخ :

— هذه ليلة مباركة ، تستحق خنوصاً .

وكانت الشمس تغمرهم جميعها بعد أن هبط نصفها تقريباً في الخيط ، وقال جوزيف :

— هل ترتب العيب كل يوم ؟ ولا يفوتك أبداً ؟

— نعم لا يفوتني إلا حين تحجب الغيوم ، فإنما آخر من يرى الشمس . انظر الى الخريطة وستجد قرية صغيرة .

ثم صاح الرجل فجأة :

— الويل لي .. أتحدث اليك الآن ، بينما يجب أن أكون أنهياً . إجلس هنا وانتظر .

وركض الشيخ الى الزريبة فأمسك خنوصاً بريا وعاد به ، والحيوان يقاوم ما وسعته الحيلة يبغي التفلت من قبضة الشيخ . وربط الشيخ قوائم الخنوص ثم مدّد جسده على بلاطة وأخذ يربته حتى استكان الحيوان واستخذى .

وقال الشيخ :

— هل ترى ؟ لا يجوز أن يصرخ الحيوان أبداً ، فهو لا يدري .. بينما حان الوقت تقريباً .

وأخرج الشيخ من جيبه سكيناً عريضاً تلمع نصله وأمرّه على راحة يده كأنه يشحذه ، وربت باليد الاخرى على معدة الخنوص . ثم نظر الى الشمس وحزّ عنق الخنوص في اللحظة التي توارى فيها قرص الشمس . وشخب الدم ، فقال جوزيف :

— ما الذي فعلت ؟

— اسكت ، سأخبرك فيما بعد .

— هل تقدمه ضحية ؟ هل تقتل خنوصاً كل مغيب شمس ؟

— لا ليس خنوصاً ، وإنما أقتل حيواناً كل ليلة : طيراً ، أرنباً ، سنجاباً ، شيئاً فيه دم . وكما رأيتَ لا أدعه يتألم ، ويموت مع موت الشمس تماماً إذا كان السكين قد أصاب موضعه .

وجلس جوزيف على المقعد يراقب الضحية ويفكر لنفسه متسائلاً : ما الذي اكتشفه هـــذا الرجل ؟ لقد تمكن بفضل خبرته الخاصة أن يوجد شيئاً يهبه السعادة .. فنظرة واحـــدة الى عينيه وهما تطفحان سروراً عندما حزّ رقبة الخنوص ، كفيلة بأن تقنع من يراه بأن هـــذا الشيخ مطمئن راضي النفس : لقد بعث فيه موت الحيوان رزانة وحكمة ، لا بد أن هذا الشيخ قـــد اكتشف سراً يجدر به أن يخبرني عنه .

وجلس رفيقه الشيخ على دكة مقابلة ينظر الى الشمس الغاربة والى الموضع الذي هبطت فيه الى البحر تستحم . كان ينظر بتأمل العابد وصمت الناسك ، فسأله جوزيف :

— لماذا تنظر هكذا ؟

— ولِمَ تسأل ؟

قال الشيخ ذلك بقلق لم يدم إلا لحظات ثم عاوده هدوءه فاستطرد قائلا :

— طبعاً ، انك لا تود اصطياد الحقيقة من بين شفتي ، فأخوك يظنني مجنوناً أما أنت فلا ، لأنك أعقل من أن تقع في خطأه ، وإنما تود بسؤالك مجرّد أن تعرف سبب نظري الى الشمس بهذه الحال ، كما تريد أن تعرف لماذا أقتل حيواناً كلما رأيتها تغيب .

وصمت الشيخ لحظة أمرّ فيها أصابعه الخشنة على رأسه الأشيب ثم قال :

— في الحقيقة ، لست أدري سبب ذلك ، وقـــد عرضتْ لي أسباب شتى ولكنها ليست صحيحة مقنعة . فمثلاً أقول لنفسي : ان الشمس هي الحياة بذاتها وحين أضحي لها أعيد الحياة الى واهبها ، فأحتفل بشكل رمزي عنـــد موتها . ألا ترى معي ذلك ؟

— ان كلماتك هـــذه تخفي حقيقة عارية اخرى . والحقيقة تصبح مضحكة باعثة على السخرية اذا غلّفتها الكلمات المنمقة بغية اللف والدوران .

ـ اذن اسمع ، أنا أفعل ما رأيت يا رجل لأن فعله يسرني ، ويخيل أنني أحب أن أفعله .

ـ ورجل متضايق اذا لم تفعله ، وتشعر بأن شيئاً لا يزال في نفسك ناقصاً ؟

ـ نعم إن أمرك لعجيب يا هذا ، فأنت ، تقوم تضحيتي ! لقد عاشت هنا زائراً غيرك فلم يستطع أن يفهم شيئاً ، لم يفقه ما كنت أحني ، أما أنت ففعلت ، ولذا فإني أود أن أحدثك عني . فأنا عندما أضحي للشمس لا أفرض أبداً أن ضحيتي تساعد الشمس . لا ، وإنما أوقن أن الضحية تدخل السرور الى قلبي أنا ، لأني أعرف بأنني أنا الشمس ، فأضحي لنفسي ، وعن طريق الضحية أشعر بالاتحاد مع الشمس . هل فهمت ؟

ـ نعم ، نعم فهمت أمرك ، أما حالي أنا فـــلا أجرؤ أن أكون صريحاً في تفكيري مثلك الى هذه الدرجة ، ولكنني سأفعل في المستقبل .

ـ لن يكون باستطاعتك أن تفرضه على نفسك ، إذ أنـــه ليس طيّعاً في متناول اليد ، ولا يتأصل في المرء بسرعة . ولكنه يتكامل تدريجياً ، وهو في حالي الآن قد تكامل ، ولا بد يوماً أن تنقل إليّ الجبال الراسية هناك أن قـــد حانت نهايتي ، فأضحي لآخر مرة ، وعندئذ أتحد بالشمس فأدور معهـــا حول هذا العالم .

اسمع ، ليس هذا قصراً عليّ وعليك ، لا ، انه في أعماق كل الناس ، وهو يحاول البروز دائماً ، ولكن مخاوف الناس تشوّه جمـــاله ، وتخنقه ، فيظل مكبوتاً في قرارة نفوسهم ، مما يضطره الى التشكل بأشكال مختلفة أصلها واحد وفروعها عدة . وما سفحُ الدم بين يدي تمثال من الحجر ، ولا الشعور بالعذاب عند سماع مأساة قديمة الحدوث ، ولا منح او قبول الدم عند التزاوج ـ إلا مظاهر لما حدثتك عنه . وقد لقنت حيواناتي في الأقفاص ما أخبرتك ، فأصبحت لا تخافني ، فهل تظن بعد الآن انني مجنون ؟

فابتسم جوزيف وهو يقول :

— نعم، أنت مجنون، فهكذا يقول ثوماس ، ولو كان بيرتون حاضراً لوهبك نفس اللقب . ليس تصرفاً سليماً أيها الرجل أن تفتح مغاليق نفسك أمام هؤلاء الذين يعتقدون انهم هم العقلاء وغيرهم المجانين .. إفتحها فقط في وجوه مـا في أقفاصك من حيوان ، لأنهـا تفقهك ، وإلا وضعك من يدّعون العقل في قفص معها .

ووقف الرجل فأخـذ الخنوص وأزاحه ثم رش الماء على الدم فوق التراب وغسل مذبح الخنوص ، وشرع ينظفه . وما أتم ذلك حتى كان الظلام قد خيّم على الارض وانسدل ستاره حتى على رؤوس الجبال .

كان الشيخ يحدث جوزيف أثناء عملية تنظيف الخنوص وإعداد لحمه للشواء فقال :

— انظر الى المريمية تكاد تخفي هذا الكوخ، فلا تترك في السياج إلا فجوات ضيقة ، تقيل فيها الظباء في فصل الخريف ، وحينئذٍ أسمع ارتطام قرونها أثناء الليل ، وتجلب الإناث منهـا صغارها في الربيع لتلقنها دروس الفرار والاختباء والتزاوج ، وكيف ترفس الحيّات بكعوبها فتقتلها الى غير ذلك.. وطبعاً أفهم أنا جميع تلك الدروس .

وانظر الى هذه الجبال العملاقة المحيطة بنا ، إنها من المعادن ، وما صخورها الظاهرة للعيان إلا قشرة رقيقة تكوّن الطبقة العليا فقط ، أمـا دونها فأقدام سميكة من الحديد والنحاس .

وسمعا وقع أقدام تقترب ، وثوماس ينادي :

— جوزيف ، أين أنت ؟

— تعال يا ثوماس ، فالعشاء جاهز ، تعال خذ نصيبك من الطعام .

— لا يا أخي ، فأنا أكره محضر الرجل ، ولا اريد طعامه . لقـد اصطدت بعض الأسماك فاهبط لنشويها على النار قرب الشاطىء ، والقمر نيّر هـذه الليلة يساعدنا في ذلك .

— لكن العشاء سيكون هنا ، هنالك .

ودخل توماس الكوخ هامساً كأنه يخشى أن يثب عليه حيوان كامن من احدى الزوايا فيفترسه ، ولم يكن هنالك من نور إلا بصيص نار الشواء ، وقد جلس الى قربها الرجل يمزق اللحم بأسنانه ثم يلقي بالعظم في النار ، ويحملق في شعلتها متأملاً بشيء من القداسة ، وسأل جوزيف وهو يأكل :

— من أين أتيت يا شيخ ، وما الذي دعاك الى المجيء ؟

— ماذا تقول ؟

— أسألك ، ما الذي جاء بك الى هنا لتعيش وحيداً !

— لا أتذكر ذلك ، ولا اريد ان أتذكره ، إذ انه سيكون عليّ ان أستعيد أشياء كثيرة من الماضي اذا فعلت ، أشياء لا يسرّني تذكّرها ، كما انها تخلق لي مشاكل وعقداً لا أود ان تظهر في أفق عقليتي الآن . لقـــد نسختها من نفسي وعفى عليها الزمن ، ولا اريد ان أبعث فيها الحياة من جديد .

ووقف ثوماس عند سماع ما بدا له أحاجي ومغمّيات وقال :

— سآخذ بطانياتي الى تلك الصخرة لأنام .

وتبعه جوزيف وهو يلقي على الرجل تحيّة الوداع ، وسار الأخوان صامتين بين الصخور وفردا بطانياتهما وتمددا عليها ، فقال ثوماس :

— دعنا ننزل الى الشاطىء غداً يا جوزيف ، فأنا أكره هذا المكان .

— سأعود الى المزرعة غداً يا ثوماس ، إذ يجب ان أكون هنالك ، فلربما حدث شيء .

— ولكننا رسمنا خطتنا على ان نغيب ثلاثة أيام ، فما بالك الآن !

ولم يجب جوزيف .. وقال بعد قليل :

— هل تنام يا ثوماس ؟ إفعل فأنت نعسان .

— لا .

— لن ارافقك يا ثوماس في سَوْق القطيع ، إذ تكفي وحدك للقيام بالمهمة ، أما أنا فسأظل في المزرعة . لقـــد كنت قررت الانتقال منها ، أما الآن فإنني لا أستطيع ان أفعل ، إذ ان ذلك يشبه التهرّب من عند مريض يعاني غصّة الألم ، ولن أفعل ذلك أبداً .

— لماذا لا تقول ، كالابتعاد عن جثة ميتة ؟ ولا ضير في ان يفعل المرء ذلك .

— لا ، ليست المزرعة ميتة يا ثوماس ، فالمطر سيتساقط في الشتاء القـادم وترتفع سوق العشب والحشيش في الربيع ، وسترى. لا بد ان تترع الارض بالماء في الشتاء القادم .

— وتتزوج ثانية ؟ ولن تعود سني القحط أبداً ؟ هل هذا ما تفكر به ؟ حقاً انك واسع الخيال .

— يجوز ذلك .

— إذن تعال معنا الى سان جواكين ، وساعدنا في الاحتفاظ ببقيـة الأبقار حتى شتائك القادم .

ورأى جوزيف أنوار سفينة بعيدة تمخر المحيط وهـــاله سرعة حركة تلك الأضواء في البحر فقال :

— لا أستطيع مبارحة المزرعة يا ثوماس ، فهي أرضي ، ولا أدري ما الذي يجعلها كذلك إلا أنها حقيقةً أرضي ...

كان جوزيف يود أن يصرح لأخيه بأنها أرض نهايته ، لأن جوزيف قد تأكد من حديث الشيخ أنه هو نفسه الأرض.. لكنه لم يشأ أن يثقل على فهم ثوماس ، فقد سبق ونصح الشيخَ أن لا يفتح مغاليق روحه على الآخرين ممن يعتقدون أنهم عقلاء وغيرهم المجانين . وثوماس أحد هؤلاء . ولذلك قال :

— هل تذكر يا ثوماس كيف كان العشب نامياً ، والخردل أصفر فاقعاً عند قدومنا ؟

— نعم ، كما أتذكر كيف رأيته صباح هذا اليوم أصفر محترقاً وأتذكر أيضاً العشر بقرات الميتة على شكل نصف دائرة الى جانب الطريق ، وأشعر بأن المكان امين خؤون .

— إذن نعود غداً فأبقى أنا وتسوق القطيع أنت ، ولن أغامر المزرعة حتى ولو جف الماء في النهر .

ونامـا ...

- ٢٣ -

أفاق الشقيقان فجر ذلك النهـــار والضباب الكثيف لا يزال يلف رؤوس الجبال وصخور الشاطىء ، وبيت الشيخ . ولاحظا أن بطانياتهما ثقيلة قد رطبها الندى . وطويا منامهما وسار جوزيف الى كوخ الشيخ فوجده يجلس أمام نار واهنة يصطلي عليها فقال :

ـ علينا أن نعود الى أرضنا حالاً وبمجرد أن نعثر على الخيل .

ـ يحزنني ذلك ، فقد كنت أود أن تمكثا عندي بضعة أيام ، فقـد بيّنت لكما ما عندي وكنت أنتظر أن تبينا لي ما عندكما بالمثل .

فضحك جوزيف وقال :

ـ ليس عندي ما أبينه أيهـــا الشيخ ، كيف يمكننا أن نعثر على خيلنا في الضباب ؟

ـ أنا آتيكما بها .

وقام الى البـــاب فصفر ، وإذا بالجرس يرن ، ويظهر البغلان تتبعهما الخيل بالباب ، فأسرج جوزيف وثوماس كل منهما حصانه ، واندار جوزيف على فرسه مودعاً ، وقال ثوماس :

ـ دعنا نذهب ! فالرجل مجنون .

ولفّا أعنة حصانيهما ، فقد كان الضباب كثيفاً لا يستبين المرء فيه طريقه واتجها نحو قمة الجبل .

كانت الطيور تغرد في طريقها خضراء يرشح الماء من كل ورقة على غصونها وبراعم الندى تلألأ على الثمار بين ضياء شمسها ، وبانت جذوع الأشجار بألوانها المختلفة وبانت عزة عالية بين الصخور . وجعل القول كان هنالك ما تطمئن اليه نفس جيروفيف ، ويشتهيه توماس القطيع وربما ودّ لو اما أن تكون خصية كيانه .

وقال توماس :

— انظر .. انظر ، يعزّ عليّ والله أن أبرح هـــذا المكان ، آه لو كان فيه مهبل للقطيع !

— ان هذا الوادي كالمرأة الحسناء يا توماس ، إلا أنه ليس لنا .

ومسح جيروفيف حصانه قدماً ثم قال :

— اسمع .. ان هذا الشيخ يعرف سراً حدثني عنه ، سراً صادقاً حقيقياً عن الحياة .

— كان مجنوناً .. ولو أنه في غير هذا المكان لحبسوه في قفص. بالله ماذا يفعل بتلك الحيوانات التي يحتفظ بها ؟

— يأكلها ، إذ كما ترى ، لا يسهل صيد الحيوانات بالبندقيـة هنا ، ولذلك فهو يستعمل الفخاخ ، ويحتفظ بما يصطاد منها لوقت الحاجة .

— لا بأس في هـذا . كنت أظن الأمر غير ذلك. أما اصطياد الحيوانات من أجل ذبحها وأكلها فشيء عادي أوافقه عليه ، ولا ضير في جنونه اذن.

— ليس في الأمر غير ما قلت لك .

— لو كنت أدري بهذا لما عفت طعامه ، ولا كرهت أن أنام عنده في الكوخ.

— انك تخشى كل ما يمت الى الطقوس بصلة يا توماس ، فهل فكرت مرة ما هو سبب ذلك ؟

— لا ، ولمَ أقلق نفسي بالتفكير ؟

— لأنه يبدو أن في الأمر فخاً نصب لك ، فوقعت فيه .

— يجوز ذلك ، فلم يسبق لي أن فكرت في ما تحدثني عنه .

وظل الرجلان سائرين حتى شارفا حدود مرعى قطيعها، فشاهدا النهر وقد جفّ ماؤه ، فيبس الطحلب على صخور ضفتيه ، وأصبح هشاً قاسياً يميل لونه الى الصفرة .. عندئذ قال ثوماس :

— دعنا نتسلق التلة ونمر بالأخدود فنسوق ما نجده هنالك من أبقار قطيعنا .

وتسلقا التلة ، إلا أن ثوماس جذب لجام حصانه فجأة فوقف الحيوان ، وأشار سيده بيده وقال :

— انظر يا جوزيف ، هاك خمس عشرة كومة من العظام تجتمع حولها بنات آوى لتعرق ما تبقى عليها من لحم.. لقد وجدتها ميتة فالتهمتها . هذا ما يجعلني أكره البقاء هنا حيث يطالعني مثل هذا المنظر كل بضعة أيام . هيا الى المزرعة ، سأسوق القطيع غداً وبالأحرى ما تبقى من القطيع ...

ولكز ثوماس حصانه فعدا باتجاه المزرعة . وتخلف جوزيف عنه ففكر وقلبه يفيض حسرة وأسى .

« لا بد أن هناك خطأ عظيماً جنيته دون أن أحس به، لقد عهد إليّ والدي برعاية المزرعة ، فوهبني روحه وحكمته .. ولكن ها هي المزرعة خاربة تنعي من بناها! ومعنى ذلك أنني قد أخفقت في صيانتها والمحافظة عليها حية عامرة. لن أتركها أبداً ، بل أبقى معها ، فلربما لم تكن ميتة ، وإنما خامدة». ومرّ بخلده ذلك الينبوع الصغير في غابة الصنوبر ، والصخرة الجبـــارة التي ينبع من تحتها فتساءل جوزيف :

— هل جفّ ذلك الينبوع يا ترى ! عليّ أن أراه ، اذا كان قد جفّ فمعنى ذلك أن المزرعة قد ماتت الى الأبد ، أما اذا لم يجف ، فإن المزرعة لا زالت فيها بقية من حياة ، سأتحقق من ذلك قريباً .

وتابع جوزيف طريقه نحو البيوت ، وكان ثوماس قـد وصلها قبله ، فسأله الرعاة :

— هل جمعتم القطيـع ؟

— نعم .

— وكم عددهم ؟

— ٤١٦ بقرة ، فقد نفق أكثر من مئة .

— أكثر من مئة ! الويل لي .

ووصل جوزيف فقال :

— هل يستطيع باقي القطيع أن يسير حتى سان جواكين يا عمنوئيل ؟

— لا أدري ، سنسوق ببطء ، فاربما وجدنا بعض الكلأ في الطريق ، ولا بد أن ينفق بعض البقر .

— إذن قدّم للقطيع جميع ما عندنا من البرسيم والحشيش الجاف ، فذلك يساعد الأبقار في رحلتها .

— سينفد البرسيم غداً .

— إذن ابدأوا الآن .

وأخـــذ العمال وثوماس يحمّلون الكارة والعربات بالفراش وأكنان الدجاج وأدوات المطبخ وغير ذلك مما يحتاجونه في موطن استقرارهم الجديد .

فوضعوا الخيام وأكياس المؤن وبرميلين من الماء والخنازير الحية ، كل ذلك في الكارة ووزعوا الإوز وشعير الخيل وما عندهم من قمح على العربات الاخرى . وحلّ المساء فكان البيت جاهزاً للنقل .. وعلمت راما أن جوزيف باقٍ في المزرعة ، فذهبت اليه وقالت :

— لماذا تبقى يا جوزيف ؟

— لأعتني بالمزرعة ، لأبقى فيها ..!

ولحق بها ثوماس وقال معترضاً :

— وهل بقي في المزرعة ما تعتني به يا أخي ؟

— نعم .

— وهل تود أن آخذ طفلك معي ؟ أنا راما التي تعرفها .

ـ نعم ، خذيه يا راما ، فأنت أقدر مني على العناية به .
ـ وهل تعتقد أن حياته في الخيمة ستكون معقولة ؟
ـ ألا تريدين أن يرافقك يا راما ؟
ـ بلى ، أريده ولداً لي .
ونظر جوزيف نحو غابة الصنوبر ثم قال :
ـ لماذا تريدينه ولداً لك ؟
ـ لأنه جزء منك يا جوزيف .
ـ هل تحبينني يا راما ؟ هل هذا ما يجب أن أفهمه ؟
وتقطعت أنفاسها وقالت :
ـ لا ، فأنا أكرهك تقريباً .
ـ إذن خذي الطفل، خذيه لك، وعلى مدى الحياة، وأقسم أنه لن يخصني إلى الأبد .
ـ وكيف أطمئن الى ذلك ، الى انك لن تطالب به بعـــد أن يكبر وهو يعتقد انني امه .
فابتسم لها وعاوده هدوءه الذي يعهده وقال :
ـ انظري يا رامـا ، تلك كانت شجرتي ، في وسط المزرعة ، كانت كالأب تحرس الشجرات الصغار ، وتحرس المزرعة ، ولكن بيرتون قتلها .
وربّت لحيته وثنى شعراتها الى الداخل كما كان يفعل والده ، وظهر في عينيه ألم مرير ، كما ظهرت مقاومة عنيفة لذلك الألم ، وقال :
ـ انظري الى الاخدود حيث تقوم غابة الصنوبر يا راما ، فهنالك حلقـــة مكشوفة من الارض في داخل الغابة ، وفي وسطها صخرة عظيمة ، تلك الصخرة قتلت اليزابيت ، ثم أجيلي نظرك تري قبر بنجامين وضريح اليزابيت .
ونظرت راما الى محدّثها وقد أذهلها ما تسمع ودون ان تفقه ما يعني،فتابع جوزيف :

— لقد أصاب الأرض نارك ، ولكنها لم تمت ، إنها تنمو بعمل قوة أعظم من قدرتها ، وذلك أصبح عليّ ان أبقي لأحميها .

— وماذا يعني كل هذا بالنسبة إليّ او الى الطفل ؟

— لا أدري ، وإنما يجوز انه يساعد على شفاء الطفل الك ، كما يبدو لي انه يساعد الأرض نفسها حتى تزول عنها الغصة .

وتحولت راما بأصابعها شعرها وقالت بعصبية وغضب :

— تعني انك تضحي بالطفل يا جوزيف ؟ هل هذا ما تعني ؟

— لا أدري ، سمّيه ما شئت . أما أنا فسأحاول ان أساعد الأرض ، فلا تحتمي ان أسترد الطفل منك أبداً .

فنهضت راما وابتعدت مسرعة حذرة وهي تقول :

— وداعاً يا جوزيف ، اني راحلة غداً ، وذلك يسرّني ، لأنني سأظل أخافك دائماً ، سأظل أخاف منك .

وارتجفت شفتاها وفاضت عيناها بالدموع وهي تقول :

— أيها المسكين المتوحد ، انني اشفق عليك ، وأخافك ، وأقدّسك .

وغابت راما عن بصره في بيتها لتسافر غداً .

ورنا جوزيف ببصره الى الغابة وقال :

— الآن صرتُ وإياك واحداً ، لقد اتحدنا ، فلنعمل سويّةً .

وهبّت الريح من التلال وارتفعت عاصفة من الغبار في فناء الدار ، وكان ذلك تكريساً مقدساً للاتحاد . هكذا فهمه جوزيف .

قضت الأبقار ليلتها تقضم البرسيم والحشيش الجاف ، والخيل تختزن في كروشها من الشعير ما يكفي يومها المقبل . وقبيل الفجر ، صعدت راما الى مقعدها بعد أن أجلست الأطفال ، ووضعت جون — ابنها الجديد — في سلة ركّزت اطرافها في منتصف العربة ، وتبع ثوماس زوجته ، ووقف جوزيف يلوّح لهما بيده ، فتنهد ثوماس بعمق وقال :

– سأكتب لك يا أخي حين وصولنا .

– سأترقب ذلك .

– حسناً ، نبدأ الآن ، وداعاً .

– لا تنسوا أن تتوقفوا عن المسير وقت الظهيرة .

– هذا إذا وجدنا ما نستظل به . وداعاً .

– وداعاً يا ثوماس ، وداعاً يا راما .

– سأجعل ثوماس يكتب لك عن الطفل يا جوزيف ، وداعاً ، وداعاً . . !

وتحركت عربة راما حينما ساطت المرأة جيادها ، وتبعتها عربـــة زوجها وفيها الأطفال ، وكانوا كلهم نياماً إلا مارتا التي كانت تصرخ مودعة عمها لأنه لا يراها ، وأيقظ صراخها بقية الأطفال فقالت :

– اسمعوا ، نحن ذاهبون الى مكان رديء ، ولكنه خير من هذا على كل حال لأن المزرعة ستكون حارقة من شدة الحر خلال اسبوع او اثنين .

وذهب جوزيف الى روماس ، رئيس السواقين ، وقال :

– كن بطيئاً يا روماس ، تمهّل على القطيع .

– لا تخف ، فكل من معنـــا ساقة ماهرون ، أنا درّبتهم وأعرفهم ، لا تخشَ شيئاً .

كان الساقة يسرجون خيولهم حينئذٍ ، وانبرت ستة كلاب ضخمـــة طويلة الشعر للعمل ،فأخذت تنبح تردّ البقرة الضالة او البعيدة عن القطيع حتى تجمّع. ولاحت خيوط الفجر ، وانفتح باب الحظيرة ، واصطفت الكلاب ثلاثة من كل جانب ليبقى القطيع في الطريق ، ولوّح الساقة مناديلهم ثم ربطوها على أرنبات انوفهم ، واختفى القطيع في سحابة من الغبار بعد مئة ياردة من بدء المسير .

ظل جوزيف واقفاً مكانه لا يريم ، فقدّر مشقة الرحلة على القطيع وتأسّف وهو يقول :

– ها قد فارق القطيع المزرعة ، هـذا مع ان أكثر البقرات والعجول قد

وانت هنا وتفتّت من هذه الأرض واستنشقت هواءها .

وتصوّر في ذهنه خيالات شتى : كيف كانت الحقول تكتسي ثوباً جديداً في الربيع أطلس لامعاً ، وكيف يسيمها بشعار (ج ، د) ، وكيف كان يحتفظ بزوائد آذانها وأنفها في الخيال ، فلفّه سكون شامل عميق . ونظر الى بيت راما فكان مشرع الباب تسكنه الريح ، وكذلك البايكة والاسطبل . سكون في سكون . وعاودته سكينة نفسه ، فالتفت جهة غابة الصنوبر ، حيث تذكّر السكون المطلق . ولم يطق كل هـــذا فتحرك ، ذهب الى البايكة فرأى مذود ثوماس ، وإلى الاسطبل فرأى كيساً من شعير نقله الى فنائه وبذر حبّـــاته في الأرض ، ثم أخذ يتمشى في الفناء جيئة وذهاباً ، كالخفير يحرس معسكراً .

ورأى حبلاً للغسيل فتذكّر : في مثل هـــذا الوقت كانت تطلّ راما حاملة سلة الثياب المغسولة بعـــد أن قتلتها دعكاً ، فتتعلق معاطف الأطفال الصغيرة بتقاطر الماء من أطرافها التي لم تعصرها راما جيـــداً . وفي مثل هـــذا الوقت كان ثوماس يفك الحبل من مرابطها ليسوقها الى (خندق الماء) حيث تمد أعناقها ، وتنفض أجسادها ثم تقبل على الماء فترتوي .

لم يسبق أن كان شعور جوزيف بالحاجة الى العمل قوياً كما في هذه اللحظة ، كان يود أن يشغل نفسه بأي شيء ، فذهب الى جميع البيوت في المزرعة وأغلق أبوابها ثم أقفلها . وكذلك فعل بالنوافذ . وثبّت أبواب الحظائر بالمسامير ، وعاد الى بيت راما تدفعه اليه قوة يجهلها جوزيف ، فوجد قميصاً لأحد الأطفال ملقى على أرض الغرفة ، فعلقه على ظهر كرسي . ولاحظ أن الأرض مكنوسة نظيفة وقد وضعت المكنسة والمسفاة جانباً ، فقال : (حقاً ان راما امرأة مرتبة) ، وغادر البيت ، وشعر وهو يقفل بابه أنه يقترف جريمة ما ومن نوع غريب يشبه شعور من يدق المسمار الأخير في تابوت فقيد عزيز عليه ، ثم يسدل الغطاء فلا يعود يرى عزيزه الى الأبد .

وعـــاد الى بيته ، فرتب سريره ، وأحضر حطباً وضعه أمام المدفئة كي

يستعمله في الطبخ مساء ذلك النهـــار ، ثم كنس غرف البيت ، وجمع القمامة فأخرجها، وعبأ ساعة الحائط ، وأكمل في بيته ما رآه في حاجة الى إتمام ، شأن ربات البيوت الماهرات .

كل ذلك فعله جوزيف قبل أن ترتفع الشمس الى خط الزوال ، وانتهى من عمله وأصبح من حقه أن يستريح ، فنزل إلى المصطبة أمام البيت وتمدّد عليها .

كانت الشمس حارقـــة ، تلسع أشعتها الأرض فتلهب أديمها ، ومع ذلك استحسن جوزيف أن يظل على المصطبة هناك . واجتاز الباحة سنجاب صغير ، ففكر جوزيف (لقـد عرف السنجاب أن المزرعة مقفرة ، فهو لا يخشى شيئاً حين يجتاز هذه الباحة !) . ونقله تفكيره الى معنى آخر فقال: (لولا أن الأرض ميتة حقاً لما ظل هنا هذا السنجاب) . وكان يطارد السنجاب ثعلب أحمر صغير لم يمسكه ، بل أثار زوبعة من الغبار ليس إلا . وطنّ صرصور في قاع المصطبة ، وقد رفع قرنيه يتحسس بهما اتجـاه الذباب ، وكان طنينه رتيباً مملاً انتقلت منه العدوى الى جوزيف فتثاءب ، وشعر بأن الزمن قـد أصبح ثقيل الحركة بطيء الدوران. وطقّ حافر الحصان فانتبه جوزيف له وشكر الحيوان على أنه المؤنس الوحيد لسيده في مزرعة هجرها الجميع .

ورفع جوزيف بصره صوب التلال الجرداء ومسايل المـاء تتلامع قيعانها في وهج الشمس بيضاء صخرية ملساء كأن لم تعرف الماء من قبل ، والروابي قـــد خلعت عذارها فانكشف من سطوحها ما اعتاد أن يستره الحشيش .

وجال جوزيف ببصره هنا وهناك ، واستقر أخيراً على غابة الصنوبر ، فنزل الرجل عن المصطبة في الحال ، ومشى صوب تلك الغابة .

كان جوزيف يستطيع أن يركب حصانه ،ولكنه ذهب ماشياً . وفي حرارة الظهيرة ودون قبعة على رأسه .. فتصبب العرق من جسده ، وحـال لون قميصه أسود من أثر العرق والغبار ، وظل جوزيف ماشياً ، وفكر : «

(لا بد أن أرى الينبوع ، ولا أظن أنه قد جف) . واقترب من مسيل الماء

فسمع خريراً بسيطاً انفرجت له أساريره وقال : (ها هو لم يجف ، كما أن الأرض لم تمت .) .. ووصل الماء فانحنى عليه يبعد السرخس الطافي على سطحه ليغسل يديه ويبلّ وجهه ويسكب الماء في جيب قميصه فيبترد قلبه . وحفر بأصابعه قليلا ، فنزّ الماء ، وتركه جوزيف يصفو ثم انحنى عليه ليشرب مستنداً على مرفقيه ، ممدداً جسده على الأرض . وتابع جوزيف سيره على حافة المسيل الى حيث أصلُ الينبوع ، فدخل الحلقة المكشوفة بين أشجار الصنوبر عاري الرأس ، كأن ذلك احتراماً منه .. وواجه جوزيف الصخرة فارتعش جسده ، إلا أنه تقدم نحوها ولكن بخشوع ، ونظر :

كان الطحلب قد حال أصفر جاف الرؤوس يقترب اليباس من جذوره ، والسرّيس في باب المغارة التي تحت الصخرة قد وقف عيدان جرداء تتعلق بها بعض الأوراق الصغيرة الضامرة ، أما الينبوع فقد نقص الى ربع حجمه مع أنه لا يزال يسيل . ورأى جوزيف مواطىء قدمي الزابيت على طحلب الصخرة ، وقد يبس الطحلب تماماً هناك ، فأخذ قليلا من الماء ورشقه على الصخرة ، فامتصه الطحلب بسرعة ، وحفر جوزيف بيديه نقرة صغيرة في قاع المسيل ، وانتظر حتى امتلأت ثم جعل يغرف الماء منها في قبعته ويسكبه على الصخرة . ولذّ له العمل ، وشعر بأنه يجب عليه أن يحافظ على حياة الطحلب ، وعلى رطوبة الصخرة ، فقال : (غداً أحضر دلواً ومجرفة) . ولم يصرّح لنفسه بحقيقة أحاسيسه ، فقد أحس حينئذ أنه قد اتحد بالصخرة وطحلبها ، فكان عليه أن يحفظ لها الحياة لأنها حياته هو ، إذا أنقذها فإنما ينقذ حياته ذاتها ، كما طرق ذاكرته قول الشيخ له : (وأنا الشمس) .

وانتهى جوزيف من سكب الماء فجلس بعد أن بلّل رقبته وقميصه بالماء البارد وشرب نصف قبعته ماءً . جلس يفكر .. ورأى أشجار الصنوبر تحيط بالحلقة المكشوفة إحاطة السوار بالمعصم فقال :

— هنا تظل الارض أمينة من الموت ، فهذه الصخرة مركز الحلقة ، والماء

يفيم من تحتها وهي التي ستحتفظ ببذرة الحياة للأرض حتى يحلّ الشتاء القادم، فتبدأ تلك البذرة عملية صالحة لأن تتآلف فاعلها .

وشمّ رائحة الطحلب والأرض المبتلة فاستعاد منظر الهبط على سفوح التلال وتراءت له مسايلها حيّات رقطاء تتلوّى جوعاً وقرّر أن تغرز أنيابها في بذرة الحياة للأرض وقال :

ـ عجباً ، لا زالت الأرض حيّة ، فما هذا الذي أبقى الفظ من تلك المسايل !

وتذكّر أن الينبوع يغور بعد مئة ياردة من منبعه فقال :

ـ ما أشد فظاعة الأرض في وحشيتها ، إنها كالكلب حين يكاد يقتله الجوع .

وحسّن الصورة في نفسه فقال :

ـ تود الأرض ان تبتلع هـــذا النهر ، وستفعل ، وهي مجنونة عطشاً حتى لقد تمتص دمي اذا استطاعت الى ذلك سبيلاً .

ونظر ثانية الى الصخرة وقال :

ـ ها هو قلب الأرض وهـــذا الينبوع دمها ، فعلينا ان نبقي ذلك القلب ينبض وإلا استشرتْ وحشية الأرض فهاجمتنا .

كانت الساعة قد قاربت وقتَ العصر ، وانتبه جوزيف لذلك فقال :

ـ جئنا في الوقت المناسب ، وسنظل ههنا في أمان من الأرض ولنحفظ لها بذرة الحياة .

والآن ما سِرّ جوزيف ، انه كان يتكلم بصيغة الجمع ؟ لقـــد أصبح يعتبر نفسه صخرة اخرى، فهو والصخرة شخصان متحدان في شخص واحد ، وبلفظ الدين : اقنومان .

واختفت الشمس وراء التلال ، وركد الغبار ، وطافت بالجو طيور البوم ، وهبّ نسيم المساء عليلاً يمسح بيسده الرقيقة على جراح الأرض ، وهجع الكون فنام جوزيف .

لكن غفوته لم تطل ، فقد صحا وفطن الى مكانه وتيقظت مشاعره فقال :

ـ لا بد أن شيئاً قد حدث للكون في هذه اللحظات .

ومنذ ذلك الحين عاش جوزيف في صومعته الى جانب الصخرة يهبها الحياة من ماء الينبوع، وتهبه الحياة بالطمأنينة التي تدخلها على نفسه . ولقد انسلّ مرة الى المزرعة فعاد باللحم والمؤونة وهجر بيته الى حيث يتنسك الى جانب الينبوع والطحلب .

كان كاهناً وجد الماء والطعام والعبادة فزهد في غيرها .

- ٢٤ -

دار الحول . فانقضى الصيف وتبعه الخريف ، ومع أن الخريف كان أقل حرارة من سابقه إلا أنه في تلك المزرعـــة ومنطقتها كان وإياه شقيّ توأم ، فظلت الحرارة شديدة ان لم أقـــل ، ازداد القيظ وطالت اللافحة . . ومضى الخريف وغابت قوادمه . وفي تشرين الثاني فقط أخـذ الجو يميل الى الاعتدال أولاً ثم تبعه البرد وبدت بشائر الشتاء الساقع ، وكان جوزيف طيلة هـذه المدة معتكفاً في صومعته بجانب الصحرة ، يروي الطحلب من الينبوع وترتوي نفسه بالاستقرار والسكينة ، واخضر الطحلب من أثر السقي الدائم ، وأصبحت عروقه طرية لينة ، ولم يعد جوزيف ضامراً معروق الوجه بل امتلأ جسمه وظهرت العافيـة على ملامحه .

وكان من عادة جوزيف أن يهبط مدينة السيدة كل اسبوعين فيتزوّد بمـــا يحتاجه في اعتكافه من مؤن ويستفسر عن بريده ، وتسلم رسالة من ثوماس مرة فسرّ بها غاية السرور وأخذ يقرأها .

« الكلأ متوفر عندنا ، وقد نفق ثلاثماية رأس من القطيع في الطريق ، أما الباقي فسمين نشيط ، وتتمتع راما بصحة جيدة ، وهي تسلم عليك ، وكذلك جميع الأطفال ، أما اجرة المرعى فعالية جـداً بفعل سنيّ القحط في الأماكن الاخرى وتزايد المنتجعين ، والأولاد يسبحون يومياً في مياه النهر والسلام » .

ولقي جوزيف رئيس الساقة روماس في المدينة ، فاستفسر منه عن مشاق الرحلة فحدثه الأخير كيف كانت البقرات يتساقطن في الطريق واحدة واحدة، أنهكهن التعب ، وأعوزهن العلف والماء ، وكيف كان ينظر في وجوههن فيقتل الضعيفة العاجزة بطلقة من بندقيته ، وينهر التعبة لتتابع المسير ، وكيف كان الطريق يعج بالقطعان المهاجرة الى حيث تجد الكلأ ، وبيّن له أن الساقة كانوا يقتلون كل ثور أو بقرة غريبة تدخل قطيعهم مما أدى الى خصومات كثيرة مع الرعاة الآخرين ، وأن راما خشيت أن يمرض الأطفال من نتن رائحة الرمم المبعثرة ، فجعلت تعصب وجوههم بالمناديل المبللة وأن المسافة اليومية التي كانوا يسيرونها أخذت تتناقص يوماً بعد يوم ، خصوصاً وأن القطيع يقيل طول الليل عاجز عن متابعة السير ، حتى أطلوا على ضفاف النهر فرقد الناس وقالت الأبقار بعد أن ارتوت ، ونشط بعضها فرعى ما طاب له من الكلأ ، ثم قال :

— وقد دفع لي ثوماس الأجر .

وعاد جوزيف الى الغابة ، وكان في طريقه لا يرى إلا دوّامات من الغبار تثيرها حوافر الخيل وأظلاف القطيع ، ولا يسمع إلا طقطقة حديد العربات وصرير ألواحها ، ويلوح له بين الفينة والاخرى ، رؤوس مكممة بالمناديل ، ووجه راما العريض تكسوه علامات القلق وعدم الارتياح .

وانتبه جوزيف الى طريقه هو فلاحظ ان الجفاف قد هاجم الارض بشراسة أشد من عهده سابقاً ، فقد يبست عروق الدوالي المنخفضة وتخشبت سوقها . وتحول كدر التراب الى مسحوق ناعم ، أما الاجسام فقد أصبحت شفافة ينفذ منها البصر إذ انها لا تحمل أوراقاً ، وإنما تتشعب أغصانها كأعصاب الجسم بعد ان يُزال عنه اللحم ، ولاحظ ان غابة الصنوبر ظلت على حالها وسط ذلك الفناء التدريجي للكون ، لأن جذورها عميقة في الارض تلتقط الرطوبة من حيث لا تصل اليه الشجيرات ، كما أن وجود الينبوع في منتصفها يهبها نوعاً من الأمن تعيش عليه .

ووصل الصخرة ، فتبين له أن الماء أخذ يناقص في الينبوع ، فقرّر أن يتخذ له شبه مقياس يعيّن به مقدار ذلك الانخفاض في المستوى والضيق في المساحة ، وقال :

— يبدو ان القحط سيكسب المعركة ، فيهاجمنا الجفاف .

وتناول جوزيف غداءه ، ثم جلس يرقب الماء ، فسمع الجفاف يتقدّم نحو الغابة فتتزاح من أمامه أوراق الصنوبر الابرية الدقيقة مفسحة له الطريق ، وأحس به تتسع دوائره فيلف الغابة كلها ولكنه يظل بعيداً قليلاً عن الصخرة والينبوع ، ففكر جوزيف : « إذن أنا في أمان منه ، فما دام الينبوع بعيداً عن متناول يده فإنني منه سأهب الحياة للصخرة ، وهي بدورها تهبني الحياة » .

ولم يبق جوزيف على تفاؤله هذا بل انعطف الى التشاؤم فقال :

« ها هو الجفاف يتقدم ، وسيحط رحاله عندي مع المغيب ، وعنـــد ذلك يكون الينبوع قد جفّ والارض قد تكامل موتها » .

وزاد الصمت وتقصفت أوراق الصنوبر ، ونخر الحصان ، وعجب جوزيف لما سمع بعد ذلك .

سمع نخرة من حصان ، إذن فهنالك حيوان آخر غير حصانه ، ولا يمكن ان يأتي الحصان وحده ، فلا بد أن على ظهره أحد ، من هو يا ترى ؟ من هو ؟

ولم يمهله الطارق ، فسمع جوزيف صوتاً ينادي :

— أين انت يا مستر واين ؟

وتدفق الدم الى رأس جوزيف ، لقد وجد من يناديه ، من يذكره باسمه ، فتنهّد وقال :

— هنا يا جوانيتو .

لقد عرفه ، إذ من غير جوانيتو يمكن أن يزوره في غابة الصنوبر !

وتقدم جوانيتو ، فترجّل وأطلق حصانه ثم قال :

— قدمت اليك من مدينة السيدة ، فقد علمت انك بقيت وحيداً بعـد ان انتقل القطيع . وذهبت الى المزرعة فلم أجدك .

— إذن كيف عرفت انني هنا ؟

— تذكرت ما قلته لأخيك يا سنيور ، يوم كنتُ معكما ودللتكما على هـذا المكان ، لقد قلت : « هـــذا المكان يشبه الماء البارد » ولذلك فإنني اجتزت التلال وقدّرت أين يمكن ان أجدك . ما لك سنيور ، يبدو لي انك مريض ، فوجهك شاحب !

— لا ، يا جوانيتو .

— إنك محموم يا سنيور ، فيجب ان تزور الطبيب غداً .

— لماذا عدت يا جوانيتو ؟

— لقد زال ما كان يضطرني الى الابتعاد ، وعرفت ذلك ، فقدمت ، عدت الى أهلي ، فلي طفل صغير تذكره يا سنيور ، وهو يبدو في ملامحه عليّ ، فميناه زرقاوان وهو يلثغ في كلامه قليلاً ، ويطلق عليه جده اسم شانجو ثم يضحك .

وتابع جوانيتو حديثه :

— أخبرتني أليس عن مصير السيدة فحزنت أشد الحزن ، هنـــالك شموع تحترق من أجل روحها في السماء يا سنيور ، فلا تحزن .

— لقد كنت أشعر بما حدث قبل وقوعه ، وقد أخذ الشقاء يزحف علينا قليلاً قليلاً ، وهو الآن قد قارب نهاية زحفه ، فلم يبق عليه إلا أن يقطع هـذه الغابة الصغيرة من الصنوبر .

— ماذا تعني يا سنيور ؟

— اصغِ إليّ ، كانت الارض أولاً فجئت أنا لحمايتها ، أما الآن فالارض ميتة تقريباً ، ولم يبق إلا أنا وهذه الصخرة ، أنا هي الارض يا جوانيتو .

وبدا في عيني جوزيف ألم عميق وأسى بالغ وهو يستأنف حديثه ويقول :

— لقد حدثتني اليزابيت مرة عن رجل حاول الهروب مما قدّر له ، فتعلق بمذبح منحه الأمن والسلامة .

وابتسم جوزيف حزيناً عندما تذكّر اسم زوجته وقال :

– كانت الزايبت تحمل الكثير من الحوادث والأخبار السالفة ، وفي أخبارها عبرة وعظة ، كما كانت دائماً تشير الى نهاية الطريق أمام أبطال تلك الأقاصيص .

– لقد حزنت عليها كثيراً يا سنيور عندما بلغني الخبر .

– قل لي يا جوانيتو ، أين ذهبت بعد ارتحالك من هنا ؟

– إلى مدينة السيدة ، حيث اصطحبت وليم المسكين ، هل تذكره يا سنيور؟ وليم وأحلامه بالناس الذين يطلعون عليه من شقوق الأرض فيتخطفون أعضاءه وهو يصيح: مسكين.. رافقته الى سانتا كروز حيث عملنا معاً في مزرعة هناك ، وقد أحب وليم الأشجار الضخمة في المزرعة ونسي حلمه المزعج و ...

– لحظة من فضلك .

ورشق جوزيف الدلو المملوء بالماء على الطحلب فوق الصخرة . ولاحظ ذلك جوانيتو .. وبعد أن عاد جوزيف الى موضعه سأله ان يتابع حديثه فقال بعد ان نظر الى القمر :

– أنا أكره القمر يا سنيور ، وعلى كلٍ ظللنا نشتغل في المزرعة ، وكان الحلم يعاود وليم أحياناً ، ولكنني أسرّي عنه ، ولا أدعه يقع فريسة سهلة ، وأصطحبه معي الى سانتا كروز حيث نشرب الوسكي ونجد فتاة تسرنا . وفي احدى الليالي رأى وليم حلمه ، ونزلنا سانتا كروز في اليوم التالي ، ووجدنا هنالك رجلاً معه تلسكوب يتفرج فيه الناس على القمر لقاء خمسة سنتات للمرة الواحدة فنظرت في التلسكوب أولاً ثم نظر وليم .

وفجأة اعتراه الهزال وداهمته الحمى حتى أصبح عاجزاً عن المشي ، فحملته قدامي على الحصان وربطت حصانه خلفي وعدنا الى المزرعة ، إلا أن وليم شنق نفسه تلك الليلة بانشوطة علقها في فرع شجرة . لقد ظهر له في التلسكوب أن أحلامه موجودة حقيقة على سطح القمر ، فلم يتحمل الصدمة وآثر الانتحار . فوجدته ميتاً في صبيحة ذلك اليوم .

– لم تخبرني لماذا عدت يا جوانيتو ؟

— أردت العودة يا سنيور ، فقد شعرت بالوحدة هنالك ، هل فارقك ما كان فيك يا سنيور ؟

— نعم ، فلم يكن فيّ ما تشير اليه أبداً ، وليس هنا إلا أنا .

كان جوانيتو يشير الى عدم رغبة جوزيف في الانتقام ، أما جوزيف فينفي وجود حب الانتقام أصلاً .

— ولِمَ بقيت هنا بعد أن انتقل القطيع وأقفرت المزرعة ؟ تعال معي إلى مدينة السيدة يا سنيور .

— بقي الينبوع ، وظلت الصخرة مكانها يا جوانيتو ، وحتى لو جف الينبوع ويبس الطحلب من على الصخرة فسأظل ههنا. سأظل ، نعم سأظل حتى أموت، وحينئذٍ لن يبقى هنا شيء ما .

— سأظل معك ، فالأمطار لا بد أن تسقط ، وسأنتظرها وإياك .

— أنا لا أريدك هنا ، فبقاؤك معي يطيل مدة الانتظار ، ليس عندي الآن إلا الليل والنهار ، فإذا ظللت معي ، فإن ألوفاً من الأشياء الصغيرة الأخرى ستجعلني أحس بطول الزمن ، من حديث معك ، إلى نزهة قصيرة ، إلى كلمات أقولها لك : افعل هذا واترك هذا وغير ذلك ، فأرجوك أن تنصرف .

— الوقت في عيد رأس السنة ، وسيقدم العيد بعد يومين يا سنيور ، فدعني معك حتى أشاركك وحدتك يوم العيد .

— آه ! إذن تبدأ سنة جديدة ! هل رأيت غيوماً في الجو وأنت قادم يا جوانيتو ؟

— لا غيوم يا سنيور .

— يجوز ان تتكون في الصباح ، فما دمنا قريباً من رأس سنة جديدة فلا بد أن يسقط بعض المطر .

— أعيد عليك القول : أنت محموم يا سنيور .

— لا يا جوانيتو ، نعم أنا قليل الطعام ، ونادراً ما أشتغل ، ولكن صحتي جيدة .

— هل فكرت في رؤية الأب الخوري ؟

— أعني الخوري ؟ لماذا أفابله ؟

— لا أدري لمَ ، ولكنه رجل عاقل حكيم ، ومقرب من الرب .

— وماذا باستطاعته أن يعمل ؟

— لا أدري ، ولكنني اعترفت له قبل سفري الى سانتا كروز ، فذكرك بالخير وقال إنك عاقل حكيم ، ولا بد يوماً أن تأتيه فتطرق بابه ، كما قال : إن حكمتك ستعوزها القوة يوماً ما فتنشد تلك القوة . وهو رجل غريب في طباعه يا سنيور ، يصغي الى اعترافات الناس ثم يفرض عليهم العقوبة ويتحدث أحياناً بما لا يفهمونه ، ويظل يتحدث غير منتبه اليهم ولا مهتماً بهم سواء فهموا أم لم يتعد كلامه آذانهم .

— وماذا أستطيع أن أطلب منه ؟ وما الذي عنده حتى يعطيني منه ؟

— لا أدري ، ولكنه يمكن ان يصلي من أجلك .

— وهل سيكون ذلك ذا نفع لي يا جوانيتو ؟

— إن صلاته تُرفع عن طريق العذراء ، ولديه القـــدرة على نيل ما يصلي من أجله .

— إذن أذهبُ اليه . أنظر يا جوانيتو ، انك تعرف هذا المكان كما يعرفه أجدادك ، وكما كان يعرفه أسلافك من قبل ، فلماذا لم يأتِ أحد منهم إليه في بدء سنيّ الجفاف ، مع أنه هو المكان الذي يجب أن يُقصَد إليه ؟

— لقد مات الشيوخ يا سنيور ، ونسي الشباب أهميته . ألا تنام يا سنيور فها هو القمر قد آذن بالمغيب ؟

— لا ، لا أستطيع النوم .

وأشعل جوزيف عوداً من الثقاب قربه الى الينبوع وهو يقول :

— أنظر يا جوانيتو ، لقد زاد الماء وارتفع مستواه وقدومك هو الذي سبب هذه الزيادة .

وأشعل عوداً آخر ونظر الى الماء وصاح :

— أواه إنه يرتفع بسرعة ، بسرعة .. أشعل نارا يا جوانيتو .

— اذهب لتنام يا سنيور .

— أنام ! لا ، لا يمكن ان أسمح بضياع الماء سدى .

— أراقبه لك .

— يجب أن أراقبه بنفسي . أشعل نارا كما قلت لك ، إذ يمكن ان خيراً قد حلّ بهذه الأرض ، ولربما تضخم الينبوع فغدا نهراً ثم نهراً وحينئذ ننتقل من هذا المكان الى المزرعة فتكون قد عادت الى أرضها الحياة . انظر .. أنظر .. ها هو الماء يرتفع .

— يجب أن تنام يا سنيور ، فأنت محموم وفي أمسّ الحاجة الى الراحة .

وربّت جوانيتو على ذراع جوزيف ولاطفه ، فاستلقى جوزيف وغطى جسده بالبطانيات ونام . ونظر جوانيتو الى صديقه نائماً فرأى رجلاً ضامراً معروق الوجه ، وخط الشيب لحيته وفوديه وتسلل الى شعر رأسه ، فتذكر ما كانت تحدثه بـه أمه من أقاصيص يتناقلها الهنود عن وجود (روح الضباب) وتذكر الحيل والألاعيب التي يمارسها ذلك الروح على الناس والآلهة الآخرين ، كما تذكر جوانيتو كنيسة مدينة السيدة ، تلك الكنيسة العتيقة بفنائها الموحل ومصاطبها الترابية الغبراء .

ورأى في ذكرياته صورة السيد المسيح معلقاً على الصليب ينزف دمه حيث دقت في جسده المسامير ، ولا يعكس وجهه حقداً ولا ألماً على الذين صلبوه ، وقال :

— مات المسيح فماتت الحياة معه .

لم يستبن جوانيتو علاقة هذه الصور والذكريات بواقع حاله مع جوزيف ولم يدرك ان أمامه مسيحاً آخر ، سيموت . وأشعل ناراً عظيمة يتدفأ عليها ، وحانت منه النفاتة الى وجه الرجل المسجّى على مقربة منه فأخذه العجب .

إنه يرى في وجه جوزيف نفس تلك العلامات التي تذكرها حين صوّر لنفسه المسيح في الكنيسة فتساءل :

— ولكن جوزيف ليس ميتاً !

وصلّب على نفسه ببار كها ثم ربّت على كتف النائم ، فقد كان يحب ذلك الرجل من أعماق قلبه ، لقد وجد فيه شيئاً لم يعثر عليه عند غيره من الرجال ، فأحبه .

ونظر جوانيتو الى الينبوع وراعه ان الماء قد ارتفع فتبلبلت أفكاره .

وتقدم جوزيف وهو يفيق ، فقال جوانيتو :

— انظر .. ها هو الماء يرتفع ، لقد زاد وأنت نائم .

— هل هذا صحيح !

— نعم .

وقام جوزيف يتحسس الطحلب وينظر الى الينبوع وقال :

— لقد أحسنت عملك يا جوانيتو ، أشكرك .

— أي عمل ؟

— ظللت تسكب الماء على الطحلب فحفظت عليه حياته . ألا يبدو لك الآن أشد خضرة من قبل ؟

وغلى جوزيف إبريقاً من القهوة على النار وسكب لنفسه فنجاناً ثم لضيفه آخر وأخذا يرشفان القهوة صامتين ، ثم سأل جوانيتو :

— نذهب الى الأب انجيلو اليوم يا سنيور ؟

— لا حاجة لذلك ، فها هو الماء يرتفع .

— لكن من الخير أن تقابل الخوري ، وستعود أكثر راحة وأهدأ شعوراً ، إذ مهما كان اعترافك أمامه قصيراً ، فإنه يجعلك تشعر بالراحة .

— لست من طائفة تلك الكنيسة يا جوانيتو ، ولا يمكنني ان أعترف .

— لا بأس ، فالخوري يقابله كل الناس ، وحتى الذين لم يعرفوا الكنيسة منذ ولدتهم امهاتهم ، يهرعون اليه كالحمائم تهرع الى أعشاشها في المساء .

— على كل ما دام الماء آخذاً في الارتفاع ، فلا حاجة لمقابلة الخوري .

وكان جوانيتو يعتقد ان مقابلة جوزيف للأب انجيلو ضرورية وانها ستعود

بالنفع الى صديقه ، فألحّ في الأمر وقال :

– أنا ولدت في هذه المنطقة ، ولذلك أعرفها أكثر منك ، وينتشر هنا رأي يقول بأن الينبوع يرتفع ماؤه عادة قبل ان يجف منه الماء .

– أفتكون زيادته بداية نهايته إذن ؟

– نعم يا سنيور ، إلا إذا تدخّل الربّ .

فظل جوزيف صامتاً بضع لحظات ثم قال :

– دعنا نذهب الى الخوري .

– ربما كان عاجزاً عن النفع ؟

– وإن يكن ، علينا ان لا نضيع الفرصة مهما كانت .

وأسرجا حصانيهما وسارا . وقال جوزيف في الطريق :

– من الضروري ان أعود الى الصخرة قبل ان يجف الينبوع ، فأسرع يا جوانيتو .

ولكز كل منهما حصانه فعدا ، وكانا يبطئان السير في المنعطفات وعند الممرات الصخرية الضيقة . ونظر جوانيتو الى الغرب وقال :

– ها هو الضباب على الساحل .

– هو دائماً هناك ، ولا خطر على الساحل ان يظمأ ما دام هنالك محيط .

– وها هي الريح تهب من جهة الغرب يا سنيور .

– لو كان ذلك في غير هذا العام لكان علينا ان نلجأ الى ما يقينا البلل .

أما هـذه السنة ، فكثيراً ما هبّت الريح من الغرب ، ولم يسقط من جراء ذلك مطر .

– ولكنها لا بد ان تمطر يوماً ما .

– لماذا لا بدّ ؟ يمكن ان لا تفعل .

كان جوزيف يشعر بالحنق كلما وقع بصره على التلال الجرداء تخطها مسايل الماء الجافة كأنها أضلاع عجل هزيل .

ووصلا مدينة السيدة ، فوجداها قـد هجرها نصف سكانها مرتحلين الى

شاطئ أكثر ازدحاماً وأقل حرارة ، تاركين بيوتهم ومتاجرهم ولا مارس لها إلا عشائر الباقين منهم . ومرّا بروساس واقفاً أمام بيته ، فلوّح لهما بقبضته صبياً ورداً تحياته دون كلام . وتابعا طريقهما الى الكنيسة العتيقة ، فوجـــدا صبيين يلعبان في الرحل ، وقال جوانيتو :

— سأدخل فأشعل شمعة في الكنيسة يا سنيور .

ورجل قفاب لحظة ثم عاد ، وقال :

— ها هو بيت الأب انجيلو خلف الكنيسة ، فعليك به ، وستجدني أنتظرك في بيت والد زوجتي بعد ان تنهي عملك .

— اسمع يا جوانيتو ، أنا لا اريد ان ترافقني في العودة الى الغابة .

— ولكنني أنا اريد ذلك ، وأنا صديقك .

— لا ، أود ان أكون وحيداً هناك .

وشعر جوانيتو يجرح في كرامته ، وقال :

— كما تشاء يا صديقي .

وافترقا .

كان بيت الأب انجيلو صغيراً أبيض الحيطان يقوم خلف الكنيسة مباشرة ، وصعد جوزيف الدرج وقرع الباب ففتحه له الأب انجيلو بنفسه وقال :

— تفضل ، ادخل .

ووجـد جوزيف نفسه داخل حجرة ضيقة سقفها من الخشب ، ولما كان لا يتقن المجاملات فقد قال :

— نصحني صديقي جوانيتو أن آتي اليك .

— لقد قدّرت أنك ستأتي يوماً ما .

وشعر جوزيف بشيء من الهدوء النفساني تركه فيه صوت الأب انجيلو الرزين ، وارتاحت نفسه وفارقه القلق ونسي الصخرة والينبوع .

— هل ماتت الشجرة ، وعجزت عن أن تمدك بالقوة ؟

وأخذت الحيرة جوزيف فقال :

ـ قد تكلمتَ عن الشجرة سابقاً ، فماذا تعرف عنها ؟

فضحك الأب انجيلو ، وأجاب :

ـ انني رجل دين ، وأعرف ما فيه الكفاية كي يدلني على رجل دين آخر ، أنا كاهن وأعرف أنك كاهن أيضاً ، أليس من الأفضل أن تناديني (يا أبت) .

وأحسّ جوزيف قوة تأثير الرجل فقال :

ـ نصحني جوانيتو أن آتيك أيها الأب .

ـ طبعاً نصحك ، لكن هل خذلتك الشجرة ؟

ـ لقد قتلها أخي .. أيبسها .

ـ كان ذلك خطأ منه ، ذلك حمق ، كان من الممكن أن يزيد في قوة تأثيرها.

ـ لقد ماتت .

ـ ولذلك جئت الى الكنيسة ؟

ـ لا أيهـــا الأب ، لقد جئت أسألك أن تصلي طالباً المطر ، فأنا من أهل فيرمونت ، وقد انتشرت عن كنيستك إشاعات كثيرة هناك .

ـ نعم أعرف ما يشيعونه .

ـ الأرض تموت الآن لاحتباس المطر ، فصلّ من أجله أيها الأب ، هل فعلتَ ذلك سابقاً ؟

وشعر الأب انجيلو أنه اخذ يفقد بعض ثقته بنفسه وقال :

ـ سأعينك يا ولدي في أن تصلي من أجل روحك ، أما المطر فسينزل . لقد أقمنا قداساً ، وسينزل المطر ، فالرب هو الذي يطلقه او يحبسه حسب مشيئته .

ـ وكيف تعرف ان المطر سينزل ، والأرض تموت الآن ايها الأب ؟

ـ الأرض لا تموت ابداً .

قال الأب انجيلو ذلك بحدة ، فقد ظهر له ان جوزيف يكاد يغلبه على نفسه ، وغضب جوزيف من حدة الخوري فقال حانقاً :

ـ وكيف تدري ؟ لقد كانت الصحاري حية من قبل ، فهل يكفي أن

يكون مرض رجل ما ، عشرة مرات ، وتقاؤه كل مرة ، دليلاً على ان ذلك الرجل أن يموت ؟

— انت مريض يا ولدي ، مريض في روحك وبدنك ، فهل تأتي معي الى الكنيسة لتشفي نفسك ، هل تؤمن بالمسيح وتسأله ان يطهّر روحك مما علق بها ؟

— روحي ! الى الجحيم بها ! انا اقول لك ان الأرض تموت ، فصلّ من اجل الأرض ، لا من اجل روحي .

ونظر الأب انجيلو الى عيني جوزيف وهاله ما يراه فيهما من دهان غريبة فقال :

— إن علاقة الله وعمله الرئيسي تختصان بالناس اولا ، وهدايتهم الى النعيم او معاقبتهم الى الجحيم .

— شكراً ، يجب أن أذهب ، كان عليّ ان اعرف اين يجب ان اكون الآن ، سأذهب الى الصخرة وأنتظر .

وتحرك جوزيف نحو الباب وتبعه الأب انجيلو قائلاً :

— سأصلي من اجل روحك ، يا ولدي ، فأنت معذّب تتألم .

— شكراً ايها الأب ، وداعاً .

وعاد الأب انجيلو الى كرسيه بعد ان انصرف جوزيف ، وفكر في قوة تأثير الرجل وشخصيته الطاغية ثم نظر الى صليب معلق فوق رأسه وقال :

— « الحمد لله ان ليس لهذا الرجل رسالة يبلغها ، الحمد لله على انه لا يطلب العظمة او المجد وإلا لكان الناس آمنوا به » .

وجدّف قائلاً : « وإلا لظهر مسيح جديد في الغرب » .

وأسرع الأب انجيلو الى الكنيسة فصلى طالباً إنقاذ روح جوزيف وتخليص نفسه ، والمغفرة لتجديفه هو ، كما صلى طالباً أن يهطل المطر فينعش الأرض وينتشلها من بين براثن الموت المحقق .

- ٢٥ -

فك جوزيف رباط حصانه من شجرة الزيتون القائمة أمام بيت الأب انجيلو وامتطاه ، وكان المساء قد حلّ فلمعت بعض الفوانيس في شوارع مدينة السيدة المقفرة ، التي اخترقها جوزيف في طريقه الى المزرعة . ولم يكد يسير مئة ياردة في عتمة الظلام حتى شعر بجوانيتو الى جانبه ، يقول :

— أود أن ارافقك يا سنيور .

— لا ، يا جوانيتو ، لقد طلبت اليك غير ذلك من قبل .

— إنك لم تأكل هذا اليوم ، وقد أعدّت لك أليس عشاء حاراً .. وهي تنتظر .

— شكراً ، شكراً ولكنني سأواصل السير .

— الليل قارس البرد يا سنيور ، فتعال اشرب لك شيئاً على الأقل .

— لا بأس في هذا ، سأفعل .

وأدارا رأس حصانيهما الى حانة قريبة لم يجدا فيها احداً غير صاحبها الذي مسح كرسياً قصيراً بفوطة في يده ثم قال :

— أهلاً وسهلاً بالمستر واين ، لقد انقضى زمن دون أن أراك .

— قليلاً ما اهبط المدينة ، اعطني وسكي .

وقال جوانيتو :

— وأنا وسكي أيضاً .

وأتاهما الرجل بكأسين من الوسكي ثم وقف أمام جوزيف وقال :

ـ ماذا أراك قد فعلت في إنقاذ بعض القطيع .

ـ نعم ، قليلا جدا .

ـ أنت أحسن حظاً من غيرك ، فصهري الساكن فقد كل شيء .

ثم أخذ صاحب الخانة يحدث جوزيف عن المزارع المهجورة ، وشظف العيش في مدينة السيدة تبعا لذلك ، وقال :

ـ ليس لدي من عمل الآن ، فالخانة خربة ، يرتادها نفر قليل من الناس يطلب الواحد منهم كأساً او اثنين ، أما بيع زجاجات الويسكي بالجملة فلم أعد أعلم به ، وأظل وحيداً كما تراني معظم الليالي ، أنتظر الرزق ولا زبائن .

وشرب جوزيف كأسه ثم قال :

ـ إملأها ثانية ، وصبّ لك واحدة .

وصب الساقي لنفسه كأساً وقال :

ـ سأضع برميلاً من الويسكي في الطريق العام ليشرب من يشرب عندما ينزل المطر .

ـ ولكن ماذا تفعل إذا لم ينزل المطر أبداً ؟

ـ لا أدري ، فلم أفكر في ذلك حتى الآن ، ولكنني أعتقد أنه يجب علي أن أرحل في تلك الحال .

ـ وداعاً ، أرجو ان تبلغ أُمنيتك .

ونهض جوزيف فودع جوانيتو ، وسار الى حصانه فامتطاه وباشر رحلته صوب المزرعة ثم الى الينبوع في غابة الصنوبر . وتبعه جوانيتو فقال :

ـ العشاء معد يا سنيور ، وأليس تنتظرنا .

ـ حسناً ، لقد أشعرتني الويسكي بالجوع ، سأذهب معك .

ولاقتهما أليس على الباب فقالت :

ـ يسرني ان جئت يا مستر واين ، يسرني أن أراك ، العشاء بسيط ولكنني سأضيف اليه بعض الأصناف . لقد ذهب والداي الى سانت لويس منذ عـــاد جوانيتو .

كانت مضطربة في حديثها، جُملها قصيرة متقطعة، فهي تشعر بعظمة ضيفها. وسارعت الى المطبخ فأعدت أرزاً مفلفلاً ونبيذاً وهيأت مائدة صغيرة هناك وعادت تقول :

— لم تذق طبيخ الفاصوليا من (تحت يدي) يا مستر واين منذ اليز ... منذ مدة طويلة .

وابتسم جوزيف قائلاً :

— إنك ماهرة في هذا الصنف من الطعام ، هكذا كانت تقول اليزابيت . يسرني أنك لا زلت تتذكرها .

واحتبست أنفاسها وفاضت عيناها بالدموع .

— أوه ، وهل فعلتُ إلا ما يجملني أتذكرها دائماً ؟

— ظننت أن ذلك يؤلمك جداً .

— نعم يؤلمني .. ويؤلمني جداً ..

وغصّ جوزيف ، فقال جوانيتو :

— اسكتي يا أليس ، لقد جاء ضيفنا ليأكل ، لا ليتحدث .

وكان جوزيف جائعاً حقـــاً فطلب طبقاً ثانياً أكله ، ثم بعض الفاكهة . وقالت أليس :

— هل سيرى السنيور طفلنا ؟ إن جدّه يناديه شانجو .

— أيقظيه من نومه يا أليس ليراه السنيور .

وحملت أليس الطفل ، ووقفت به يتثاءب أمام جوزيف وقالت :

— انظر يا سنيور ، ستكون عينـــاه رماديتين ، فهما زرقاوان بالنسبة الى جوانيتو ، وسوداوان بالنسبة إليّ .

وتفحص جوزيف الطفل وقال :

— إنه قوي جميل ، ويسرّني ذلك كثيراً .

— إنه يعرف أسماء عشرة أنواع من الأشجار يا سنيور، وقد وعده جوانيتو بأن يحضر له مهراً في سنين الخير .

ونهض جوزيف من على المائدة وقال :

ـ ما اسمه ؟

فتوردت وجنتا أليس خجلاً وقالت :

ـ إنه سميك يا سنيور ، اسمه جوزيف ، فهلا باركته ؟

ونظر اليها جوزيف وهو لا يصدق ما يسمع .. يبارك الطفل ! وقال :

ـ أمنحه بركتي ! أنا ! نعم ، سأفعل .

وأخذ الطفل بين يديه ، وردّ الشعر المهدل على جبهته الى الخلف ، ثم قبّل جبينه وقال :

ـ لتحيَ قوياً أيها الطفل ، لتكن ضخم الهامة قوي البدن .

وتناولت أليس منه الطفل ثانية ، وكأنه لم يعد طفلها وحدها وقالت :

ـ سأنوّمه ، ومن ثم ننتقل الى غرفة الجلوس .

ولكن جوزيف خطا بسرعة الى الباب وهو يقول :

ـ الآن يجب ان أذهب ، وأشكركم على العشاء ، كما أشكركم على سميّي الطفل.

وجعلت أليس تحتج على ذهابه مبكراً فأسكتها زوجها ، وتبع جوزيف الى باحة الدار فألجم الحصان وعدّل السرج ثم قال :

ـ إنني أخشى عليك ان تذهب يا سنيور .

ـ ولماذا ؟ ها هو القمر على وشك الطلوع .

ـ انظر يا سنيور ، هذه هالة تحيط بالقمر !

فضحك جوزيف وهو يعتلي ظهر جواده وقال :

ـ اسمع يا جوانيتو ، هنالك مثل تعلمته منكم في هذه المنطقة وهو يقول : « كل العلامات خادعة كذابة في عام الجدب ». ليلتكم طيبة يا جوانيتو..

ـ ليلتك طيبة يا سنيور ، أرجو ان تنتبه في طريقك .

وظل جوانيتو يرقب صديقه حتى توارى جوزيف عن نظره وابتلعه الظلام.

أدار جوزيف ظهره للقمر ، واتجه نحو الغرب ، وكانت الأرض لا تبين من مزق الظلام.. وبدت الاشجار الكبيرة أشباحاً من الضباب . وتعدّى جوزيف

حدود المدينة الى طريق النهر ، وهو يخلّف أثراً سرعان ما ينمحي بعد اختفاء صاحبه . وكان جوزيف يشم رائحة الغبار الثائر تحت حوافر حصانه ، ولكنه لا يرى ذلك الغبـــار ، ولمح ومض نجوم (بنات نعش) ، ثم بزغ القمر فبدت سلاسل الجبال وكأن لها حداً لماعاً من الفوسفور ، وظنّ ما يشبه حشرة (سراج الغول) يبرق ذيلها على سطح الأرض .

كان الليل ساجياً ، والرجل حزيناً ، فعاودته الذكرى ، ومن طبيعة الليل ان تنشط فيه الذكريات ، فتذكر جوزيف الآن ولده ، وكيف خلع عليه بركته قبل ان يرتحل ، ففكر جوزيف لو أنه بارك طفـــل جوانيتو على ذلك النحو . وتذكر كيف ان الأرض كانت تغمرها روح والده ، فأصبحت كل صخرة فيهـا وشجرة صغيرة او كبيرة ، عزيزة على قلبه هو . وتذكر رائحة الأرض الرطبة ، وكيف تحوك جذور الأعشاب الصغيرة شبكة ملتفة تحت سطحها .

وشطّ عقل جوزيف في استعادة مـــا وقع لصاحبه من أحداث ، وبدت جميعها في حلكة الليل سواداً .. كان جوزيف الآن بعيداً عن وحدته بالأرض فقال : لا بد وأن يقع جديد ولن يطول على ذلك الزمن ، فقد أخـذ تغيُّر ما يطرأ ، وإن كان لا زال في الطريق . وحينئذ سمع جوزيف همهمة الريح قادمة نحوه من الغرب ، وكانت الريح ساقمة تحمل معها ما يسقط من أوراق الأشجار الميتة الى الأرض ، ونتفاً من قش الأعشاب الجافة ، وشظايا صغيرة من فتات الصخور المتآكلة . ولفح كل ذلك وجه جوزيف ، وكانت الريح تشتد كلما تقدم جوزيف في طريقه . وعوى أحد بنات آوى من جانب الطريق يستفسر من رفيق له على الجانب الآخر عن الموقف العصيب ، فردّ عليه الآخر قـــانطاً ، واجتمع الصوتان في صرخة أفزعت قلب الليل ، وشاركهما ثالث من إخوتهم ، فارتجف جسد جوزيف وقال : « إنها جوعى ، فلم يبق ما تأكله » . ثم طرق سمعه خوار عجل او بقرة ، وسرّه ذلك لو كان قلبه الآن يعرف السرور ، فاتجه بحصانه الى مصدر الصوت ، ليجد بقرة ماتت قبل لحظات ، وإلى جانبها عجل صغير يبدو مضطرباً وهو يفتش عن حلمة ضرعها . وضحكت بنات آوى ساخرة

من جوزيف ، فترجل ونظر الى البقرة ، وكان عظم الزند منها في عار الجبل ، وأضلاعها في عمق مسايل الماء الجافة على سطوح التلال ، وقد ماتت لأنها لم تجد ما تقتات به من العشب . وحاول العجل ان يهرب ، ولكن هزاله لم يساعده ان يفعل ، فمثر ووقع على خرطومه ، فحلّ جوزيف حبل القربوص وربط به العجل ثم حمله معه أمامه على ظهر الحصان ، والتفت صوب الصواء وقال :

— والآن ، تفضلن الى الوليمة ، فكلن البقرة بسرعة ، ولن تجدن ما تأكلنه بعد قليل .

كان جوزيف يتحسس جلد العجل وقوائمه على ظهر الحصان والعجل يحاول أن يريح رأسه على رقبة الجواد ما أمكنه . وأخيراً ، صعد جوزيف التل ، فلاحت له بيوت المزرعة عن بعد مقفرة هاجعة ، وكانت شفرات المروحة تلمع في ضوء القمر حزينة مكتئبة . ولم يستطع جوزيف أن يحتمل ألم المنظر أمامه فأدار حصانه نحو الغابة ، وكانت رقعة من الظلام الحالك بالنسبة الى غيرها . واشتدّ هبوب العاصفة فخفض الحصان رأسه كي يتقي شرّها ، وظلّ جوزيف يتقدم ، وهو يسمع عويل الريح بين سوق الأشجار ، وأنين الأفراع حين تحتك ببعضها فتشكو . وكان شعاع من نور الفجر قد اخذ يتسلل الى الغابة الآن ، وتلوح فيه رؤوس أعالي الصنوبر ، ودخل الحصان طرف الغابة ، فبدا لجوزيف ان الريح وعويلها كانت غير ذات أثر هناك . كانت الغابة خالية من كل صوت.. سكون شامل عميق ، وسكينة عريضة مطبقة .. وربط جوزيف حصانه ، وفكّ العجل ، ووضع كيلين من الشعير المجروش في صندوق العلف ، ثم اندار كارهاً الى الصخرة ، فاجتاز الساحة بهدوء ثم برك بجانب الينبوع ، لكنه لم يجد ينبوعاً ... كان قد جفّ .. وتحسس جوزيف الحصى في قاع الينبوع ، فكان لا يزال رطباً ، ولكنه لا ماء ينزّ من المغارة تحت الصخرة .

كان جوزيف تعباً جداً ،فجلس وراحة يده على الحصى في قاع الغدير ،وقال:

— واخيراً ، انتهى كل شيء ، لقد كنت أقدّر ذلك منذ بعيد ، وها هو الآن قد تمّ .

كان الفجر قـد ارتفع وان لم يتكامل ، فوقف جوزيف وذهب الى الصخرة يربّت ظهرها ، وكان الطحلب قد يبست جذوره تقريباً فانقلب يميل الى الصفرة في لونـه . وانتبه جوزيف الى حركة خلفه ، فأبصر العجل يحاول الفكاك من رباطه ، وسرعان ما قفزت الى رأسه كلمات الشيخ العجوز ، فقال :

– ولِمَ لا أفعل مثله ؟ فذهب الى العجل وجاء به . وبزغت الشمس ، فنحر جوزيف العجل وأمسكه ليشخب دم رقبته في قاع الينبوع ، وكان الدم قليلاً فقال جوزيف: «مسكين ، ايها العجل لا دمَ فيك إلا قطرات ». وانقطع نزول الدم فتحول لونه الى اسود على حصى القاع ، وغيّبه الحصى ، ولم يظهر المـاء فقال جوزيف : « إن سرّ الرجل ينفعه وحده » .

وفطن جوزيف الى جفاف الطحلب وانقطاع الينبوع فقـال : « والآن أصبحت وحيداً » وغمره شعور بالحسرة والندم فتساءل : « ولِمَ أبقى في هـذا المكان ؟ » . وفكر جوزيف في وادي (بيترو سولو) الخصب ، فركض وهو يجتاز الساحة الى حيث يقف الحصان ثم هجم على السرج يود أن يرفعه الى ظهر حصانه . وراع منظره الحيوان، فرفع رأسه وقطع الرسن، وولّى هارباً فوقع السرج على صدر جوزيف . وراقب الأخير حصانه يعدو حتى خرج من الغابة ، وحينئذ عاود جوزيف الهدوء ورجعت اليه السكينة فقال : « سأرتقي الصخرة فأنام على سطحها قليلاً » وشعر جوزيف بألم في رسغه فرفع يـده الى وجهه يتفحّص السبب ، وإذا دماؤه تنزف من أثر جرح صنعه (بزيم) السرج عندما ارتدّ إليه ،وقد شعر جوزيف بالوحدة تماماً عندما رأى دماءه تسيل ،وهو ينقطع حتى عن الغابـة نفسها . لقد تحلّل واتحدت روحه مع شيء لا يدرك كنهه ، فقال : « طبعاً سأرتقي الصخرة » ، وتحسس مواضع قدميه بحذر حتى صَعدها ثم أخذ سكيناً من جيبه فوسّع الجرح بأن قطع شرايينه ، وكان الألم حاداً منكراً بضع لحظات ؛ إلا أنه خفّ بل زال تماماً بعد ذلك .

ورأى جوزيف دمه يسيل فيتخلل ما بين عروق الطحلب ، وسمع عويل الرياح خلف حدود الغابة ، وبدت له السماء رمادية قاتمـة ، فتمدد على الصخرة

ومدّ ذراعه المقطوع ، وأخذ ينظر إلى سلسلة الجبال في جسده .. وأخيراً شعر بنفسه خفيفاً ، فطار وارتفع في السماء ، وحينئذ انصبّ على الأرض وابل غزير من المطر ، فهمس جوزيف لنفسه : « كان يجب أن أدرك ذلك ، أنا هو المطر ».

وسمع جوزيف المطر تتساقط نقاطه على الأرض ، ورأى تلال جسده تثقل بالرطوبة قليلاً قليلاً ، فهمس لنفسه أيضاً « أنا هو المطر ، وأنا هي الأرض ، ومن دمي سينبت الحشيش فتثقل به سفوح التلال من جسدي بعد قليل » .

واشتدّت العاصفة ، فأظلمت السماء من غزارة المطر ، لأن جوزيف لم يَعُد موجوداً .

- ٢٦ -

امتلأ الوادي بالماء ، وتدفقت مسايل التلال ، وامتصّت الأرض ما احتاجت إليه حتى غدت سوداء داكنة من كثرة الرطوبة ، وعم الخير (وادي سيدتنا) وكان كل شيء يفيض بالجود والبركة .

وكان الأب انجيلو يجلس في مكتبته يقرأ (تأملات القديس برتلميو) عندما ابتدأ سقوط المطر . ولمـــا تزايد هطوله ، أغلق أبونا كتابه ، وجعل يتطلع الى السقف حيناً ، ويخرج إلى الباب حيناً آخر ، وتذكر كيف صلى من أجل ذلك المطر ، فسرّته الذكرى ، واعتبرها كرامة عند الرّب ، واستجابة من الرب اليه .

وخفّت حدة العاصفة عنـــد غسق الليلة الثانية ، فانسلّ الأب انجيلو الى الكنيسة وأوقد الشموع للعذراء ، وقـام بواجباته الدينية اليها ، ثم وقف عند باب الممشى الأمامي للكنيسة ، فرأى عمانويل غوميز يمر مسرعاً وهو يحمل جلد ثعلب لا يزال رطباً ، وجوز الفريز وهو يعدو بقربي وعل في إحدى يديه . وأخفى الأب انجيلو نفسه في الظلام فرأى السيدة غوتييري تتخطى برك الوحل مسرعة وهي تحمل جلد دب قـد أكل العثّ فيه خروقاً ، فعرف الأب انجيلو ماذا يمكن أن يحدث بعد هذه الليلة الممطرة ، فاحتد غضبه وقال :

ــ دعهم يبدأون ، وسأعرف كيف أوقف ذلك !! ودخل الى الكنيسة فأخذ صليباً ثقيلاً وعاد به الى بيته ، حيث طلى أطرافه بالفوسفور حتى تسهل رؤيته في الظلام ، ثم جلس ينتظر سماع ما يتوقعه من أصوات . وكان ذلك

عجباً حقاً أثناء انهمار المطر، ولكن الأب انجيلو تبين الأصوات التي يريدها فعلاً، وكانت رنات أوتار القيثار، وطرقات إيقاع الطبل، فحكم الخوري بأن الجماعة يرقصون بأقدامهم العارية عميقة في الوحل. وكان يعلم بأنهم يعرفون كيف يلبسون جلود الحيوانات مع أنهم يجهلون السبب الذي يلبسونها من أجله. وزاد ارتفاع الأصوات فقال الأب انجيلو « لا بد انهم أخذوا يخلعون ملابسهم، ليتدحرجوا على الطين عُراة كالخنازير في الوحل ».

ولم يطق أبونا ان يحتمل أكثر من ذلك فارتدى عباءة ثقيلة غطى بها الصليب اللماع، وفتح الباب.

كان الماء لا يزال ينهمر غزيرا، وأوتار القيثار ينسجم رنينها مع وقعه، وقد زاد الحماس في الفناء حتى غدا وحشياً محموماً، وكان الأب انجيلو يسمع خبط أجساد الراقصين في الطين، ولكنه لا يرى جيدا، فأغلق باب الكنيسة وقال: « لن أستطيع رؤيتهم في الظلام، وسيفلت الجميع مني، فلا فائدة لي في ذلك سأعظ ضدهم يوم الأحد القادم وسأفرض على كل منهم عقاباً ».

وعاد الخوري الى كرسيه وجلس يسمع صوت وقوع المطر، وتذكر جوزيف وتخيل عينيه الشاحبتين تنضحان بالألم من حاجة الأرض للمطر فقال:

« لا بدّ أن ذلك الرجل سعيد الآن » ..

— تمت —